

مُخْتَصَرُ طَرِيقِ الْهَجْرَتَيْنِ
وَبَابِ السَّعَادَتَيْنِ

مُخْتَصَرٌ

طَرِيقُ الْهَجْرَتَيْنِ وَبَابُ السَّعَادَتَيْنِ

تَأْلِيفُ

الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قَيْم الجوزية

(٦٩١-٧٥١هـ)

اختصره

أ.د. أحمد بن عثمان بن أحمد المزيد

أستاذ الدراسات الإسلامية - جامعة الملك سعود سابقاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المختصر

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد رسول الله ﷺ، وعلى آله وصحبه، ومن اقتفى أثره، وعمل بهديه، واستن بسنته، أما بعد.

فإنَّ الناس في سيرهم إلى الله تعالى في أمس الحاجة إلى منهج عملي مفصل، يُثمر لهم العبادات القلبية؛ من الإخلاص واليقين، والتوكل والإنابة، ويمدِّهم بالقوة الإيمانية التي تُعينهم وتيسِّر لهم أداء أعمالهم الدنيَّة والدنيويَّة، ويحقِّق لهم محبَّة النَّبي ﷺ، ومتابعته، والانقياد له، على المنهج الذي شرَّعه الله تعالى ورسوله ﷺ، فيُصل بهم إلى سعادة الدنيا والآخرة.

فمن أراد التماس هذا المنهج فدونه كتاب «طريق الهجرتين وباب السعادتين» للإمام ابن القيم، فشأنه في هذا الباب كبير؛ حيث بناه على ركنين أساسيين هما مضمون الشهادتين ومقتضاهما:

*** الأول:** الهجرة إلى الله بالتوحيد، والإخلاص، والمحبة، والإنابة، والتسليم، والخوف والرجاء، والافتقار.

*** الثاني:** الهجرة إلى الرسول ﷺ باتباع ما جاء به من الكتاب والسنة، والتسليم له، والانقياد لحكمه، وتلقي أحكام الظاهر والباطن من مشكاته.

وثمة بحوث نفيسة أوردها المؤلف في كتابه في معاني الغنى والفقر ودرجاتهما، ومعاني الأسماء الحسنى وطريقة التعبد بها، ومقامات السلوك وعللها، وقدم قواعد هامة في القضاء والقدر، والحمد وأقسامه، ومشاهد الناس في المعاصي والذنوب، وتناول أقسام العباد في سفرهم إلى الله تعالى، وأفاض في ذكر أحوال المصطفين من العباد، وختم الكتاب بذكر مراتب المكلفين في الدار الآخرة وطبقاتهم منها، وهم ثمان عشرة طبقة.

وجاء عنوان الكتاب بخط المؤلف بهذا الاسم «طريق الهجرتين وباب السعادتين» مرتين في الكتاب، إحداهما في العنوان، والأخرى في المقدمة.

ولتعظيم الاستفادة من هذا الكتاب المبارك ولتقريبه وتيسيره للقراء فقد سلّكنا في اختصاره الآتي:

- ١- الإبقاء على ألفاظ المؤلف دون زيادة أو تصرف.
 - ٢- الاقتصار على صلب موضوعات الكتاب، وما يحتاجه عامة المسلمين فقط.
 - ٣- إبراز فوائد الكتاب، والتخريج المختصر للأحاديث، وشرح غريب الألفاظ.
 - ٤- الاعتناء بالإخراج الفني للكتاب وتنسيقه؛ لتسهيل قراءته ويقرب مقصوده.
 - ٥- الاعتماد على أفضل الطباعات للكتاب، وهي طبعة عطاءات العلم، بتحقيق: محمد أجمل الإصلاحي.
 - ٦- طبع الكتاب طباعات غير ربحية، وجعل حقوقه لكل مسلم.
- والله نسأل أن ينفع هذا المختصر كما نفع بأصله، وأن يكتب لنا ولمؤلفه وقارئه الأجر الجزيل، ولمن يشاركنا نشر هذا العلم النافع؛ من آباء وأمهات بين أسرهم، وأئمة في مساجدهم، ولمن يساهم في نشره في الوسائط الرقمية، وقنوات الإعلام الجديد.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أ.د. أحمد بن عثمان بن أحمد المزيد

أستاذ الدراسات الإسلامية - جامعة الملك سعود سابقاً

(Mokhtsrat100@gmail.com)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي نَصَبَ الكائناتِ على ربوبيّته ووحدايته حُجَجًا، وَحَجَبَ العقولَ والأبصارَ أن تجد إلى تكييفه منهجًا، وأوجب الفوزَ بالنجاة لمن شهد له بالوحدانية شهادةً لم يبيغ لها عوجًا، وجعل لمن لاذ به واتّقاء من كل ضائقةٍ مخرجًا، وأعقب من ضيق الشدائدِ وضنك الأوابدِ لمن توكل عليه فرجًا، وجعل قلوب أوليائه متنقلةً في منازل عبوديته من الصبر والتوكل والإنابة والتفويض والمحبة والخوف والرجاء.

فسبحان من أنزل على عبده الكتابَ ولم يجعل له عوجًا، ورفع لمن ائتمَّ به، فأحلَّ حلاله، وحرَّم حرامه، وعمل بمحكمه، وآمن بمتشابهه، في مراقي السعادة درجًا. ووضع مَنْ أعرض عنه، ولم يرفع به رأسًا، ونبذه وراء ظهره، وابتغى الهدى من غيره، وجعله في دركات الجحيم متولِّجًا. فإنه الذكر الحكيم، والصراط المستقيم، والنبأ العظيم، وحبلُ الله المتين المديدُ بينه وبين خلقه، وعهده الذي من استمسك به فاز ونجا.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا سمِّي له، ولا كفو له، ولا صاحبة له، ولا ولد له.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وخيرته من خلقه، وأمينه على وحيه، وسفيره بينه وبين عباده. أرسله الله رحمةً للعالمين، وقدوةً للعاملين، ومحجةً للسالكين، وحجةً على العباد أجمعين. أرسله على حين فترة من الرسل، فهدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السبل، وافترض على العباد طاعته ومحبته وتعزيره وتوقيره والقيام بحقوقه، وسدَّ إلى جنته جميع الطرق فلم يفتح لأحدٍ إلا من طريقه. فشرح له صدره، ورفع له ذكره، ووضع عنه وزره، وجعل الذلَّة والصغارَ على من خالف أمره.

فهدى به من الضلالة، وعلم به من الجهالة، وكثر به بعد القلَّة، وأعزَّ به بعد الذلَّة،

وأغنى به بعد العيلة^(١)، وبصّر به من العمى، وأرشد به من الغي، وفتح برسالته أعيناً عُمياً وآذاناً صُمّاً وقلوباً غُلْفاً. فبلغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حقّ جهاده، وعبد الله حتى أتاه اليقين. فلم يدع خيراً إلاّ دلّ أمته عليه، ولا شراً إلاّ حذّر منه، ونهى عن سلوك الطريق الموصلة إليه. ففتح القلوب بالإيمان والقرآن، وجاهد أعداء الله باليد والقلب واللسان.

فجزاه الله عن أمته أفضل الجزاء، وصلى عليه صلاةً تملأ أقطار الأرض والسماء، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فإن الله سبحانه غرس شجرةً محبته ومعرفته وتوحيده في قلوب من اختارهم من بريته، واختصهم بنعمته، وفضلهم على سائر خلقه. فهي ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿٢٤﴾ تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥]. وكذلك شجرة الإيمان أصلها ثابت في القلب، وفروعها من الكلام الطيب والعمل الصالح في السماء، فلا تزال هذه الشجرة تُخرج ثمرها كل وقت بإذن ربها من طيب القول وصالح العمل ممّا تقرُّ به عين صاحب الأصل وعيون حفظته وعيون أهله وأصحابه ومن قرب منه. فإن من قرّت عينه بالله قرّت به كل عين، وأنس به كل مستوحش، وطاب به كل خبيث، وفرح به كل حزين، وأمن به كل خائف، وشهد به كل غائب، وذكّرت رؤيته بالله، فإذا رُئي ذكر الله.

قد اتخذ الله وحده معبوده ورجوه ومخوفه وغاية قصده ومنتهى طلبه، واتخذ رسوله ﷺ وحده دليلاً وإمامه وقائده وسائقه. فوحد الله عبادته ومحبته وخوفه ورجائه، وأفرد رسوله ﷺ بمتابعته والافتدائه به والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه.

فله في كل وقت هجرتان:

* هجرة إلى الله بالطلب والمحبة، والعبودية والتوكل والإنابة، والتسليم والتفويض، والخوف والرجاء، والإقبال عليه، وصدق اللجأ والافتقار في كل نفس إليه.

(١) العيلة: الفقر. وفي التنزيل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾: أي فقرا. وفيه: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾: أي فقيراً إذا عيال.

*** وهجرةٌ إلى رسولهِ ﷺ في حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة، بحيث تكون موافقةً لشرعه الذي هو تفصيلُ محابِّ الله ومرضاته، ولا يقبل الله من أحد ديناً سواه، وكلُّ عملٍ سواه فعيشُ النفس وحظُّها لا زادُ المعاد.**

وقد قال الجنيد بن محمد قدس الله روحه: الطرق كلها مسدودة إلا طريقَ من اقتفى آثار النبي ﷺ، وقال بعض العارفين: «كلُّ عمل بلا متابعة فهو عيش النفس».

ولمّا كانت السعادة دائرةً -نفيّاً وإثباتاً- مع ما جاء به، كان جديرًا بمن نصّح نفسه أن يجعل لحظات عمره وقفًا على معرفته، وإرادته، مقصورةً على محابته، وهذه أعلى همة شمر إليها السابقون، وتنافس فيها المتنافسون. فلا جرم ضمّنّا هذا الكتاب قواعد من سلوك طريق الهجرة المحمدية. وسَمّيناه (طريقَ الهِجْرَتَيْنِ، وَبَابَ السَّعَادَتَيْنِ). وابتدأناه بباب الفقر والعبودية، إذ هو باب السعادة الأعظم وطريقها الأقوم الذي لا سبيل إلى دخولها إلا منه. وختمناه بذكر طبقات المكلفين من الجن والإنس في الآخرة ومراتبهم في دار السعادة والشقاء. فجاء الكتاب غريبًا في معناه، عجيبًا في مغزاه، لكل قوم منه نصيب، ولكلّ واردٍ منه شرب. وما كان فيه من حقٍّ وصوابٍ فمن الله، هو المان به، فإنّما التوفيق بيده. وما كان فيه من خطأ وزللٍ فمَنّي ومن الشيطان، والله ورسوله ﷺ منه بريء.

فيا أيها القارئ له والناظر فيه، هذه بضاعةُ صاحبه المزجاةُ^(١) مسوقةٌ إليك، وهذا فهمه وعقله معروضٌ عليك؛ لك غنمه، وعلى مؤلفه غُرْمه، ولك ثمرته، وعليه عائدته. فَإِنْ عَدِمَ مِنْكَ حَمْدًا وَشُكْرًا، فَلَا يَعْدَمُ مِنْكَ مَغْفِرَةٌ وَعَذْرًا، وَإِنْ أَبَيْتَ إِلَّا الْمَلَامَ فَبَابُهُ مَفْتُوحٌ، وَقَدْ:

اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِالشَّيْءِ وَبِأَلِ — ** — حَمْدِ وَلِيِّ الْمَلَامَةِ الرَّجُلَا
والله المسؤول أن يجعله لوجهه خالصًا، وأن ينفع به مؤلفه وقارئه وكتابه في
الدنيا والآخرة. إِنَّهُ سَمِيعُ الدَّعَاءِ. وأهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(١) مزجاة: قليلة ضعيفة.

فَصْلٌ فِي أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْمَطْلُوقُ وَالْخَلْقُ فَقَرَاءُ مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ :

قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

بَيِّنَ سبحانه في هذه الآية أَنَّ فَقَرَ العبادِ إِلَيْهِ أَمْرٌ ذاتيٌّ لَهُمْ لا ينفك عنهم، كما أَنَّ كونه غنياً حميداً أَمْرٌ ذاتيٌّ لَهُ. فغناه وحمده ثابت له لذاته لا لأمرٍ أوجبه، وفقْرُ من سواه إِلَيْهِ أَمْرٌ ثابت لذاته لا لأمرٍ أوجبه. فلا يعلل هذا الفقر بحدوث ولا إمكان، بل هو ذاتي للفقير، فحاجة العبد إلى ربه لذاته، لا لعلّة أوجبت تلك الحاجة؛ كما أَنَّ غنى الرب **عَزَّوَجَلَّ** لذاته، لا لأمرٍ أوجبه غناه، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والفقرُ لي وصف ذاتٍ لازمٌ أبداً * * كما الغنى أبداً وصفٌ له ذاتي

إذا عُرِفَ هذا، فالفقرُ فقران:

* فقرٌ اضطراريّ، وهو فقرٌ عامٌّ لا خروجَ لِيَرَّ ولا فاجر عنه. وهذا الفقر لا يقتضي مدحاً ولا ذمّاً ولا ثواباً ولا عقاباً، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقاً ومصنوعاً.

* والفقر الثاني فقرٌ اختياريّ هو نتيجة علمين شريفيين:

● أحدهما: معرفة العبد بربه.

● والثاني: معرفته بنفسه.

فمتى حصلت له هاتان المعرفتان أنتجا له فقراً هو عينُ غناه وعنوانُ فلاحه وسعادته.

وتفاوت النَّاسِ في هذا الفقرِ بحسب تفاوتهم في هاتين المعرفتتين، فمن عرف ربه بالغنى المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق، ومن عرف ربه بالقدرة التامة عرف نفسه بالعجز التام، ومن عرف ربه بالعز التام عرف نفسه بالمسكنة التامة، ومن عرف ربه بالعلم التام والحكمة عرف نفسه بالجهل.

فالله تعالى أخرج العبد من بطن أمه لا يعلم شيئاً، ولا يقدر على شيء، ولا يملك شيئاً، ولا يقدر على عطاءٍ ولا منع، ولا ضر ولا نفع ولا شيء ألبته؛ فكان فقره في تلك الحال إلى ما به كماله أمراً مشهوداً محسوساً لكل أحد، ومعلوم أن هذا له من لوازم ذاته، وما بالذات دائم بدوامها، وهو لم ينتقل من هذه الرتبة إلى رتبة الربوبية والغنى، بل لم يزل عبداً فقيراً بذاته إلى بارئه وفاطره.

فلما أسبغ عليه نعمته، وأفاض عليه رحمته، وساق إليه أسباب كمال وجوده ظاهراً وباطناً، وخلع عليه ملابس إنعامه، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، وعلمه، وأقدره، وحركه، وصرفه، ومكّنه من استخدام بنى جنسه، وسخر له الخيل والإبل، وسلّطه على دواب الماء، واستنزال الطير من الهواء، وقهر الوحوش العادية، وحفر الأنهار، وغرس الأشجار، وشق الأرض، وتعلية البناء، والتحليل على جميع مصالحه، والتحرز والتحفظ ممّا يؤذيه ظن المسكين أن له نصيباً من الملك، وأدعى لنفسه ملكة مع الله، ورأى نفسه بغير تلك العين الأولى، ونسي ما كان فيه من حالة الإعدام والفقر والحاجة، حتّى كأنه لم يكن هو ذلك الفقير المحتاج المضطر، بل كان ذلك شخصاً آخر غيره؛ كما روى الإمام أحمد في مسنده من حديث بسر بن جحاش القرشي أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال: «قال الله عز وجل: بُنِيَ آدَمُ، أَنِّي تعجزني! وقد خلقتك من مثل هذه، حتّى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بُردين، ولالأرض منك ويُدّ، فجمعت ومنعت، حتّى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق، وأنى أوأن الصدقة!»^(١).

ومن ههنا خُذِلَ مَنْ خُذِلَ وَوُفِّقَ مَنْ وَفِّقَ، فحُجِبَ المخدول عن حقيقته وأنسي نفسه، فنسي فقره وحاجته وضرورته إلى ربه، فطغى وبغا وعتا، فحقّت عليه الشقوة. قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ ﴿٦﴾ أَن رَّاهُ اسْتَفْتَى ﴿٧﴾ [العلق ٦-٧]، وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْتَفَى ۚ ﴿٥﴾ وَصَدَقَ بِالْحَسَنَى ۚ ﴿٦﴾ فَسَيَّرَهُ لِلْإِسْرِى ۚ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۚ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَى ۚ ﴿٩﴾

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٧٠٧)، وأحمد في المسند (٤٠٢٤ / ٧).

فَسَنِيَسِرُهُ، لِّلْعُسْرَى ﴿[الليل: ٥-١٠].

فأكمل الخلق أكملهم عبودية وأعظمهم شهوذاً لفقره وحاجته وضرورته إلى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين. ولهذا كان من دعائه ﷺ: «أصليح لي شأني كله، ولا تكِلني إلى نفسي طرفة عين، ولا إلى أحدٍ من خَلْقِكَ»^(١).

وكان يدعو: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»^(٢). يعلم ﷺ أن قلبه بيد الرحمن عَزَّوَجَلَّ لا يملك هو منه شيئاً، وأن الله عَزَّوَجَلَّ يصرفه كما يشاء، كيف وهو يتلو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَا أَن تَبْنَتْنَا لَفَدِيدَتْ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٤].

فضرورته ﷺ إلى ربه وفاقته إليه بحسب معرفته به، وبحسب قربه منه ومنزلته عنده، وهذا أمر إنما لمن بعده منه ما يرشح من ظاهر الوعاء^(٣). ولهذا كان أقرب الخلق إلى الله وسيلةً وأعظمهم عنده جاهاً، وأرفعهم عنده منزلةً؛ لتكميله مقام العبودية والفقر إلى ربه عَزَّوَجَلَّ. وكان يقول لهم: «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»^(٤).

وذكره الله عَزَّوَجَلَّ بسمة العبودية في أشرف مقاماته: مقام الإسراء، ومقام الدعوة، ومقام التحدي. فقال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]. وقال: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، وقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]. وفي حديث الشفاعة: «إنَّ المسيح يقول لهم: اذهبوا إلى محمد عبدٍ غفر الله له ما تقدم من

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٩٠)، وأحمد في المسند (٤٧٢٣/٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٤٠)، وأحمد في المسند (٢٥٥٤/٥).

(٣) ما يرشح من ظاهر الوعاء: أي لغيره ﷺ من العبودية والافتقار إلى الله شيء قليل لا يذكر، بالنسبة إلى ما كان للنبي ﷺ من ذلك.

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

ذنبه وما تأخر»^(١). فنال ذاك المقام بكمال عبوديته لله وبكمال مغفرة الله له.

وتأمل قوله في الآية: ﴿أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥]، فعلق الفقر إليه باسمه «الله» دون اسم الربوبية ليؤذن بنوعي الفقر، فإنه - كما تقدم - نوعان:

○ فقرٌ إلى ربوبيته، وهو فقر المخلوقات بأسرها.

○ وفقرٌ إلى إلهيته، وهو فقر أنبيائه ورسله وعباده الصالحين، وهذا هو الفقر النافع.

والذي يشير إليه القوم، ويتكلمون عليه، ويشمرون إليه، هو الفقر الخاص لا العام. وقد اختلفت عباراتهم عنه ووصفهم له، وكلٌ أخبر عنه بقدر ذوقه وقدرته على التعبير.

[تعريف الفقر ودرجاته عند الهروي، وتفسير كلامه]:

قال شيخ الإسلام الأنصاري: «الفقر اسم للبراءة من رؤية الملكة، وهو على ثلاث درجات:

* فقله: «الفقر اسم للبراءة من رؤية الملكة» يعني أن الفقير هو الذي يجرد رؤية الملك لملكه الحق، فيرى نفسه مملوكة لله، لا يرى نفسه مالكا بوجه من الوجوه، ويرى أعماله مستحقة عليه بمقتضى كونه مملوكا عبداً مستعملاً فيما أمره به سيده.

كما قال عبد الله ورسوله وخيرته من خلقه ﷺ: «والله إني لا أعطي أحداً، ولا أمتع أحداً، وإنما أنا قاسم أضع حيث أمرت»^(٢).

فهو متصرف في تلك الخزائن بالأمر المحض تصرف العبد المحض الذي وظيفته تنفيذ أوامر سيده. فالله هو المالك الحق، وكلٌ ما بيد خلقه هو من أمواله وأملكه وخزائنه، أفاضها عليهم ليمتحنهم في البذل والإمساك، وهل يكون ذلك منهم على شاهد العبودية لله عز وجل، فيبذل أحدهم الشيء رغبة في ثواب الله، ورهبة من عقابه، وتقرباً إليه،

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣١١٧).

وطلباً لمرضاته؟ أم يكون البذل والإمساك منهم صادراً عن مراد النفس، وغلبة الهوى، وموجب الطبع، فيعطي لهواه ويمنع لهواه؟ فيكون متصرفاً تصرف المالك لا المملوك، فيكون مصدر تصرفه الهوى ومراد النفس، وغايته الرغبة فيما عند الخلق من جاه أو رفعة أو منزلة أو مدح أو حظ من الحظوظ، أو الرهبة من فوت شيء من هذه الأشياء.

* وقوله: «البراءة من رؤية الملكة»، ولم يقل «من الملكة» لأن الإنسان قد يكون فقيراً لا ملكة له في الظاهر، وهو عري عن التحقق بنعت الفقر الممدوح أهلّه الذين لا يرون ملكة إلا لملكها الحق ذي الملك والملكوت. وقد يكون العبد قد فوّض إليه من ذلك شيء وجعل كالخازن فيه، كما كان سليمان بن داود عليه السلام أوتي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وكذلك الخليل وشعيب والأغنياء من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكذلك أغنياء الصحابة. فهؤلاء لم يكونوا بريئين من الملكة في الظاهر، وهم بريئون من رؤية الملكة لنفوسهم، فلا يرون لها ملكاً حقيقياً، بل يرون ما في أيديهم لله عارية ووديعة في أيديهم، ابتلاهم به لينظر هل يتصرفون فيه تصرف العبيد أو تصرف الملاك الذين يعطون لهواهم ويمنعون لهواهم.

فوجود المال في يد الفقير لا يقدر في فقره، إنما يقدر في فقره رؤيته لملكته. فمن عوفي من رؤية الملكة لم يتلوّث باطنه بأوساخ المال وتعبه وتدبيره واختياره، وكان كالخازن لسيده الذي ينفذ أوامره في ماله، فهذا لو كان بيده من المال مثل جبال الدنيا لم يضره.

[تفسير الدرجة الأولى من الفقر]:

* قوله: «الدرجة الأولى فقر الزهاد، وهو نفص اليدين من الدنيا ضبطاً أو طلباً، وإسكات اللسان عنها ذمّاً أو مدحاً، والسلامة منها طلباً أو تركاً، وهذا هو الفقر الذي تكلموا في شرفه». فحاصل هذه الدرجة:

• فراغُ اليد والقلب من الدنيا، والذهولُ عن الفقرِ منها والزهدِ فيها. وعلامةُ فراغِ اليدِ نفْضُ اليدين من الدنيا ضبطاً أو طلباً: فهو لا يضبط يده مع وجودها شحاً وضناً بها، ولا يطلبها مع فقدانها سؤلاً وإحافاً وحرصاً. فهذا الإعراض والنفْضُ دالٌّ على سقوط منزلتها من القلب، إذ لو كان لها في القلب منزلة لكان الأمر بضدِّ ذلك، وكان يكون حاله الضبط مع الوجود لغناه بها، ولكان يطلبها مع فقدانها لفقره إليها.

• وأيضاً من أقسام الفراغِ إسكات اللسان عنها ذمّاً أو مدحاً، لأن من اهتمّ بأمره وكان له في قلبه موقع، اشتغل اللسان بما فاض على القلب من أمره مدحاً أو ذمّاً، فإنّه إن حصلت له مدحها، وإن فاتته ومُنِعها ذمّها. وذمّها علامةٌ موضعها من القلب، لأنّ الشيء إنّما يُذمّ على قدر الاهتمام به، والاعتناء بشفاء الغيظ منه بالذم.

• وكذلك تعظيم الزهد فيها إنّما هو على قدر خطرها في القلب، إذ لو لا خطرها وقدرها لما صار للزهد فيها خطر. وكذلك مدحها دليل على خطرها وموقعها من قلبه، فإنّ من أحبّ شيئاً أكثر من ذكره.

فصاحب هذه الدرجة لا يضبطها مع وجودها ولا يطلبها مع عدمها، ولا يفيض من قلبه على لسانه مدح لها يدلُّ على محبتها، ولا يفيض من القلب على اللسان ذم يدلُّ على موقعها وخطرها؛ فإنّ الشيء إذا صغر أعرض القلب عنه ذمّاً أو مدحاً.

والمقصود: أنّ صاحب هذا المقام إذا تحقّق به ظاهراً وباطناً، وسَلِمَ عن نظر نفسه إلى مقامه واشتغاله به ووقوفه عنده، فهو فقير حقيقي، وليس فيه قاذح من القوادح التي تحطّه عن درجة الفقر.

واعلم أنّه يحسن أعمال اللسان في ذمّ الدنيا في موضعين: أحدهما: موضع التزهيد فيها للراغب، والثاني: عندما يرجع به داعي الطبع والنفس إلى طلبها، ولا يأمن إجابة الداعي، فيستحضر في نفسه قلّة وفائها، وكثرة جفائها، وخسّة شركائها، فإنّه إن تمّ عقله وحضر رشده زهد فيها ولا بدّ.

فصل [تفسير الدرجة الثانية من الفقر]:

* وقوله: «الدرجة الثانية: الرجوع إلى السبق بمطالعة الفضل. وهو يُورث الخلاص من رؤية الأعمال، ويقطع شهود الأحوال، ويمحص من أدناس مطالعات المقامات».

فهذه الدرجة أرفع من الأولى وأعلى، والأولى كالوسيلة إليها؛ لأن في الدرجة الأولى يتخلّى بفقره عن أن يتأله غير مولاه الحق، وأن يضيع أنفاسه في غير مرضاته، وأن يفرق همومه في غير محابته، وأن يؤثر عليه غيره في حال من الأحوال. فيوجب له هذا الخلو وهذه المعاملة صفاء العبودية، وعمارة السرّ بينه وبين الله، وخلوص الوداد والمحبة. فيصبح ويمسي، ولا همّ له غير ربه، قد قطع همّه برّبّه عنه جميع الهموم، وعطّلت إرادته له جميع الإرادات، ونسخت محبته له من قلبه كل محبة لسواه.

والله عزّ وجلّ لم يجعل لرجل من قلبين في جوفه، فبقدر ما يدخل القلب من هم وإرادة وحب، يخرج منه هم وإرادة وحب يقابله، فهو إناء واحد والأشربة متعددة، فأى شراب ملأه لم يبق فيه موضع لغيره، وإنما يمتلئ الإناء بأعلى الأشربة إذا صادفه خاليًا، فأما إذا صادفه ممتلئًا من غيره لم يساكنه حتّى يخرج ما فيه، ثم يسكن موضعه، كما قيل: أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى * * فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا

ففقر صاحب هذه الدرجة تفرّغه إناءه من كلّ شراب مسكر، وكلّ شراب غير شراب المحبة والمعرفة فمسكر ولا بد، «وما أسكر كثيره فقليله حرام»^(١).

وكما كان موجب الدرجة الأولى من الفقر الرجوع إلى الآخرة، فأوجب الاستغراق في هم الآخرة نفصّ اليدين من الدنيا ضبطًا أو طلبًا، وإسكات اللسان عنها مدحًا أو ذمًا؛ فكذا كان موجب هذه الدرجة الثانية الرجوع إلى فضل الله عزّ وجلّ، ومطالعة سبقه للأسباب والوسائط.

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٨١)، والترمذي (١٨٦٥)، وابن ماجه (٣٣٩٣) عن جابر، والنسائي (٥٦٠٧) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

[التعبد لله بأسمائه : الأول، والآخر، والظاهر، والباطن]:

فبفضل الله وبرحمته وُجِدَتْ منهم الأحوال الشريفة، والمقامات العلية، وبفضله ورحمته وصلوا إلى رضاه ورحمته وقربه وكرامته وموالاته، وكان سبحانه هو الأول في ذلك كله، كما أنه الأول في كل شيء؛ وكان هو الآخر في ذلك، كما هو الآخر في كل شيء.

* فمن عبده باسمه الأول الآخر: حصل له حقيقة هذا الفقر، فإن انضاف إلى ذلك عبوديته باسمه «الظاهر الباطن» فهذا هو العارف الجامع لمتفرقات التعبد ظاهراً وباطناً:

* فعبوديته باسمه (الأول): تقتضي التجرد من مطالعة الأسباب والوقوف عندها والالتفات إليها، وتجريد النظر إلى مجرد سبق فضله ورحمته وأنه هو المبتدئ بالإحسان من غير وسيلة من العبد، فمن نزل اسمه الأول على هذا المعنى أوجب له ذلك فقراً خاصاً وعبودية خاصة.

* وعبوديته باسمه (الآخر): تقتضي أيضاً عدم ركونه ووثوقه بالأسباب والوقوف معها، فإنها تُعَدَم لا محالة، وتنقضي بالآخريّة، ويبقى الدائم الباقي بعدها. فالتعلق بها تعلقٌ بما يُعَدَم وينقضي، والتعلق بالآخر سبحانه تعلقٌ بالحي الذي لا يموت ولا يزول فالتعلق به حقيق أن لا يزول، ولا ينقطع، بخلاف التعلق بغيره مما له آخر يفنى به.

فتأمل عبودية هذين الاسمين وما يوجبانه من صحة الاضطرار إلى الله وحده ودوام الفقر إليه دون كل شيء سواه، وأن الأمر ابتداءً منه وإليه يرجع، فهو المبتدئ بالفضل حيث لا سبب ولا وسيلة، وإليه ينتهي الأمر حيث تنتهي الأسباب والوسائل، فهو أول كل شيء وآخره.

* وأما عبوديته باسمه (الظاهر): كما فسره النبي ﷺ بقوله: «وأنت الظاهر

فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»^(١). فإذا تحقق العبد علوه المطلق على كل شيء بذاته، وأنه ليس شيء فوقه ألبته، وأنه قاهر فوق عبادته، يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] صار لقلبه أمماً يقصده، ورباً يعبد، وإلهاً يتوجّه إليه؛ بخلاف من لا يدري أين ربه، فإنه ضائع مشّت القلب، ليس لقلبه قبله يتوجه نحوها، ولا معبود يتوجه إليه قصده.

والمقصود أن التعبد باسم «الظاهر» يجمع القلب على المعبود، ويجعل له رباً يقصده، وصمداً يصمّد إليه في حوائجه، وملجأً يلجأ إليه. فإذا استقرّ ذلك في قلبه، وعرف ربه باسمه «الظاهر» استقامت له عبوديته، وصار له معقل وموئل يلجأ إليه، ويهرب إليه، ويفرّ كل وقت إليه.

* وأما تعبد به باسمه (الباطن): فأمرٌ يضيق نطاق التعبير عن حقيقته، ويكِلّ اللسان عن وصفه، وتصطلم الإشارة إليه، وتجنّف العبارة عنه؛ فإنه يستلزم معرفةً بريئةً من شوائب التعطيل، مخلصّةً من فرث التشبيه، منزّهةً عن رجس الحلول والاتحاد؛ وعبارةً مؤدية للمعنى كاشفةً عنه، وذوقاً صحيحاً، سليماً من أذواق أهل الانحراف. فمن رزق هذا فهم معنى اسمه «الباطن»، وصحّ له التعبد به.

وهو تَبَارَكَ وَتَعَالَى كما أنه العالي على خلقه بذاته فليس فوقه شيء، فهو الباطن بذاته فليس دونه شيء، بل ظهر على كل شيء وكان فوقه، وبطن فكان أقرب إلى كل شيء من نفسه، وهو محيط به حيث لا يحيط الشيء بنفسه، وكل شيء في قبضته، وليس في قبضة نفسه، فهذا قرب الإحاطة العامة.

وأما القرب المذكور في القرآن والسنة فقربٌ خاصٌّ من عابديه وسائليه وداعيه،

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣).

وهو من ثمرة التعبد باسمه «الباطن»، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فهذا قرب به من داعيه.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»^(١) و«أقرب ما يكون الرب من عبده في جوف الليل»^(٢)، فهذا قرب خاص غير قرب الإحاطة وقرب البطون.

وفي الصحيح من حديث أبي موسى أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر، فارتفعت أصواتهم بالتكبير فقال: «أيها الناس اربعوا على أنفسكم»^(٣)، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إن الذي تدعونه سميع قريب، أقرب إلى أحدكم من عُنُق راحلته»^(٤)، فهذا قرب به من داعيه وذاكره، يعني: فأني حاجة بكم إلى رفع الأصوات، وهو لقربه يسمعها، وإن خفضت، كما يسمعها إذا رفعت، فإنه سميع قريب؟. وهذا القرب هو من لوازم المحبة، فكلما كان الحب أعظم كان القرب أكثر.

فالتعبد بهذا الاسم هو التعبد بخالص المحبة وصفو الوداد، وأن يكون الإله سبحانه أقرب إليه من كل شيء وأقرب إليه من نفسه، مع كونه ظاهراً ليس فوقه شيء. فمعرفة هذه الأسماء الأربعة - وهي: الأول، والآخر، والظاهر والباطن - هي أركان العلم والمعرفة، فحقيق بالعبء أن يبلغ في معرفتها إلى حيث ينتهي به قواه وفهمه. واعلم أن لك أنت أولاً وآخرًا وباطناً وظاهراً، بل كل شيء فله أول وآخر وظاهر

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٧٩)، والنسائي (٥٧٢).

(٣) قال النووي في شرح مسلم (٢٦/١٧): «اربعوا بهمزة وصل وبفتح الباء الموحدة: معناه ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان لبعد من يخاطبه ليسمعه وأنتم تدعون الله تعالى وليس هو بأصم ولا غائب، بل هو سميع قريب وهو معكم بالعلم والإحاطة».

(٤) أخرجه البخاري (٢٩٩٢، ٤٢٠٥، ٦٣٨٤)، ومسلم (٢٧٠٤).

وباطن، حتّى الخطرة واللحظة والنفس، وأدنى من ذلك وأكبر. فأولية الله **عَزَّوَجَلَّ** سابقة على أولية كل ما سواه، وآخريته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه. فأوليته سبقه لكل شيء، وآخريته بقاؤه بعد كل شيء. وظاهريته سبحانه فوقيته وعلوه على كل شيء، ومعنى الظهور يقتضي العلو، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه. وبطونه سبحانه إحاطته بكل شيء، وبحيث يكون أقرب إليه من نفسه، وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه. هذا لون، وهذا لون.

فهذه الأسماء الأربعة تشتمل على أركان التوحيد، فهو الأول في آخريته، والآخر في أوليته، والظاهر في بطونه، والباطن في ظهوره، لم يزل أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا. والتعبد بهذه الأسماء له رتبتان:

• **الرتبة الأولى:** أن يشهد الأولية منه تعالى في كل شيء، والآخرية بعد كل شيء، والعلو والفوقية فوق كل شيء، والقرب والدنو دون كل شيء. فالمخلوق يحجبه مثله عما هو دونه، فيصير الحاجب بينه وبين المحجوب؛ والرب **جَلَّ جَلَالُهُ** ليس دونه شيء هو أقرب إلى الخلق منه.

• **والرتبة الثانية من التعبد:** أن يعامل كل اسم بمقتضاه، فيعامل سبقه تعالى بأوليته لكل شيء، وسبقه بفضله وإحسانه الأسباب كلها، بما يقتضيه ذلك من إفراده، وعدم الالتفات إلى غيره، والوثوق بسواه والتوكل على غيره. فمن الذي شفع لك في الأزل حيث لم تكن شيئًا مذكورًا حتّى سمّاك باسم الإسلام، ووسمك بسمه الإيمان، وجعلك من أهل قبضة اليمين، فعصمك عن العبادة للعبيد، وأعتقك عن التزام الرق لمن له شكل ونديد؟ ثم وجه قلبك إليه **بَارَكَ وَتَعَالَى** دون ما سواه.

فاضرع إلى الذي عصمك من السجود للصنم، وقضى لك بقدم الصدق في القدم، أن يتّم عليك نعمة هو ابتدأها، وكانت أوليتها منه بلا سبب منك.

ثم اسمُ سرّك إلى المطلب الأعلى، واقصُر حبّك وتقربك على من سبق فضله

وإحسانه إليك كل سبب منك، بل هو الذي جاد عليك بالأسباب، وهياها لك، وصرف عنك موانعها، وأوصلك بها إلى غايتك المحموده. فتوكل عليه وحده، وعامله وحده، وآثر مرضاته وحده، واجعل حبه ومرضاته هو كعبة قلبك التي لا تزال طائفاً بها، مستلماً لأركانها، واقفاً بملتزمها.

ثم تعبد له باسمه «الآخر» بأن تجعله وحده غايتك التي لا غاية لك سواه، ولا مطلوب لك وراءه.

وأما التعبد باسمه «الباطن» فإذا شهدت إحاطته بالعوالم، وقرب البعيد منه، وظهور البواطن له، وبدو السرائر له، وأنه لا شيء بينه وبينها، فعامله بمقتضى هذا الشهود، وطهر له سريرتك، فإنها عنده علانية؛ وأصلح له غيبك، فإنه عنده شهادة؛ وزك له باطنك، فإنه عنده ظاهر.

فانظر كيف كانت هذه الأسماء الأربعة جماع المعرفة بالله، وجماع العبودية له.

[تفسير الدرجة الثالثة من الفقر]:

* قوله: «والدرجة الثالثة صحة الاضطرار، والوقوع في يد التقطع الوجداني، والاحتباس في قيد التجريد».

هذه الدرجة فوق الدرجتين السابقتين عند أرباب السلوك، وهي الغاية التي شَمروا إليها وحاموا حولها:

• فإن الفقر الأول فقر عن الأعراض الدنيوية.

• والفقر الثاني فقر عن رؤية المقامات والأحوال.

• وهذا الفقر الثالث فقر عن ملاحظة الوجود السائر للعبد عن مشاهدة الوجود، فيبقى الوجود الحادث في قبضة الحق عز وجل كالهباء المنثور في الهواء، يتقلب بتقليبه إيّاه، ويصير في شاهد العبد كما هو في الخارج. فتمحو رؤية التوحيد عن العبد شواهد استبداده

واستقلاله بأمر من الأمور، ولو في النفس واللمحة والطرفة والهمة والخاطر والوسوسة، إلا بإرادة المريد الحق سبحانه وتديره وتقديره ومشيتته. فيبقى العبد كالكرة الملقاة بين صَوْلَجَانات القضاء والقدر، تُقَلَّبُها كيف شاءت، بصحة شهادة قيومية من له الخلق والأمر، وتفرّده بذلك دون ما سواه.

وَحُكْمُ هذا الفقير المضطّرّ إلى خالقه في كلّ طرفة عين وكلّ نفس أنّه إن حُرِّك بطاعةٍ أو نعمةٍ شكرها وقال: هذا من فضل الله ومنّه وجوده، فله الحمد، وإن حُرِّك بمبادئ معصيته صرخ، ولجأ، واستغاث، وقال: «أعوذُ بك منك»^(١)، «يا مقلِّب القلوب ثبّت قلبي على دينك»^(٢)، «يا مصرّف القلوب صرّف قلبي على طاعتك»^(٣).

فإن تمّ تحرّيكه بالمعصية التجأ التجأ أسير قد أسره عدوّه، وهو يعلم أنّه لا خلاص له من أسره إلا بأن يفتكّه سيّدُه من الأسر، ففكّاه في يد سيّدِه، ليس في يده منه شيء ألبته، ولا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً؛ فهو في أسر العدو ناظرٌ إلى سيده، وهو قادر على تخليصه؛ قد اشتدّت ضرورته إليه، وصار اعتماده كلّهُ عليه. قال سهل: «إنّما يكون الالتجاء على معرفة قدر الابتلاء». يعني: وعلى قدر معرفة الابتلاء تكون المعرفة بالمبتلي.

ومن عرف معنى قوله ﷺ: «وأعوذُ بك منك»^(٤)، وقام بهذه المعرفة شهوداً وذوقاً، وأعطاهما حقّها من العبودية، فهو الفقير حقّاً.

ومدار الفقر الصحيح على هذه الكلمة، فمن رُزِقَ فهمها فهم سرّ الفقر المحمدي. فهو سبحانه الذي ينجي من قضائه بقضائه، وهو الذي يعيذ من نفسه بنفسه، وهو الذي يدفع ما منه بما منه. فالأمر كلّهُ له، والحكم كلّهُ له، والخلق كلّهُ له. وما شاء كان، وما

(١) أخرجه مسلم (٤٨٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٤٠)، وأحمد في المسند (٢٥٥٤/٥).

(٣) أخرجه مسلم بنحوه (٢٦٥٤).

(٤) أخرجه البخاري (٤٧١٢) ومسلم (١٩٤).

لم يشأ لم يكن، وما شاء لم يستطع أن يصرفه إلا مشيئته، وما لم يشأ لم يكن أن يجلبه إلا مشيئته. فلا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، ولا يهدي لأحسن الأعمال والأخلاق إلا هو، ولا يصرف سيئها إلا هو. ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧].

وقد ظن كثير من الصوفية أن التوحيد الخاص أن يشهد العبد المحرك له، ويغيب عن المتحرك وعن الحركة، فيغيب بشاهده عن حركته، فيشهد نفسه شعباً فانياً تجري عليه تصاريف المشيئة، كمن غرق في البحر فأمواجه ترفعه طوراً وتخفضه طوراً، فهو غائب بها عن ملاحظة حركته في نفسه، بل قد اندرجت حركته في ضمن حركة الموج، فكأنه لا حركة له بالحقيقة.

وهذا، وإن ظنه كثير من القوم غايةً، وظنه بعضهم لازماً من لوازم التوحيد، فالصواب أن وراءه ما هو أجل منه. وغاية هذا الفناء في توحيد الربوبية، وهو أن لا يشهد رباً وخالقاً ومدبراً إلا الله، وهذا حق، ولكن توحيد الربوبية وحده لا يكفي في النجاة فضلاً عن أن يكون شهوده والفناء فيه هو غاية الموحدين ونهاية مطلبهم.

بل الغاية التي لا غاية وراءها ولا نهاية بعدها الفناء في توحيد الإلهية؛ وهو أن يفنى بمحبة ربه عن محبة كل ما سواه، وبتأله عن تأله ما سواه، وبالشوق إليه وإلى لقائه عن الشوق إلى ما سواه، وبالذل له والفقر إليه من جهة كونه معبوده وإلهه ومحوبه عن الذل والفقر إلى كل ما سواه، وكذلك يفنى بخوفه ورجائه عن خوف ما سواه ورجائه. فيرى أنه ليس في الوجود ما يصلح له ذلك إلا الله، ثم يتصف بذلك حالاً، وينصبغ به قلبه صبغة، ثم يفنى بذلك عما سواه. فهذا هو التوحيد الخاص الذي شمر إليه العارفون، والورد الصافي الذي حام حوله المحبون.

وصاحب الفناء في توحيد الإلهية مجرد عن سوى مرضي محبوبه وأوامره، قد فني بحبه وابتغاء مرضاته عن حب غيره وابتغاء مرضاته. وهذا هو التجريد الذي سمّت إليه همم السالكين.

ولعمرُ الله إنَّ وراءَه تجريدًا أكملَ منه، ونسبتهُ إليه كَتَفْلَةٍ في بحرٍ، وشَعْرَةٍ في ظهرٍ بغيرٍ. وهو تجريد الحبِّ والإرادة عن الشوائب والعلل والحظوظ، فيتوحدُ حبُّه كما توحدُ محبوبه، ويتجرّد عن مراده من محبوبه بمراد محبوبه منه، بل يبقى مرادُ محبوبه منه هو نفس مراده. وهنا يعقل الاتحاد الصحيح، وهو اتحاد المراد، فيكون عينُ مراد المحبوب هو عينُ مراد المحبِّ. وهذا هو غاية الموافقة وكمال العبودية، ولا تتجرّد المحبة عن العلل والحظوظ التي تفسدها إلا بهذا.

فصل [في الغنى وانقسامه إلى عالٍ وسافل]:

ولمّا كان الفقرُ إلى الله عزَّ وجلَّ هو عينُ الغنى به - فأفقرُ النَّاسِ إلى الله أغناهم به، وأذلُّهم له أعزُّهم، وأضعفهم بين يديه أقواهم، وأجهلُّهم عند نفسه أعلمهم بالله، وأمقتهم لنفسه أقربهم إلى مرضاة الله - كان ذكرُ الغنى بالله مع الفقرِ إليه متلازمين متناسبين، فنذكر فصلًا نافعًا في الغنى العالِي.

واعلم أنَّ الغنى على الحقيقة لا يكون إلا لله الغنيُّ بذاته عن كلِّ ما سواه، وكلُّ ما سواه فموسومٌ بِسِمَةِ الفقرِ، كما هو موسومٌ بِسِمَةِ الخلق والصنع. فكما أنَّ كونه مخلوقًا أمرٌ ذاتيُّ له، فكونه فقيرًا أمرٌ ذاتيُّ له، كما تقدم بيانه، وغناه أمرٌ نسبيُّ إضافيٌّ عارض له، فإنَّه إمَّا استغنى بأمر خارج عن ذاته، فهو غني به فقير إليه. ولا يُوصَف بالغنى على الإطلاق إلا مَنْ غناه من لوازم ذاته، فهو الغني بذاته عمّا سواه، وهو الأحد الصمد الغني الحميد.

والغنى قسمان: غنى سافل، وغنى عال.

* فالغنى السافل: الغنى بالعواري^(١) المسترَدَّة من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، وهذا أضعف الغنى؛ فإنَّه غنىٌ بطلٌ زائل، وعاريةٌ ترجع عن قريب إلى أربابها، فإذا الفقر بأجمعه بعد ذهابها،

(١) العواري: جمع عارية، بتشديد الياء وتخفيفها، وهي الشيء المستعار، قال الأزهري: مأخوذة من عار، إذا ذهب وجاء وقال البطليوسي هي من التعاور وهو التناوب. انظر: فتح الباري لابن حجر (٥/ ٢٤١).

وكانَّ الغنى بها كان حُلماً فانقضى، ولا همّة أضعف من همّة من رضى بهذا الغنى الذي هو ظلٌّ زائلٌ.

وهذا غنى أرباب الدنيا الذي فيه يتنافسون، وإيَّاه يطلبون، وحوله يحومون، ولا أحبَّ إلى الشيطان وأبعد من الرحمن من قلبٍ ملآن بحبِّ هذا الغنى وبالخوف من فقده.

قال بعض السلف: إذا اجتمع إبليس وجنوده لم يفرحوا بشيء كفرحهم بثلاثة أشياء: مؤمن قتل مؤمناً، ورجل يموت على الكفر، وقلب فيه خوف الفقر.

وهذا الغنى محفوفٌ بفقرين: فقر قبله، وفقر بعده، وهو كالغفوة بينهما، فحقيق بمن نصح نفسه أن لا يغترَّ به ولا يجعله نهايةً مطلبه، بل إذا حصل له جعله سبباً لغناه الأكبر ووسيلةً إليه، ويجعله خادماً من خدمه لا مخدوماً له، وتكون نفسه أعزَّ عليه من أن يعبدها لغير مولاه الحق، أو يجعلها خادمةً لغيره.

فصلٌ [في الغنى العالي وتفسير كلام الهروي في درجاته]:

* وأما الغنى العالي فقال شيخ الإسلام الهروي:

«هو على ثلاث درجات:

■ الدرجة الأولى: غنى القلب، وهو سلامته من السبب، ومسالمة للحكم، وخلاصه من الخصومة.

■ والدرجة الثانية: غنى النفس، وهو استقامتها على المرغوب، وسلامتها من المسخوط، وبراءتها من المراءاة.

■ والدرجة الثالثة: الغنى بالحق، وهو ثلاث مراتب: الأولى:

● شهود ذكره إياك.

● والثانية: دوام مطالعة أوليته.

• والثالثة: الفوز بوجوده».

قلتُ: ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس»^(١). ومتى استغنت النفس استغنى القلب. ولكن الشيخ قسّم الغنى إلى هذه الدرجات بحسب متعلّقه فقال: «غنى القلب: سلامته من السبب، ومسالمة للحكم، وخلّاصه من الخصومة».

ومعلومٌ أنّ هذا شرط في الغنى، لا أنّه نفس الغنى؛ بل وجود المنازعة والمخاصمة وعدم المسالمة مانع من الغنى. فهذه السلامة والمسالمة دليل على غنى القلب، لا أنّ غناه بها نفسها، وإنّما غنى القلب بالدرجة الثالثة فقط، كما سيأتي بيانه. فإنّ الغنيّ إنّما يصير غنيّاً بحصول ما يسدُّ فاقتَه ويدفع حاجته. وفي القلبِ فاقة عظيمة وضرورة تامة وحاجة شديدة لا يسدّها إلاّ فوزُه بحصول الغني الحميد الذي إن حصل للعبد حصل له كلّ شيء، وإن فاته فاتَه كلّ شيء، فكما أنّه سبحانه الغنيّ على الحقيقة ولا غنيّ سواه، فالغنى به هو الغنى في الحقيقة ولا غنىّ بغيره ألبته. فمن لم يستغن به عمّا سواه تقطّعت نفسه على السّوء^(٢) حسراتٍ، ومن استغنى به زالت عنه كل حسرة، وحضره كل سرور وفرح، والله المستعان.

وإنّما قدّم الشيخ الكلام على «غنى القلب» على الكلام على «غنى النفس»؛ لأنّ كمال صلاح النفس، وغناها بالاستقامة من جميع الوجوه، وبلوغها إلى درجة الطمأنينة لا يكون إلا بعد صلاح القلب، هكذا قيل! وفيه ما فيه؛ لأنّ صلاح كلّ منهما مقارنٌ لصلاح الآخر، ولكن لما كان القلب هو الملِك وكان صلاحه صلاح جميع رعيته كان أولى بالتقديم.

وقد قال النبي ﷺ: «إنّ في الجسدِ مضغةً إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

(٢) السّوء: أي ما سوى الله مما في الدنيا من أشياء وملذات.

(٣) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

والقلب إذا استغنى بما فاض عليه من مواهب ربّه وعطاياه السنية خلَعَ على الأمراء والرعية خلَعًا تناسبها: فخلَعَ على النفس خلَعَ الطمأنينة والسكينة والرضا والإخبات، فأدّت الحقوق سماحةً لا كظمًا بل بانسراح ورضا ومبادرة.

وخلَعَ^(١) على الجوارح خلَعَ الخشوع والوقار، وعلى الوجه خلعة المهابة والنور والبهاء، وعلى اللسان خلعة الصدق والقول السديد الثابت والحكمة النافعة، وعلى العين خلعة الاعتبار في النظر والغصّ عن المحارم، وعلى الأذن خلعة استماع النصيحة واستماع القول النافع استماعه للعبد في معاشه ومعاده، وعلى اليدين والرجلين خلعة البطش في الطاعات أين كانت بقوة وأيدٍ، وعلى الفرج خلعة العفة والحفظ؛ فغدا العبد وراح يرفل^(٢) في هذه الخلع، ويجرّ لها في الناس أذيالاً وأرداناً^(٣).

فغنى النفس مشتقٌّ من غنى القلب وفرغ عليه، فإذا استغنى سرى الغنى منه إلى النفس. وغنى القلب بما يناسبه من تحقّقه بالعبودية المحضة التي هي أعظم خلعة تُخلع عليه.

فإذا استغنى القلب بهذا الغنى الذي هو غاية فقره استغنت النفس غنىً يناسبها، وذهبت عنها البرودة التي توجب ثقلها وكسلها وإخلاؤها إلى الأرض، وصارت لها حرارةٌ توجب حركتها وخفتها في الأوامر وطلبها الرفيق الأعلى، وصارت برودتها في شهواتها وحظوظها ورعوناتها.

[تفسير الدرجة الأولى وهي غنى القلب]:

* فقوله في الدرجة الأولى -وهي غنى القلب- أنه «سلامته من السبب» أي من

(١) خلع هنا بمعنى أعطى. والخلعة: واحدة الخلع وهي العطايا والهبات.

(٢) رفل: عاش وتنعم.

(٣) أردان: جمع رذن. قال ابن سيده: الرذن مُقَدَّمُ كَمِ الْقَمِيصِ، وَقِيلَ: هُوَ أَسْفَلُهُ، وَقِيلَ: هُوَ الْكُمُ كُلُّهُ، وَالْجَمْعُ أَرْدَانٌ وَأَرْدَنَةٌ.

الفقر إلى السبب، وشهوده، والاعتماد عليه، والركون إليه، والثقة به. فمن كان معتمداً على سبب غنياً به واثقاً به لم يطلق عليه اسم «الغنى»، لأنه فقير إلى الوسائط، بل لا يسمّى صاحبه غنياً إلا إذا سلّم من علّة السبب استغناءً بالمسبّب، بعد الوقوف على رحمته وحكمته وتصرفه وحسن تدبيره، فلذلك يصير صاحبه غنياً بتدبير الله **عَزَّوَجَلَّ**.

فمن كملت له السلامة من علّة الأسباب، ومن علّة المنازعة للحكم، بالاستسلام له والمسالمة، أي بالانقياد لحكمه الذي حصّل الغنى للقلب بوقوفه على حسن تدبيره ورحمته وحكمته. فإذا وقف العبد على حسن تدبيره واستغنى القلب به لم يتم له الاستغناء بمجرد هذا الوقوف، إن لم ينضمّ إليه المسالمة للحكم - وهو الانقياد له - فإنّ المنازعة للحكم إلى حكم آخر دليل على وجود رعونة الاختيار، وذلك دالٌّ على فقر صاحب الاختيار إلى ذلك الشيء المختار، ومن كان فقيراً إلى شيء لم يُرده الله **عَزَّوَجَلَّ** لم يُطلق عليه اسم الغني بتدبير الله **عَزَّوَجَلَّ**. فلا يتم الغنى بتدبير الربّ **عَزَّوَجَلَّ** لعبده إلا بالمسالمة لحكمه بعد الوقوف على حسن تدبيره.

ثمّ يبقى عليه الخلاص من معنى آخر، وهو مخاصمة الخلق بعد الخلاص من منازعة الربّ. فإنّ مخاصمة الخلق دليل على فقره إلى الأمر الذي وقعت فيه الخصومة من الحظوظ العاجلة، ومن كان فقيراً إلى حظٍّ من الحظوظ، يسخط لفوته، ويخاصم الخلق عليه، لا يطلق عليه اسم الغني حتّى يسلم الخلق من خصومته؛ لكمال تفويضه إلى وليّه وقيامه ومتولي تدبيره.

فمتى سلّم العبد من علة فقره إلى السبب، ومن علّة منازعته لأحكام الله **عَزَّوَجَلَّ**، ومن علة مخاصمته للخلق على حظوظ استحقّق أن يكون غنياً بتدبير مولاه، مفوّضاً إليه، لا يفتقر قلبه إلى غيره، ولا يسخط شيئاً من أحكامه، ولا يخاصم عباده إلا في حقوق ربه؛ فتكون مخاصمته لله وبالله، ومحاكمته إلى الله؛ كما كان النبي **ﷺ** يقول في استفتاح صلاة الليل: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنْبْتُ، وَبِكَ

خاصمتُ، وإليك حاكمُ»^(١).

فتكون مخاصمةُ هذا العبدِ لله، لا لهواه وحظُّه؛ ومحاكمتهُ خصمه إلى أمر الله وشرعه، لا إلى شيءٍ سواه. فمن خاصم لنفسه فهو ممن أتبع هواه، وانتصر لنفسه. وقد قالت عائشة: «ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط»^(٢)، وهذا لتكميل عبوديته ﷺ. ومن حاكم خصمه إلى غير الله ورسوله ﷺ فقد حاكم إلى الطاغوت، وقد أمر أن يكفر به، ولا يكفر العبد بالطاغوت حتى يجعل الحكم لله وحده، كما هو كذلك في نفس الأمر.

والحكم حكمان:

- حكم كوني قدري.
- وحكم أمري ديني.

فهذا الذي ذكره الشيخ في «منازل السائر» وشرحه عليه الشارحون إنما مراده به الحكم الكوني القدري. وحينئذٍ فلا بدَّ من تفصيل ما أجملوه من مسألة الحكم والاستسلام له وترك المنازعة له، فإنَّ هذا الإطلاق غيرُ مأمور به، ولا ممكن للعبد في نفسه.

بل الأحكام ثلاثة:

■ «حكم شرعي ديني»، فهذا حقه أن يُتلقَى بالمسالمة والتسليم وترك المنازعة، بل الانقياد المحض. وهذا تسليم العبودية المحضة، فلا يعارض بذوق ولا وجد ولا سياسة ولا قياس ولا تقليد، ولا يرى إلى خلافه سبيلاً ألبتة، وإنما هو الانقياد المحض والتسليم والإذعان والقبول.

■ الحكم الثاني: الحكم الكوني القدري الذي للعبد فيه كسب واختيار وإرادة، والذي إذا حكم به يسخطه ويغضبه ويدمُّ عليه، فهذا حقه أن يُنازَعَ ويُدافَعَ بكلِّ ممكن

(١) أخرجه البخاري (١١٢٠، ٦٣١٧)، ومسلم (٧٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٢٦، ٦٧٨٦)، ومسلم (٢٣٢٧).

ولا يُسألَم إذا ألبتة، بل يُنازع بالحكم الكوني أيضاً، فينازع حكم الحق بالحق للحقّ. فإن ضاق ذرعك عن هذا الكلام وفهمه فتأمل قول عمر بن الخطاب، وقد عوتب على فراره من الطاعون، فقليل له: أتفرّ من قدر الله؟ فقال: «نفرّ من قدر الله إلى قدر الله»^(١).

ثمّ كيف ينكر هذا الكلام من لا بقاء له في هذا العالم إلا به، ولا تتمّ له مصلحة إلا بموجبه. فإنّه إذا جاءه قدرٌ من الجوع والعطش والبرد نازعه، وترك الانقياد له ومسالمة، ودفعَ بقدر آخر من الأكل والشرب واللباس، فقد دفع قدر الله بقدره. وهكذا إذا وقع الحريقُ في داره فهو بقدر الله، فما باله لا يستسلم له ويسالمة ويتلقّاه بالإذعان؟ بل ينازعه ويدافعه بالماء والتراب وغيره حتّى يطفئ قدر الله بقدر الله، وما خرج في ذلك عن قدر الله.

ولو أنّ عدوّاً للإسلام قصّده لكان هذا بقدر الله، ويجب على كلّ مسلم دفعُ هذا القدر بقدر يحبه الله - وهو الجهاد باليد أو المال أو القلب - دفعاً لقدر الله بقدره، فما للاستسلام والمسالمة هنا مدخل في العبودية؛ اللهمّ إلا إذا بذل العبدُ جهده في المدافعة والمنازعة، وخرج الأمر عن يده.

■ فحينئذ يبقى من أهل الحكم الثالث: وهو الحكم القدري الكوني الذي يجري على العبد بغير اختياره، ولا طاقة له بدفعه، ولا حيلة له في منازعته.

فهذا حقّه أن يتلقّى بالاستسلام والمسالمة وترك المخاصمة، وأن يكون فيه كالميت بين يدي الغاسل، وكمن انكسر به المركب في لجة البحر، وعجز عن السباحة، وعن سبب دينيه من النجاة؛ فههنا يحسن الاستسلام والمسالمة. مع أنّ عليه في هذا الحكم عבודياتٍ أخر سوى التسليم والمسالمة، وهي أن يشهد عزّة الحاكم سبحانه

(١) أخرجه البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩).

في حكمه، وعدله في قضائه.

ويشهد أن القدر ما أصابه إلا لحكمة اقتضاها اسمُ الحكيم **جَلَّ جَلَالُهُ** وصفة الحكمة، وأنَّ القدر قد أصاب مواقعه وحلَّ في المحلَّ الذي ينبغي أن يحلَّ فيه، إذ هو مُوجِبُ الحكمة البالغة والعلم المحيط والعزة التامة، لم يخطئ مواقع الحكمة، ولم يتعدَّ منازلها التي ينبغي له أن ينزل بها؛ وأنَّ ذلك أوجبه عدلُ الله وحكمته وعزُّه وعلمه وملكوته العادل، فهو موجبُ أسمائه الحسنَى وصفاته العلى. فله عليه أكملُ حمد وأتمُّه، كما له الحمدُ على جميع أفعاله وأوامره.

وإن كان حظُّ العبد من هذا القدر الذمِّ، فحقُّ الربِّ **جَلَّ جَلَالُهُ** منه الحمد والمدح، لأنَّه موجبُ كماله وأسمائه الحسنَى وصفاته العلى، وهو موجبُ نقصِ العبد وجهله وظلمه وتفريطه.

ويشفيه في هذا المقام أربع آيات:

• أحدها: قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

• والثانية: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُمْصِبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

• والثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَبَكُمْ مِنْ مُمْصِبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

• والرابعة: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَبًا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨].

فمن نزل هذه الآيات على هذا الحكم علماً ومعرفةً، وقام بموجبها إرادةً وعزماً

وتوبةً واستغفارًا، فقد أدّى عبودية الله في هذا الحكم، وهذا قدر زائد على مجرد التسليم والمسالمة. والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فصل [في تفسير الدرجة الثانية وهي غنى النفس]:

* قوله في غنى النفس إنّه: «استقامتها على المرغوب، وسلامتها من المسخوط، وبراءتها من المראה»: يريد به استقامتها على الأمر الديني الذي يحبه الله ويرضاه، وتجنبها لمناهيه التي يسخطها ويُبغضها، وأن تكون هذه الاستقامة على الفعل والترك تعظيمًا لله وأمره، وإيمانًا به، واحتسابًا لثوابه، وخشيةً من عقابه؛ لا طلبًا لتعظيم المخلوقين له ومدحهم، وهربًا من ذمهم وازدراءهم، وطلبًا للجاه والمنزلة عندهم. فإنّ هذا دليل على غاية الفقر من الله، والبعد منه، وأنّه أفقر شيء إلى المخلوق.

فسلامة النفس من ذلك واتصافها بضده دليل غناها؛ لأنّها إذا أذعنت منقادًا لأمر الله طوعًا واختيارًا ومحبةً وإيمانًا واحتسابًا، بحيث تصير لذّتها وراحتها ونعيمها وسرورها في القيام بعبوديته، كما كان النبي ﷺ يقول: «يا بلال أرخنا بالصلاة»^(١)، وقال ﷺ: «حُبَّ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(٢).

وقرّة العين فوق المحبة، فجعل النساء والطيب مما يحبه، وأخبر أنّ قرّة العين التي يطمئن القلب بالوصول إليها، وتحضره لذّته وفرحه وسروره وبهجته إنّما هو في الصلاة التي هي صلة بالله وحضور بين يديه، ومناجاة له واقتراب منه، فكيف لا تكون قرّة العين، وكيف تقرّ عين المحبّ بسواها؟ فإذا حصل للنفس هذا الحظّ الجليل فأيّ فقر تخشى معه، وأي غنى فاتها حتّى تلتفت إليه؟

ولا يحصل لها هذا حتّى ينقلب طبعها، ويصير مجانسًا لطبيعة القلب؛ فتصير بذلك مطمئنة بعد أن كانت لؤامة. وإنّما تصير مطمئنة بعد تبدّل صفاتها، وانقلاب

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٨٥)، وأحمد في المسند (٥٤٧٦/١٠).

(٢) أخرجه النسائي (٣٩٤٠)، وأحمد في المسند (٢٥٩١/٥).

طبعها، لاستغناء القلب بما وصل إليه من نور الحق **جَلَّ جَلَالُهُ**، فجرى أثر ذلك النور في سمعه وبصره، وشعره وبشره، وعظمه ولحمه، وسائر مفاصله؛ وأحاط بجهاته من فوقه وتحت، ويمينه ويساره، وخلفه وأمامه؛ وصارت ذاته نوراً فصارع عمله نوراً، وقوله نوراً، ومدخله نوراً، ومخرجه نوراً؛ وكان في مبعثه ممن أُنمَّ له نوره، فقطع به الجسر.

فإذا صارت النفس حرةً مطمئنةً غنيةً بما أغناها به مالکها وفاطرها من النور الذي وقع في القلب، ففاض منه إليها استقامت بذلك الغنى على الأمر المرغوب، وسلمت به عن الأمر المسخوط، وبرئت من المراية. ومدار ذلك كله على الاستقامة ظاهراً وباطناً، ولهذا كان الدين كله في قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتَ﴾ [هود: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣].

فصل في الدرجة الثالثة وهي: الغنى بالحق سبحانه، ولها ثلاث درجات:

* وهذه الاستقامة تُرقيها إلى الدرجة الثالثة من الغنى، وهو الغنى بالحق **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** عن كل ما سواه، وهي أعلى درجات الغنى.

● فأول هذه الدرجات: أن تشهد ذكر الله **عَزَّ جَلَّ** إياك قبل ذكرك له، وأنه تعالى ذكرك فيمن ذكره من مخلوقاته ابتداءً قبل وجودك وطاعتك وذكرك، فقدّر خلقك ورزقك وعملك وإحسانه إليك ونعمه عليك حيث لم تكن شيئاً ألبته.

وذكرك سبحانه بالإسلام، فوفقك له، واختارك له دون من خذله، قال تعالى: ﴿هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨] فجعلك أهلاً لما لم تكن أهلاً له قط، وإنما هو الذي أهلك بسابق ذكره، فلولا ذكره لك بكل جميل أولاه لم يكن لك إليه سبيل.

ومن الذي ذكرك باليقظة، حتى استيقظت، وغيرك في رقدة الغفلة مع النوم؟

ثم إنه سبحانه ذكرك بنعمه المترادفة المتواصلة بعدد الأنفاس، فله عليك في كل طرفة عينٍ ونفسٍ نعمٌ عديدةٌ ذكرك بها قبل وجودك، وتعرّف بها إليك، وتحبب بها إليك،

مع غناه التامّ عنك وعن كل شيء.

فإذا شهد العبدُ ذكرَ ربِّه له، ووصل شاهدُه إلى قلبه شَغَلَه ذلك عمّا سواه، وحصل لقلبه به غنى عالٍ لا يشبهه شيء. وهذا كما يحصل للمملوك الذي لا يزال أستاذُه وسيّدُه يذكُرُه ولا ينساه، فهو يحصل له - بشعوره بذكر أستاذه له - غنى زائد على إنعام سيّده عليه وعطاياه السنّية له؛ فهذا هو غنى ذكر الله للعبد.

وقد قال ﷺ فيما يروي عن ربه **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**: «مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»^(١). فهذا ذكرٌ ثانٍ بعد ذكر العبد لربه غير الذكر الأوّل الذي ذكره به حتّى جعله ذاكرًا، وشعورُ العبد بكلا الذكرين يُوجب له غنى زائدًا على إنعام ربِّه عليه وعطاياه له.

والمقصودُ أنّ شعور العبد وشهوّدَه لذكر الله له يُغني قلبه ويسدُّ فاقته، وهذا بخلاف مَنْ نسوا الله فنسيهم؛ فإنَّ الفقرَ من كلّ خير حاصلٌ لهم، وما يظنون أنّه حاصل لهم من الغنى فهو من أكبر أسباب فقرهم.

فصلٌ

• الدرجة الثانية من درجات الغنى بالله **عَزَّ وَجَلَّ**: دوامُ شهودِ أوليته تعالى.

وهذا الشهود عند أرباب السلوك أعلى ممّا قبله، والغنى به أتمّ من الغنى المذكور؛ لأنّه من مبادئ الغنى بالحقيقة؛ لأنّ العبد إذا فتح الله لقلبه شهود أوليته سبحانه حيث كان ولا شيء غيره، وهو الإله الحقّ الكامل في أسمائه وصفاته، الغني بذاته عمّا سواه، الحميد المجيد بذاته قبل أن يخلق مَنْ يحمده ويعبده ويمجّده، فهو معبود محمود حيّ قيوم، له الملك وله الحمد في الأزل والأبد، لم يزل ولا يزال موصوفًا بصفات الجلال، منعوتًا بنعوت الكمال، وكلُّ شيء سواه فإنّما كان به؛ وهو تعالى بنفسه ليس بغيره، فهو القيوم الذي قيامُ كلّ شيء به، ولا حاجة به في قيوميته

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

إلى غيره بوجه من الوجوه.

وليس هذا مختصاً بشهود أوليته تعالى فقط، بل جميع ما يبدو للقلوب من صفات الربّ **جَلَّ جَلَالُهُ** يستغني العبدُ بها بقدر حظّه وقسمه من معرفتها وقيامه بعبوديتها.

[من فوائد شهود معاني الأسماء الحسنى:]

○ فَمَنْ شهد مشهَدَ علوّ الله على خلقه وفوقيّته لعباده واستوائه على عرشه، كما أخبر به أعرَفُ الخلق وأعلمهم به الصادقُ المصدوقُ؛ وتعبّد بمقتضى هذه الصفة، بحيث يصير لقلبه صَمَدٌ^(١) يعرج القلبُ إليه مناجياً له مطرّقاً واقفاً بين يديه وقوفَ العبد الذليل بين يدي الملك العزيز، فيشعر بأنّ كلمه وعمله صاعدٌ إليه معروضٌ عليه بين خاصّته وأوليائه، فيستحيي أن يصعد إليه من كلمه وعمله ما يُخزيه ويفضحه هناك.

○ وكذلك إذا شهد معنى اسمه «البصير» **جَلَّ جَلَالُهُ** الذي يرى ديب النملة السوداء على الصخرة الصمّاء في حِنْدَسٍ^(٢) الظلمات، ويرى تفاصيل خلق الذرّة الصغيرة ومخها وعروقها ولحمها وحركتها، ويرى مدّ البعوضة جناحها في ظلمة الليل؛ وأعطى هذا المشهد حقّه من العبودية، فحرّس حركاته وسكناته، وتيقّن أنّها بمرأى منه **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** ومشاهدة لا يغيب عنه منها شيء.

○ وكذلك إذا شهد مشهَدَ القيومية الجامع لصفات الأفعال، وأنّه قائم على كل شيء، وقائم على كل نفس بما كسبت؛ وأنّه تعالى هو القائم بنفسه، المقيم لغيره، القائم عليه بتدبيره وربوبيته وقهره وإيصال جزاء المحسن إليه وجزاء المسيء إليه؛ وأنّه لكمال قيوميّته لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرْفَعُ إليه عملُ الليل قبل النّهار وعملُ النّهار قبل الليل، لا تأخذه سنةٌ ولا نوم، ولا يضلّ ولا ينسى. وهذا المشهد

(١) صمد: سيد مقصود لا يقضى بدونه أمر.

(٢) حندس: شدة الظلمة.

من أرفع مشاهد العارفين، وهو مشهد الربوبية.

○ وأعلى منه مشهد الإلهية الذي هو مشهد الرسل وأتباعهم الحنفاء. وهو شهادة أن لا إله إلا هو، وأنَّ إلهية ما سواه باطل ومحال، كما أنَّ ربوبية ما سواه كذلك، فلا أحد سواه يستحق أن يؤلَّه ويُعبَد، ويُصلَّى له ويُسجَد. ويستحقُّ نهاية الحبِّ مع نهاية الدَّلِّ لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله، فهو المطاع وحده على الحقيقة، والمألوه وحده، وله الحكم وحده. فكلُّ عبودية لغيره باطلةٌ وعناءٌ وضلال، وكلُّ محبة لغيره عذاب لصاحبها، وكلُّ غنى بغيره فقرٌ وفاقة، وكلُّ عزٍّ بغيره ذلٌّ وصغار، وكلُّ تكثُّر بغيره قلةٌ وذلةٌ. فكما استحال أن يكون للخلق ربٌّ غيره، فكذلك يستحيل أن يكون لهم إله غيره، فهو الذي انتهت إليه الرغبات، وتوجهت نحوه الطلبات.

فمشهد الألوهية هو مشهد الحنفاء، وهو مشهد جامع للأسماء والصفات، وحظُّ العباد منه بحسب حظِّهم من معرفة الأسماء والصفات. ولذلك كان أكملُ الخلق فيه أعرَفَهم بالله وأسمائه وصفاته، ولذلك كان الاسم الدَّالُّ على هذا المعنى هو اسم الله **جَلَّ جَلَالُهُ**، فإنَّ هذا الاسم هو الجامع، ولهذا تضاف الأسماء الحسنَى كُلُّها إليه، فيقال: الرحمن الرحيم العزيز الغفار القهار من أسماء الله، ولا يقال: «الله» من أسماء الرحمن. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فهذا المشهد تجتمع فيه المشاهد كُلُّها، وكلُّ مشهد سواه فإنَّما هو مشهدٌ لصفة من صفاته. فمن اتسع قلبه لمشهد الإلهية، وقام بحقه من التعبُّد الذي هو كمالُ الحبِّ بكمالِ الدَّلِّ والتعظيم والقيام بوظائف العبودية، فقد تمَّ له غناه بالإله الحقِّ، وصار من أغنى العباد. ولسانُ حالٍ مثل هذا يقول:

غَنَيْتُ بِلا مالٍ عن النَّاسِ كُلِّهِم * * * وَإِنَّ الْغِنَى الْعَالِي عن الشَّيْءِ لا بِه

فصل

• الدرجة الثالثة من درجات الغنى بالربِّ **جَلَّ جَلَالُهُ**: الفوز بوجوده.

هذا الغنى أعلى درجات الغنى؛ لأنَّ الغنى الأوَّل والثاني كانا من آثار ذكر الله والتوجُّه، ففاض على القلب في صدق توجهه أنوار الصفات المقدَّسة، فاستغنى القلب بذلك، وحصل له أيضًا أنوار الشعور بكفالاته وكفايته لعبده، وحسن وكالته له، وقيوميته بتدبيره، وحسن تدبيره، فاستغنت النفس بذلك أيضًا.

وأما هذا الغنى الثالث الذي هو «الغنى بالحق» فهو من آثار وجود الحقيقة، وهو إنَّما يكون بعد ترقيه من آثار الصفات إلى آثار وجود الذات، وإنَّما يكون هذا الوجود بعد مكاشفة عين اليقين عندما يطلع فجر التوحيد، فهذا أوَّلُه. وكماله عند طلوع شمسهِ، فيقطع ضباب الوجود الفاني، وتشرق شمس الوجود الباقي، فيقطع لها كلَّ ضباب، وهذا عبارة عن نور يُقذف في القلب يُكشف له بذلك النور عن عظمة الذات، كما كُشف له بالنور الذي قبله عن عظمة الصفات.

فإذا كان أثر من آثار صفات الذات أو صفات الأفعال يُغني القلب والنفس، فما ظنُّك بما تُكاشف به الأرواح من أنوار قدس الذات المتَّصفة بالجلال والإكرام. فهذا غنى لا يناله الوصف، ولا يدخل تحت الشرح، فيستغني العبد الفقير بوجود سيِّده العزيز الرَّحيم.

فمن طلب الله بصدقٍ وجده، ومن وجده أغناه وجوده عن كلِّ شيءٍ.
فأصبح حُرًّا في غنى ومهابة ** على وجهه أنواره وضيؤه
وإن فاتته مولاه جلَّ جلاله ** تباعد ما يرجو، وطال عناؤه

ومن وصل إلى هذا الغنى قرَّت به كلُّ عين لأنَّه قد قرَّت عينه بالله والفوز بوجوده، ومن لم يصل إليه تقطعت نفسه على الدنيا حسرات. وقد قال ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ والدُّنْيَا أكبرَ همِّه جعلَ اللهُ فقره بينَ عينيه، وشَتَّتَ عليه شمله، ولم يأتِه من الدُّنْيَا إلا ما قُدِّرَ له. وَمَنْ أَصْبَحَ والآخرةُ أكبرَ همِّه جعلَ اللهُ غناه في قلبه، وجمَعَ عليه شمله، وأتته الدُّنْيَا وهي

رَاغِمَةً، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ خَيْرٍ إِلَيْهِ أَسْرَعَ»^(١).

فهذا هو الفقر الحقيقي والغنى الحقيقي، وإذا كان هذا غنى من كانت الآخرة أكبر همّه، فكيف من كان الله عَزَّوَجَلَّ أكبر همّه، فهذا من باب التنبيه والأولى.

فصل

فجملة نعت الفقير حقاً؛ أَنَّهُ المتخلي من الدنيا تظرفاً، والمتجاني عنها تعقفاً، لا يستغني بها تكثراً، ولا يستكثر منها تملُّكاً. وإن كان مالكا لها بهذا الشرط لم تضره، بل هو فقيرٌ غناه في فقره، وغنيٌّ فقره في غناه.

ومن نعته أَنَّهُ يعمل على موافقة الله في الصبر والرضى والتوكل والإنابة، فهو عاملٌ على مراد الله منه لا على موافقة هواه، وهو تحصيل مراده من الله. فالفقير خالص بكليته لله عَزَّوَجَلَّ، ليس لنفسه ولا لهواه في أحواله حظٌ ولا نصيب، فهو في وادٍ، والناس في وادٍ!

خاضع، متواضع، سليم القلب، سلس القياد للحق، سريع القلب إلى ذكر الله، بريء من الدعاوى لا يدعي بلسانه ولا بقلبه ولا بحاله. زاهدٌ في كل ما سوى الله، راغبٌ في كل ما يقرب إلى الله، قريبٌ من الناس، أبعد شيءٍ منهم، يأنس بما يستوحشون منه، ويستوحش ممّا يأنسونه، متفرد في طريق طلبه، لا تقيده الرسوم، ولا تملكه العوائد، ولا يفرح بموجود، ولا يأسف على مفقود.

من جالسه قرَّت عينه به، ومن رآه ذكَّرتُه رؤيته بالله. قد حملَ كله ومؤنته عن الناس، واحتمل أذاهم، وكفَّ أذاه عنهم. وبذلَ لهم نصيحته، وسبَّلَ لهم عِرضه ونفسه لا لمعاوضة ولا لذلة وعجز. لا يدخل فيما لا يعنيه، ولا يبخل بما لا ينقصه.

وصفه الصدق والعفة والإيثار والتواضع والحلم والوقار والاحتمال. لا يتوقع لما يبذله للناس منهم عوضاً، ولا مدحةً. لا يعاتب، ولا يخاصم، ولا يطالب، ولا

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٦٥)، وابن ماجه (٤١٠٥)، وأحمد في المسند (٥٠٥١/٥).

يرى له على أحد حقاً، ولا يرى له على أحد فضلاً.

مقبلاً على شأنه، مكرماً لإخوانه، بخيل بزمانه، حافظ للسانه، مسافراً في ليله ونهاره، ويقتضه ومنامه، لا يضع عصا السير عن عاتقه حتى يصل إلى مطلبه.

قد رُفِعَ له عِلْمُ الحبِّ، فشَمَّرَ إليه، وناداهُ داعي الاشتياق، فأقبل بكليته عليه. أجابَ منادي المحبة إذ دعاه: حيَّ على الفلاح، وواصل السُّرى في بيداءِ الطلب، فحمد عند الوصول مسراه، وإنَّما يحمد القوم السُّرى عند الصباح.

قاعدة شريفة عظيمة القدر :

حاجة العبد إليها أعظم من حاجته إلى الطعام والشراب والنفس، بل وإلى الروح التي بين جنبيه:

اعلم أن كلَّ حيٍّ سوى الله فهو فقيرٌ إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، والمنفعة للحي من جنس النعيم واللذة، والمضرة من جنس الألم والعذاب. فلا بُدَّ له من أمرين:

* أحدهما: هو المطلوب المقصود المحبوب الذي يتنفع ويلتذُّ به.

* والثاني: هو المعين الموصل المحصّل لذلك المقصود، والمانع لحصول المكروه، أو الدافع له بعد وقوعه.

فهاهنا أربعة أشياء:

- أمرٌ محبوب مطلوب الوجود.
- والثاني: أمرٌ مكروه مطلوب العدم.
- والثالث: الوسيلة إلى حصول المحبوب.
- والرابع: الوسيلة إلى دفع المكروه. فهذه الأمور الأربعة ضرورية للعبد، بل

ولكلّ حي سوى الله، لا يقوم صلاحه إلا بها.

إذا عرف هذا فالله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** هو المطلوب المعبود المحبوب وحده لا شريك له، وهو وحده المعين للعبد على حصول مطلوبه، فلا معبود سواه، ولا معين على المطلوب غيره؛ وما سواه هو المكروه المطلوب بُعْده، وهو المعين على دفعه. فهو سبحانه الجامع للأمر الأربعة دون ما سواه، وهذا معنى قول العبد: **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾** [الفاتحة: ٥]، فإن العبادة تتضمن المقصود المطلوب على أكمل الوجوه، والمستعان هو الذي يُستعان به على حصول المطلوب ودفع المكروه. فالأول من مقتضى ألوهيته، والثاني من مقتضى ربوبيته؛ لأن الإله هو الذي يُؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالاً وإكراماً، والرب هو الذي يُربُّ عبده فيعطيه خلقه، ثم يهديه إلى جميع أحواله ومصالحه التي بها كماله، ويهديه إلى اجتناب المفسد التي بها فسادُه وهلاكُه.

وفي القرآن سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين:

- أحدها: قوله: **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾** [الفاتحة: ٥].
- الثاني: قوله تعالى: **﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾** [هود: ٨٨].
- الثالث: قوله تعالى: **﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾** [هود: ١٢٣].
- الرابع: قوله تعالى: **﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾** [الممتحنة: ٤].
- الخامس: قوله تعالى: **﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾** [الفرقان: ٥٨].

- السادس: قوله: **﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾** [الرعد: ٣٠].
- السابع: قوله: **﴿وَاذْكُرْ أَمْرَ رَبِّكَ وَبَقِلْ إِلَيْهِ بُتَيْلًا ۖ رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾** [المزمل: ٨-٩].

ومما يقرّر هذا أن الله سبحانه خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ومحبته والإخلاص له. فبذكره تطمئن قلوبهم، وبرؤيته في الآخرة تقر عيونهم. ولا شيء يعطيهم في الآخرة أحب إليهم من النظر إليه، ولا شيء يعطيهم في الدنيا أحب إليهم من الإيمان به، ومحبتهم له، ومعرفتهم به.

وحاجتهم إليه في عبادتهم له وتألّهم له كحاجتهم إليه - بل أعظم - في خلقه لهم، وربوبيته لهم، ورزقه لهم. فإنّ ذلك هو الغاية المقصودة التي بها سعادتهم وفوزهم، وبها ولأجلها يصيرون عاملين متحرّكين، ولا صلاح لهم ولا فلاح ولا نعيم ولا لذّة ولا سرور بدون ذلك بحال. فمن أعرض عن ذكر ربّه فإنّ له معيشةً ضنكاً، ويحشره يوم القيامة أعمى. ولهذا لا يغفر الله لمن يشرك به شيئاً، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. ولهذا كانت «لا إله إلا الله» أفضل الحسنات، وكان توحيد الإلهية الذي كلمته «لا إله إلا الله» رأس الأمر.

فأمّا توحيد الربوبية الذي أقرّ به كلّ المخلوقات فلا يكفي وحده، وإن كان لا بُدّ منه، وهو حجة على من أنكر توحيد الألوهية، فحقّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحقّهم عليه إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وأن يكرمهم إذا قدموا عليه.

إذا عرّف هذا فاعلم أنّ حاجة العبد إلى أن يعبد الله وحده، ولا يشرك به شيئاً في محبته، ولا في خوفه، ولا في رجائه، ولا في التوكل عليه، ولا في العمل له، ولا في الحلف به، ولا في النذر له، ولا في الخضوع له، ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب أعظم من حاجة الجسد إلى روحه، والعين إلى نورها. بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به، فإنّ حقيقة العبد قلبه وروحه، ولا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إله إلا هو. فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كدحاً فملاقيته، ولا بدّ لها من لقائه؛ ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتها له، ورضاه وإكرامه لها.

والمقصود أنّ إله العبد الذي لا بُدّ له منه في كلّ حالة وكلّ دقيقة وكلّ طرفة عين

فهو الإله الحق الذي كلُّ ما سواه باطل، الذي أينما كان فهو معه. وضرورته إليه وحاجته إليه لا تشبهها ضرورة ولا حاجة، بل هي فوق كل ضرورة، وأعظم من كل حاجة، ولهذا قال إمام الحنفاء: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦].

فصل

وهذا مبني على أصليين:

* أحدهما: أن نفس الإيمان بالله، وعبادته، ومحبته، وإخلاص العمل له، وإفراده بالتوكل عليه هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه؛ كما عليه أهل الإيمان، وكما دلَّ عليه القرآن؛ لا كما يقوله من يقوله إنَّ عبادته تكليف ومشقة على خلاف مقصود القلب ولذته، بل لمجرد الامتحان والابتلاء، كما يقوله منكرو الحكمة والتعليل؛ أو لأجل التعويض بالأجر لما في إيصاله إليه بدون معاوضة منته تكدره، أو لأجل تهذيب النفس ورياضتها واستعدادها لقبول العقليات، كما يقوله من يتقرب إلى النبوات من الفلاسفة.

بل الأمر أعظم من ذلك كله وأجلُّ، بل أوامرُ المحبوب قرّة العيون، وسرورُ القلوب، ونعيمُ الأرواح، ولذاتُ النفوس، وبها كمالُ النعيم. فقرّة عين المحب في الصلاة والحج، وفرح قلبه وسروره ونعيمه في ذلك، وفي الصيام والذكر والتلاوة؛ وأمّا الصدقة فعجب من العجب.

وأما الجهاد، والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، والصبر على أعداء الله، فاللذة بذلك أمر آخر لا يناله الوصف، ولا يدركه من ليس له نصيب منه، وكلُّ من كان به أقوم كان نصيبه من الالتذاذ به أعظم.

* الأصل الثاني: أن كمال النعيم في الدار الآخرة أيضًا به تعالى: برؤيته، وسماع كلامه، وقربه، ورضوانه؛ لا كما يزعم من يزعم أنه لا لذة في الآخرة إلا بالمخلوق من المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح. بل اللذة والنعيم التام في حظهم من

الخالق تعالى أعظم مما يخطر بالبال أو يدور في الخيال.

وفي دعاء النبي ﷺ الذي رواه الإمام أحمد في مسنده، وابن حبان والحاكم في صحيحهما: «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ»^(١).

ولهذا قال تعالى في حق الكفار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾^(١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿المطففين: ١٥-١٦﴾.

فعذاب الحجاب من أعظم أنواع العذاب الذي يعذب به أعداؤه، ولذّة النظر إلى وجهه الكريم أعظم أنواع اللذات التي ينعم بها أولياؤه، ولا تقوم حظوظهم من سائر المخلوقات مقام حظهم من رؤيته، وسماع كلامه، والدنو منه وقربه.

فصل

إذا تبين هذا ظهر أن أحدا من المخلوقين لا يقصد منفعتك بالقصد الأول، بل إنما يقصد منفعته بك، وقد يكون عليك في ذلك ضرر إذا لم يراع المحب العدل، فإذا دعوته فقد دعوت من ضره أقرب من نفعه. وأما الربُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فهو يريدك لك ولمنفعتك لا ليتنفع بك، وذلك منفعة لك محضة لا ضرر فيها.

فتدبر هذا حق التدبر وراعه حق المراعاة، فملاحظته تمنعك أن ترجو المخلوق أو تطلب منه منفعته لك، فإنه لا يريد ذلك ألبتة بالقصد الأول، بل إنما يريد انتفاعه بك عاجلاً أو آجلاً، فهو يريد نفسه لا يريدك، ويريد نفع نفسه بك لا نفعك بنفسه. فتأمل ذلك، فإن فيه منفعة عظيمة، وراحة، ويأساً من المخلوقين، وسداً لباب عبوديتهم، وفتحاً لباب عبودية الله وحده. فما أعظم حظاً من عرف هذه المسألة ورعاها حق رعايتها!

(١) أخرجه النسائي (١٣٠٦)، وأحمد في المسند (٥٠٦٨/٩).

ولا يحملنك هذا على جفوة الناس، وترك الإحسان إليهم واحتمال أذاهم، بل أحسن إليهم لله لا لرجائهم، فكما لا تخفهم فلا ترجهم.

فالسعيد الرابع من عامل الله فيهم، ولم يعاملهم في الله. وخاف الله فيهم، ولم يخفهم في الله؛ وأرضى الله بسخطهم، ولم يرضهم بسخط الله. وراقب الله فيهم، ولم يراقبهم في الله؛ وآثر الله عليهم، ولم يؤثرهم على الله. وأمات خوفهم ورجاءهم وحبهم من قلبه، وأحيا حب الله وخوفه ورجاءه فيه. فهذا هو الذي يكتب عليهم، وتكون معاملته لهم كلها ربحاً، بشرط أن يصبر على أذاهم، ويتخذ مغنماً لا مغرمًا، وربحاً لا خسراناً.

ومما يوضح الأمر أن الخلق لا يقدر أحد منهم أن يدفع عنك مضرة ألبته، إلا بإذن الله ومشيئته وقضائه وقدره. فهو في الحقيقة الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو: ﴿وإن يمسسك الله بضرٍ فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧].

قال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس: «واعلم أن الخليفة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك»^(١).

وإذا كانت هذه حال الخليفة، فتعليق الخوف والرجاء بهم ضار غير نافع. وإذا علم العبد حقيقة الأمر، وعرف من أين أتى، ومن أي الطريق أغير على سرحه، ومن أي ثغرة سرق متاعه وسلب استحياء نفسه - إن لم يستحي من الله - أن يشكو أحداً من خلقه، أو يتظلمهم، أو يرى مصيبته وآفته من غيره.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد في المسند (٦٤٨/٢).

وقال: ﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

هذا، ومن المخاطب بهذا الخطاب؟ وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

[الاحتجاج بالقدر، والنصوص الواردة في إثباته:]

فإن أصررت على اتهام القدر، وقلت: فالسبب الذي أُصِبتُ به، وأُتيتُ منه، ودُهِيتُ منه، قد سبق به القدر والحكم، وكان في الكتاب مسطوراً، فلا بُدَّ منه على الرغم مني. وكيف لي أن أنفك منه، وقد أودع الكتاب الأول قبل بدء الخليقة، والكتاب الثاني قبل خروجي إلى هذا العالم، وأنا في ظلمات الأحشاء، حين أمر الملكُ بكتب الرزق والأجل والسعادة والشقاوة؛ فلو جريتُ إلى سعادتي ما جريتُ حتى بقي بيني وبينها شبرٌ لغلب عليَّ الكتابُ، فأدركتني الشقاوة. فما حيلةٌ من قلبه بيد غيره، يقلِّبه كيف يشاء، ويصرِّفه كيف أراد؛ إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يُزيغه أزاعه. فهو الذي يحول بين المرء وقلبه، وهو الذي يثبت قلب العبد إذا شاء، ويُزلزله إذا شاء، فالقلب مربوب مقهور تحت سلطانه لا يتحرك إلا بإذنه ومشيتته.

* قال أعلمُ الخلق برَّبِّه صلوات الله وسلامه عليه: «ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاعه»، ثم قال: «اللَّهُمَّ مقلِّبَ القلوب ثبَّتْ قلوبنا على دينك»^(١)، وكانت أكثرَ يمينه: «لا، ومقلِّبِ القلوب»^(٢).

* وقال بعض السلف: «مثل القلب مثل ريشة في أرض فلاة تقلِّبها الرياحُ ظهرًا لبطن».

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٩٤٨/٧)، والآجري في الشريعة (٧٣٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦١٧، ٧٣٩١).

فما حيلة قلبٍ هو بيد مقلبه ومصرّفه، وهل له مشيئة بدون مشيئته؟ كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

* وقال طاووس: «أدركتُ ثلاثمائة من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر».

* وفي صحيح مسلم عن أبي الأسود الدّيلي قال: قال لي عمران بن حصين: رأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون، أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدرٍ قد سبق، أو فيما يستقبلون ممّا أتاهم به نبيهم وثبت به الحجة؟ قال: قلت: لا، بل فيما قضي عليهم ومضى. قال: أفيكون ذلك ظلماً؟ قال: ففزعْتُ فزعاً شديداً وقلت: إنّه ليس شيء إلا خلقه وملكه، ولا يُسأل عمّا يفعل، وهم يُسألون. فقال: سدّدك الله، إنّما سألتك لأحرز^(١) عقلك. إنّ رجلاً من مُزينة -أو جهينة- أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، رأيت ما يعمل النَّاس ويتكادحون^(٢) فيه، شيءٌ قضي عليهم ومضى، أو فيما يستقبلون ممّا أتاهم به نبيهم؟ قال: «فيما قضي عليهم ومضى». فقال الرجل: ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: «من كان خلقه الله لإحدى المنزلتين فسيستعمله لها». وتصدّق ذلك في كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾^(٣) [الشمس: ٧-٨].

* وقال زيد بن أسلم: «والله ما قالت القدرية كما قال الله عزّ وجلّ، ولا كما قال رسوله ﷺ، ولا كما قال أهل الجنة، ولا كما قال أهل النار، ولا كما قال أخوهم إبليس. قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠، التكوير: ٢٩]، وقالت الملائكة: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢]، وقال شعيب: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وقال أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ

(١) لأحرز عقلك: أي لأقدّر مدى عقلك وفهمك.

(٢) يتكادحون: الكدح: هو السعي في العمل.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٥٠).

لَوْلَا أَن هَدَانَا اللَّهُ ﴿[الأعراف: ٤٣]، وقال أهل النار: ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، وقال أخوهم إبليس: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩].

* وفي صحيح مسلم عن طاوس: أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كلُّ شيءٍ بقدر. وسمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «كل شيءٍ بقدر، حتَّى العَجْزُ والكَيْسُ»^(١).

* وفي صحيح مسلم أيضاً عن عبد الله بن عمرو قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء»^(٢).

* وفي صحيحه أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلِّ خير، فاحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيءٌ فلا تقل: لو أني فعلتُ كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل، فإنَّ «لو» تفتح عمل الشيطان»^(٣).

* وفي صحيحه أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ النَّذْرَ لَا يُقَدَّرُ لابن آدمَ شيئاً لم يكن الله قدَّره، ولكنَّ النَّذْرَ يُؤَافِقُ الْقَدْرَ فَيُخْرِجُ ذَلِكَ مِنَ الْبَخِيلِ مَا لَمْ يَكُنْ يَرِيدُ أَنْ يُخْرِجَهُ»^(٤).

* وفي حديث جبريل وسؤاله للنبي ﷺ عن الإيمان قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»^(٥).

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

(٤) أخرجه مسلم (١٦٤٠).

(٥) أخرجه مسلم (٨).

* وفي الصحيحين حديث ابن مسعود في التخليق، وفيه: «فوالذي لا إله غيره إنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتابُ، فيعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ فيسبق عليه الكتابُ، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها»^(١).

* وفي الصحيحين حديث علي عن النبي ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلا كُتِبَ مقعده من النار ومقعده من الجنة»، فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا، وندعُ العمل؟ فقال: «اعملوا فكلٌ ميسرٌ لما خُلِقَ له: أمّا من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأمّا من كان من أهل الشقاوة فييسر لعمل أهل الشقاوة» ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۖ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۖ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۖ﴾^(٢) [الليل: ٥-١٠].

* وفي الصحيحين عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ سُئِلَ: أَعْلِمَ أَهْلَ الْجَنَّةِ مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟ قال: «نعم»، قيل له: فقيم يعمل العاملون؟ قال: «نعم، كلٌ ميسرٌ لما خُلِقَ له»^(٣).

* وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: دُعِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى جَنَازَةِ غَلامٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، طُوبَى لِهَذَا، عَصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الْجَنَّةِ، لَمْ يَدْرِكِ السُّوءَ وَلَمْ يَعْمَلْهُ. قال: «أَوْغَيْرَ ذَلِكَ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ. وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ»^(٤).

* وفي الصحيحين عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «الغلام

(١) أخرجه البخاري (٦٥٩٤، ٧٤٥٤)، ومسلم (٢٦٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٤٨، ٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٩٦)، ومسلم (٢٦٤٩).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٦٢).

الذي قتله الخضر طُبع يوم طُبع كافرًا، ولو عاش لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا»^(١).

* وفي صحيح مسلم: عن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبي ﷺ قال: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة فيقول: يا رب، أشقي أم سعيد؟ فيكتبان، فيقول: يا رب أذكر أم أنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله وأثره ورزقه، ثم تطوى الصحف، فلا يزاد فيها ولا ينقص»^(٢).

* وفي الصحيحين عن أنس بن مالك -ورفع الحديث- قال: «إن الله وُكِّل بالرحم ملكًا فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة. فإذا أراد الله أن يقضي خلقًا قال الملك: أي رب، ذكر أو أنثى، شقي أو سعيد، فما الرزق، فما الأجل؟ فيكتب ذلك في بطن أمه»^(٣).

* وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ: «إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم ينفخ فيه الروح، ويبحث إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد»^(٤).

والمقصود: أن تقدير الشقاوة والسعادة والخلق والرزق سبق خروج العبد إلى دار الدنيا، فأسكنه الجنة والنار وهو في بطن أمه.

* وفي صحيح مسلم من حديث ابن عباس في خطبة النبي ﷺ: «الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هاديَّ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله ﷺ»^(٥).

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٤٤).

(٣) أخرجه البخاري (٣١٨، ٦٥٩٥)، ومسلم (٢٦٤٦).

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٠٨، ٣٣٣٢، ٧٤٥٤)، ومسلم (٢٦٤٣).

(٥) أخرجه مسلم (٨٦٨).

* وفي صحيحه أيضًا عن زيد بن أرقم: كان النبي ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكَّهَا أَنْتَ خَيْرٌ مِنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا»^(١).

* وفي صحيحه أيضًا عن علي عن النبي ﷺ في دعاء الاستفتاح: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي لأَحْسَنَ الْأَخْلَاقِ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَ الْأَخْلَاقِ، لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ»^(٢).

* وذكر البخاري عن ابن مسعود أنه قال في خطبته: «الشقي من شَقِيَ في بطن أمه، والسعيد من وُعِظَ بغيره»^(٣).

* وقال ابن مسعود: «لَأَنْ أَعْصِيَ عَلَى جَمْرٍ أَوْ أَقْبِضَ عَلَيْهَا حَتَّى تَبْرُدَ فِي يَدِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقُولَ لشيءٍ قِضَاهُ اللَّهُ: لَيْتَهُ لَمْ يَكُنْ».

وقال: «لَا يَطْعَمُ رَجُلٌ طَعَمَ الْإِيمَانَ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ وَيَعْلَمَ أَنَّه مَيِّتٌ، وَأَنَّهُ مَبْعُوثٌ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ».

* وقال ابن عباس أيضًا: «الْقَدَرُ نِظَامُ التَّوْحِيدِ، فَمَنْ وَحَّدَ اللَّهَ وَلَمْ يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كَانَ كُفْرُهُ بِالْقَضَاءِ نَقْضًا لِلتَّوْحِيدِ، وَمَنْ وَحَّدَ اللَّهَ وَآمَنَ بِالْقَدَرِ كَانَتْ الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا».

* وَصَحَّ عَنْ ابْنِ عَمْرِو بْنِ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ قَالَ لَهُ: إِنَّ نَاسًا يَقُولُونَ: لَا قَدَرَ، وَإِنَّ الْأَمْرَ أُنْفٌ. فَقَالَ: «إِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ ابْنَ عَمَرَ مِنْهُمْ بَرِيءٌ، وَأَنَّهُمْ بُرَاءٌ مِنْهُ».

* وقال أبو الدرداء: «ذُرْوَةُ الْإِيمَانِ أَرْبَعُ: الصَّبْرُ لِلْحَكْمِ، وَالرِّضَا بِالْقَدَرِ، وَالْإِخْلَاصُ لِلتَّوَكُّلِ، وَالِاسْتِسْلَامُ لِلرَّبِّ».

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢).

(٢) أخرجه مسلم (٧٧١).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٤٥).

✽ وقال جابر بن عبد الله: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر كله خيره وشره، ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه».

فصل

فالجواب أن ههنا مقامين:

• مقام إيمان وهدى ونجاة.

• ومقام ضلال وردى وهلاك، زلت فيه أقدام، فهوت بأصحابها إلى دار الشقاء.

■ فأما مقام الإيمان والهدى والنجاة فمقام إثبات القدر والإيمان به، وإسناد جميع الكائنات إلى مشيئة ربه وبارئها وفاطرها، وأنه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الناس. وهذه الآثار التي ذكرت كلها تحقق هذا المقام، وتبين أن من لم يؤمن بالقدر فقد انسلخ من التوحيد، ولبس جلباب الشرك، بل لم يؤمن بالله ولم يعرفه، وهذا في كل كتاب أنزله الله على كل رسول أرسله.

■ وأما المقام الثاني - وهو مقام الضلال والردى والهلاك - فهو الاحتجاج به على الله، وحمل العبد ذنبه على ربه، وتنزيه نفسه الجاهلة الظالمة الأمارة بالسوء، وجعل أرحم الراحمين وأعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأغنى الأغنياء أضّر على العباد من إبليس؛ كما صرح به بعضهم، واحتج عليه بما خصمه فيه من لا تدحض حجته ولا تطاق مغالبتها، حتى يقول قائل هؤلاء:

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له ✽✽ إياك إياك أن تبطل بالماء

ويقول قائلهم:

دعاني وسد الباب دوني فهل إلى ✽✽ دخولي سبيل؟ بينوا لي قصتي

وقيل لبعض هؤلاء: أليس الله عز وجل يقول: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]

فقال: دعنا من هذا، رضي وأحبه وأراد، وما أفسدنا غيره!

ولقد بالغ بعضهم في ذلك حتى قال: القدرُ عذر لجميع العصاة، وإنَّما مثلنا في ذلك كما قيل:

إذا مرضنا أتيناكم نعوذُكم * * * وتُذنبون فنأتىكم فنعتذرُ

وقال بعض هؤلاء -وقد عوتب على ارتكابه معاصي الله فقال-: إن كنت عاصياً لأمره فأنا مطيع لإرادته.

وجرى عند بعض هؤلاء ذكر إبليس وإبائه وامتناعه من السجود لآدم، فأخذ الجماعة يلعنونه ويذمونه، فقال: إلى متى هذا اللوم؟ ولو خُلِّي لسجد، ولكن مُنِع. وأخذ يقيم عذره، فقال له بعض الحاضرين: تباً لك سائر اليوم، أتدبُّ عن الشيطان، وتلوم الرحمن؟.

ومرَّ بلصّ مقطوع اليد على بعض هؤلاء فقال: مسكين، مظلوم، أجبره على السرقة، ثم قطع يده عليها!

وسمع بعض هؤلاء قارئاً يقرأ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧] فقال: ليس من هذا شيء، بل أضلَّهم وأعماهم. قالوا: فما معنى الآية؟ قال: مَخْرَقَةٌ يَمَخِّرُ بها.

فيقال: الله أكبر على هؤلاء الملاحدة أعداء الله حقاً الذين ما قدروا الله حقَّ قدره، ولا عرفوه حقَّ معرفته، ولا عظَّموه حقَّ تعظيمه، ولا نزَّهوه عمَّا يليق به، وبغَّضوه إلى عباده وبغَّضوهم إليه سبحانه، وأسأؤوا الشاءَ عليه جهدهم وطاقتهم. وهؤلاء خصماء الله حقاً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في تائيته:

وَيُدْعَى خُصُومُ اللَّهِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ * * * إِلَى النَّارِ طَرًّا فِرْقَةً الْقَدْرِيةِ

سِوَاءَ نَفْسِهِ أَوْ سَعَا إِلَى خَاصِمُوهُ * * * بِهِ اللَّهُ أَوْ مَارَوْا بِهِ لِلشَّرِيعَةِ

وسمعتة يقول: القدرية المذمومون في السنة، وعلى لسان السلف هم هؤلاء الفرق الثلاثة: نفاته، وهم القدرية المجوسية. والمعارضون به للشريعة الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] وهم القدرية المشركية. والمخاصمون به للرب، وهم أعداء الله وخصومه، وهم القدرية الإبليسية، وشيخهم إبليس، وهو أول من احتجَّ على الله بالقدر فقال: ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: ١٦] ولم يعترف بالذنب ويؤوبه، كما اعترف به آدم. فمن أقرَّ بالذنب، وباء به، ونزَّه ربه، فقد أشبهه أباه آدم، ومن أشبهه أباه فما ظلم. ومن برأ نفسه واحتجَّ على ربه بالقدر فقد أشبهه إبليس.

ولا ريب أن هؤلاء القدرية الإبليسية والمشركية شرٌّ من القدرية النفاء، لأنَّ النفاء إنَّما نفوه تنزيهاً للرب تعالى وتعظيماً له أن يقدر الذنب ثمَّ يلوم عليه ويعاقب، ونزوهه أن يعاقب العبد على ما لا صنع للعبد فيه ألبتة، بل هو بمنزلة طوله وقصره وسواده وبياضه وحوله ونحو ذلك. كما يحكى عن بعض الجبرية أنَّه حضر مجلس بعض الولاة فأتي بطَّار^(١) أحول، فقال له الوالي: ما ترى فيه؟ فقال: اضربه خمسة عشر سوطاً. فقال له بعض الحاضرين ممن ينفي الجبر: بل ينبغي أن يضرب ثلاثين سوطاً: خمسة عشر لطره، ومثلها لحوله. فقال الجبري: كيف يضرب على الحول، ولا صنع له فيه؟ فقال: كما يضرب على الطر، ولا صنع له فيه عندك، فبهت الجبري. وأمَّا القدرية الإبليسية والمشركية فكثيرٌ منهم منسلخ من الشرع، عدوُّ الله ورسله، لا يُقرُّ بأمرٍ ولا نهي. وتلك وراثته عن شيوخه الذين قال الله فيهم:

* ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَاسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

(١) الطَّار: النَّشَال.

* وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

* وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠].

* وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ٤٧].

فهذه أربعة مواضع في القرآن بين سبحانه فيها أن الاحتجاج بالقدر من فعل المشركين المكذبين للرسول.

وهدى الله بفضلله ورثة أنبيائه ورسله لميراث نبيهم ﷺ وأصحابه، فلم يؤمنوا ببعض الكتاب ويكفروا ببعض، بل آمنوا بقضاء الله وقدره ومشيئته العامة النافذة، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه مقلب القلوب ومصرّفها كيف أراد. وأنه هو الذي جعل المؤمن مؤمناً، والمصلي مصلياً، والمتقي متقياً. وجعل أئمة الهدى يهدون بأمره، وأئمة الضلالة يدعون إلى النار. وأنه ألهم كل نفس فجورها وتقواها، وأنه يهدي من يشاء بفضلله ورحمته، ويضل من يشاء بعدله وحكمته. وأنه هو الذي وفق أهل الطاعة لطاعته فأطاعوه، ولو شاء لخذلهم فعصوه؛ وأنه حال بين الكفار وقلوبهم، فإنه يحول بين المرء وقلبه، فكفروا به، ولو شاء لوفّقهم فآمنوا به وأطاعوه، وأنه من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلّل فلا هادي له، وأنه لو شاء لآمن من في الأرض كلهم جميعاً إيماناً يثابون عليه، ويقبل منهم، ويرضى به عنهم. وأنه لو شاء ما اقتتلوا، ولكن الله يفعل ما يريد: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْقَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

والقضاء والقدر عندهم أربع مراتب جاء بها نبيهم ﷺ، وأخبر بها عن ربه:

- الأولي: علمه السابق بما هم عاملوه قبل إيجادهم.
 - الثانية: كتابة ذلك في الذكر عنده قبل خلق السماوات والأرض.
 - الثالثة: مشيئته المتناولة لكل موجود، فلا خروج لكائن عن مشيئته، كما لا خروج له عن علمه.
 - الرابعة: خلقه له وإيجاده وتكوينه، فإنه لا خالق إلا الله، والله خالق كل شيء، فالخالق عندهم واحد، وما سواه فمخلوق، ولا واسطة عندهم بين الخالق والمخلوق.
- ويؤمنون مع ذلك بحكمته، وأنه حكيم في كل ما فعله وخلق، وأن مصدر ذلك جميعه عن حكمة تامة هي التي اقتضت صدور ذلك وخلق، وأن حكمته حكمة حق عائدة إليه قائمة به كسائر صفاته، وليست عبارة عن مطابقة علمه لمعلومه وقدرته لمقدوره، كما يقوله نفاة الحكمة الذين يقرّون بلفظها دون حقيقتها، بل هي أمر وراء ذلك. وهي الغاية المحبوبة له المطلوبة التي هي متعلّق محبته وحمده، ولأجلها خلق فسوّى، وقدر فهدى، وأما فأحيا، وأسعد وأشقى، وأصلّ وهدى، ومنع وأعطى.
- وهذه الحكمة هي الغاية، والفعل وسيلة إليها، فإثبات الفعل مع نفيها إثبات للوسائل ونفي للغايات وهو محال، إذ نفي الغاية مستلزم لنفي الوسيلة، فنفي الوسيلة -وهي الفعل- لازم لنفي الغاية وهي الحكمة. ونفي قيام الفعل والحكمة به نفي لهما في الحقيقة، إذ فعل لا يقوم بفاعله وحكمة لا تقوم بالحكيم شيء لا يعقل. وذلك يستلزم إنكار ربوبيته وإلهيته. وهذا لازم لمن نفي ذلك، لا محيد له عنه وإن أبى التزامه.
- وأما من أثبت حكمته وأفعاله على الوجه المطابق للعقل والفطرة وما جاءت به الرسل لم يلزم من قوله محذور ألبته، بل قوله حق، ولازم الحق حق كائناً ما كان.
- والمقصود: أن ورثة الرسل وخلفاءهم -لكمال ميراثهم لنبیهم- آمنوا بالقضاء

والقدر والحكم والغايات المحمودة في أفعال الرب وأوامره، وقاموا مع ذلك بالأمر والنهي، وصدقوا بالوعد والوعيد. فآمنوا بالخلق الذي من تمام الإيمان به إثباتُ القدر والحكمة، وبالأمر الذي من تمام الإيمان به الإيمانُ بالوعد والوعيد وحشر الأجساد والثواب والعقاب. فصدقوا بالخلق والأمر، ولم ينفوهما بنفي لوازمهما - كما فعلت القدرية المجوسية والقدرية المعارضة للأمر بالقدر - فكانوا أسعد الناس بالحق وأقربهم عَصَبَةً في هذا الميراث النبوي. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

والقضاء والقدر منشؤه عن علم الرب وقدرته، ولهذا قال الإمام أحمد: «القدر قدرة الله». واستحسن ابن عقيل هذا الكلام من أحمد غاية الاستحسان، وقال: إنه شفى بهذه الكلمة وأفصح بها عن حقيقة القدر.

ولهذا كان المنكرون للقدر فرقتين: فرقة كذبت بالعلم السابق ونفتته، وهم غلاتهم الذين كفرهم السلف والأئمة وتبرأ منهم الصحابة. وفرقة جحدت كمال القدرة، وأنكرت أن تكون أفعال العباد مقدورةً لله تعالى، وصرحت بأن الله لا يقدر عليها. فأنكر هؤلاء كمال قدرة الرب تعالى، وأنكرت الأخرى كمال علمه. وقابلتهم الجبرية، فحافظت على إثبات القدرة والعلم، وأنكرت الحكمة والرحمة.

ولهذا كان مصدر الخلق والأمر والقضاء والشرع عن علم الرب وعزته وحكمته، ولهذا يقرن تعالى بين الاسمين والصفتين من هذه الثلاث كثيراً كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَىٰ الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]، وقال: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]. وقال: ﴿حَمَّ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [غافر: ١-٢].

وقال في حم فصلت بعد ذكر تخليق العالم: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢]. وذكر نظير هذا في الأنعام، فقال: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

فارتباط الخلق بقدرته التامة يقتضي أن لا يخرج موجودٌ عن قدرته، وارتباطه بعلمه التام يقتضي إحاطته به وتقديمه عليه، وارتباطه بحكمته يقتضي وقوعه على أكمل الوجوه وأحسنها، واشتماله على الغاية المحمودة المطلوبة للرب تعالى. وكذلك ارتباط أمره بعلمه وحكمته وعزّته، فهو عليمٌ بخلقه وأمره، حكيمٌ في خلقه وأمره، عزيزٌ في خلقه وأمره.

ولهذا كان الحكيم من أسمائه الحسنی، والحكمة من صفاته العلی. والشریعة الصادرة عن أمره مبناه على الحكمة، والرسول المبعوث بها مبعوث بالكتاب والحكمة. والحكمة هي سنة الرسول ﷺ، وهي تتضمن العلم بالحق، والعمل به، والخبر عنه، والأمر به؛ فكل هذا يسمّى (حكمة). وفي الأثر: «الحكمة ضالة المؤمن»^(١). وفي الحديث: «إنّ من الشعر حكمة»^(٢).

فكما لا يخرج مقدور عن علمه وقدرته ومشيتته، فهكذا لا يخرج عن حكمته وحمده. وهو محمود على جميع ما في الكون من خيرٍ وشرٍ حمداً استحقه لذاته، وصدر عنه خلقه وأمره. فمصدر ذلك كله عن الحكمة، فإنكار الحكمة إنكارٌ لحمده في الحقيقة.

فصل

وإنما يتبين هذا بيان وجود الحكمة في كلّ ما خلقه الله وأمر به، وبيان أنّه كلّ خير من جهة إضافته إليه سبحانه، وأنّه من تلك الإضافة خير وحكمة، وأنّ جهة الشر منه من جهة إضافته إلى العبد، كما قال النبي ﷺ في دعاء الاستفتاح: «لبيك وسعديك، الخير في يديك، والشرُّ ليس إليك»^(٣).

فهذا النفي يقتضي امتناع إضافة الشر إليه تعالى بوجه، فلا يضاف إلى ذاته ولا

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨٧)، وابن ماجه (٤١٦٩)، وضعفه الترمذي.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٤٥).

(٣) أخرجه مسلم (٧٧١).

صفاته ولا أسمائه ولا أفعاله. فإنَّ ذاته تعالى منزَّهة عن كلِّ شرٍّ، وصفاته كذلك، إذ كلّها صفات كمال ونعوتٌ جلال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، وأسماءه كلها حسنى ليس فيها اسم ذم ولا عيب، وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وإحسان وعدل لا تخرج عن ذلك ألَبَتَه؛ وهو المحمود على ذلك كله، فيستحيل إضافة الشر إليه.

وتحقيق ذلك أنَّ الشرَّ ليس هو إلا الذنوب وعقوبتها، كما في خطبته صلى الله عليه وسلم: «الحمدُ لله، نستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا»^(١). فتضمَّن ذلك الاستعاذة من شرور النفوس، ومن سيئات الأعمال وهي عقوباتها.

فذاثُ الرب تعالى مستلزِمَةٌ للحكمة والخير والجود، وذاثُ العبد مستلزِمَةٌ للجهل والظلم، وما فيه من العلم والعدل فإنَّما حصل له بفضل الله عليه، وهو أمرٌ خارجٌ عن نفسه. فمن أراد الله به خيرًا أعطاه هذا الفضل، فصدرَ منه موجبُه من الإحسان والبر والطاعة. ومن أراد به شرًّا أمسكه عنه، وخَلَّاه ودواعي نفسه وطبعه وموجبها، فصدرَ منه موجبُ الجهل والظلم من كلِّ شرٍّ وقبيح. وليس منعه لذلك ظلمًا منه تعالى، فإنَّه فضله، وليس من منع فضله ظلمًا، لا سيما إذا منعه عن محل لا يستحقه ولا يليق به.

وأيضًا فإنَّ هذا الفضل هو توفيقه وإرادته من نفسه أن يلطف بعبد، ويوفقه، ويعينه، ولا يخلي بينه وبين نفسه؛ وهذا محض فعله وفضله، وهو سبحانه أعلمُ بالمحلِّ الذي يصلح لهذا الفضل، ويليق به، ويثمر فيه، ويزكو به.

قال عبد الله بن مسعود: «إنَّ الله تعالى نظر في قلوب العباد، فرأى قلب محمد صلى الله عليه وسلم خيرَ قلوب أهل الأرض، فاختره برسالته. ثمَّ نظر في قلوب العباد، فرأى قلوبَ أصحابه خيرَ قلوب العباد، فاخترهم لصحبته».

(١) أخرجه أبو داود (١٠٩٧)، والترمذي (١١٠٥)، والنسائي (١٤٠٤)، وابن ماجه (١٨٩٢)، وأحمد في المسند (٨٦٧/٢).

فالربُّ سبحانه إذا علمَ من المحلِّ أهليَّةً لفضله ومحبته ومعرفته وتوحيده حبَّبَ إليه ذلك، ووضعهُ فيه، وكتبه في قلبه، ووفَّقهُ له، وأعانهُ عليه، ويسَّرَ له طرقَه، وأغلقَ دونه الأبوابَ التي تحولُ بينه وبين ذلك. ثمَّ تولاه بلطفه وتدييره وتيسيره وترتيبه أعظمَ من تربية الوالد الشفيق الرحيم المحسن لولده الذي هو أحب شيء إليه. فلا يزال يعامله بلطفه، ويختصه بفضله، ويؤثره برحمته، ويمدّه بمعونته، ويؤيده بتوقيفه، ويُرِيه مواقع إحسانه إليه وبرِّه به؛ فيزداد العبدُ به معرفةً، وله محبةً، وإليه إنابةً، وعليه توكلاً؛ ولا يتولّى معه غيره، ولا يعبد سواه. وهذا هو الذي عرفَ قدرَ النعمة، وعرفَ المنعم، وأقرَّ بنعمته، وصرفها في مرضاته؛ فاقتضت حكمة الربِّ تعالى وجوده وكرمه وإحسانه أن يذر في هذا القلبِ بذر الإيمان والمعرفة، وسقاه ماء العلم النافع والعمل الصالح، وأطلع عليه من نوره شمس الهداية، وصرف عنه الآفات المانعة من حصول الثمرة، فأنبَت أرضه الزاكية من كل زوج كريم، كما في الصحيح من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «مثلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيثٍ أصابَ أرضاً، فكان منها طائفة طيبةٌ قبلت الماء، فأنبَت الكلاً والعشب الكثير. وكان منها طائفة أجادِبُ أمسكت الماء، فسقى الناس وزرعوا. وأصاب منها طائفةٌ أخرى إنما هي قيعانٌ لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً. فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه بما بعثني الله به، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلتُ به»^(١).

فمثل القلوب بالأرض التي هي محل النبات والثمار، ومثل الوحي الذي وصل إليها من بارئها وفاطرها بالماء الذي ينزله على الأرض. فمن الأرض أرض طيبة قابلة للماء والنبات، فلما أصابها الماء أنبت ما انتفع به آدميون والبهائم: أقوات المكلفين وغيرهم. وهذه بمنزلة القلب القابل لهدى الله ووحيه، المستعد لزكائه^(٢) وثمرته ونمائه، وهذا خير قلوب العالمين.

(١) أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

(٢) لزكائه: لصلاحه.

ومن الأرضِ أرضٌ صلبةٌ منخفضةٌ غيرُ مرتفعةٍ ولا رابيةٍ، قابلةٌ لحفظ الماءِ واستقراره فيها، ففيها قوَّةُ الحفظِ وليس فيها قوَّةُ النباتِ؛ فلمَّا حصلَ فيها الماءُ أمسكته وحفظته، فورده الناسُ لشربهم وشرب مواشيهم، وسقوا منه زروعهم. وهذا بمنزلة القلب الذي حفظ الوحي، وضبطه، وأدَّاه إلى من هو أفهمُّ له منه، وأفقه منه فيه، وأعرفُ بمراحده؛ وهذا في الدرجة الثانية.

ومن الأرضِ أرضٌ قيعانٌ -وهي المستوية التي لا تنبت إمَّا لكونها سَبَخَةً أو رمالاً، ولا يستقر فيها الماء- فإذا وقع عليها الماءُ ذهبَ ضائعاً لم تمسكه لشرب الناس، ولم تُنبت به كلاً، لأنَّها غير قابلة لحفظ الماءِ ولا لنبات الكلاء والعشب. وهذا حال أكثر الخلق، وهم الأشقياء الذين لم يقبلوا هدى الله ولم يرفعوا به رأساً، ومن كان بهذه المثابة فليس من المسلمين. بل لا بد لكلِّ مسلم أن يزكو الوحي في قلبه، فينبت من العمل الصالح، والكلم الطيب، ونفع نفسه وغيره بحسب قدرته. فمن لم ينبت قلبه شيئاً من الخير ألبته، فهذا من أشقى الأشقياء. فصلوات الله وسلامه على من الهدى والبيان والشفاء والعصمة في كلامه وفي أمثاله.

والمقصود: أن الله سبحانه أعلم بمواقع فضله ورحمته وتوفيقه، ومن يصلح لها ممن لا يصلح، وأن حكمته تأبى أن تضع ذلك عند غير أهله، كما تأبى أن تمنعه من يصلح له. وهو سبحانه الذي جعل المحلَّ صالحاً وجعله أهلاً وقابلاً، فمنه الإعداد والإمداد، ومنه السبب والمسبب.

وهو سبحانه سبقت رحمته غضبه، وكتب على نفسه الرحمة، وأحسن كل شيء خلقه، وأتقن كلَّ ما صنع، وما يحصل للنفوس البشرية من الضرر والأذى فله سبحانه في ذلك أعظم حكمة مطلوبة، وتلك الحكمة إنَّما تحصل على الوجه الواقع المقدر بما خلق لها من الأسباب التي لا تُنال غاياتها إلا بها، فوجود هذه الأسباب بالنسبة إلى الخالق الحكيم سبحانه هو من الحكمة.

ولهذا يقرن سبحانه في كتابه بين اسمه «الحكيم» واسمه «العليم» تارةً، وبينه وبين اسمه «العزیز» تارةً، كقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦، الأنفال: ٧١]، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٠، المائدة: ٣٨]، وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨، الفتح: ١٦٥، الفتح: ١٩]، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤]، ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]، فإن العزة تتضمن القوة، والله القوة جميعاً.

والعز ضد الذل، والذل أصله الضعف والعجز، فالعز يقتضي كمال القدرة والعزة، ولهذا يوصف به المؤمن، ولا يكون ذمّاً له، بخلاف الكبر. قال رجلٌ للحسن البصري: إِنَّكَ متكبر. فقال: «لستُ بمتكبر، ولكنني عزيز».

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْعِزَّةُ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وقال ابن مسعود: «ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر». وقال النبي ﷺ: «اللهم أعزّ الإسلام بأحد هذين الرجلين: عمر بن الخطاب، أو أبي جهل ابن هشام»^(١).

فالعزة من جنس القدرة والقوة. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير»^(٢).

فالقدرّة إن لم تكن معها حكمة، بل كان القادر يفعل ما يريده، بلا نظر في العاقبة، ولا حكمة محمودة يطلبها بإرادته ويقصدها بفعله، كان فعله فساداً، كصاحب شهوات الغي والظلم، الذي يفعل بقوّته ما يريده من شهوات الغي في بطنه وفرجه ومن ظلم الناس، فإنّ هذا وإن كان له قوّة وعزّة لكن لما لم يقترن بها حكمة كان ذلك معونةً على شرّه وفساده.

وكذلك العلم كماله أن يقترن به الحكمة، وإلا فالعالم الذي لا يريد ما تقتضيه

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٨١)، وأحمد في المسند (١٢٢٨/٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

الحكمة وتوجهه، بل يريد ما يهواه، سفية غاوٍ، وعلمه عون له على الشرِّ والفساد.

والمقصود أن العلم والقدرة المجردين عن الحكمة لا يحصل بهما الكمال والصلاح، وإنما يحصل ذلك بالحكمة معهما. واسمه سبحانه «الحكيم» يتضمن حكمته في خلقه وأمره في إرادته الدينية والكونية، وهو حكيم في كل ما خلقه، حكيم في كل ما أمر به.

والنَّاس في هذا المقام أربع طوائف:

*** الطائفة الأولى:** الجاحدة لقدرته وحكمته، فلا يشبَّون له تعالى قدرة ولا حكمة، كما يقوله من ينفي كونه تعالى فاعلاً مختاراً، وأنَّ صدور العالم عنه بالإيجاب الذاتي لا بالقدرة والاختيار.

*** والطائفة الثانية:** أقرَّت بقدرته وعموم مشيئته للكائنات، وجحدت حكمته وما له في خلقه من الغايات المحمودة المطلوبة له - سبحانه - التي يفعل لأجلها ويأمر لأجلها، فحافظت على القدر وجحدت الحكمة. وهؤلاء هم النفاة للتعليل والأسباب والقوى والطباع في المخلوقات، فعندهم لا يفعل لشيء ولا لأجل شيء.

*** والطائفة الثالثة:** أقرَّت بحكمته، وأثبتت الأسباب والعلل والغايات في أفعاله وأحكامه، وجحدت بكمال قدرته، فنفت قدرته على شطر العالم، وهو أشرف ما فيه من أفعال الملائكة والجن والإنس وطاعاتهم. بل عندهم هذه كلها لا تدخل تحت مقدوره تعالى، ولا يوصف بالقدرة عليها، ولا هي داخلة تحت مشيئته ولا ملكه. وليس في مقدوره عندهم أن يجعل المؤمن مؤمناً والمصلي مصلياً والموفق موفقاً، بل هو الذي جعل نفسه كذلك. وعندهم أنَّ أفعال العباد من الملائكة والجن والإنس كانت بغير مشيئته واختياره، تعالى الله عن قولهم.

*** فهدى الله الطائفة الرابعة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**

إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]، فأمنوا بالكتاب كله، وأقرُّوا بالحق جميعه، ووافقوا كلَّ

واحدة من الطائفتين على ما معها من الحق، وخالفوهم فيما قالوه من الباطل. فآمنوا بخلق الله وأمره بقدره وشرعه، وأنه سبحانه المحمود على خلقه وأمره، وأن له الحكمة البالغة والنعمة السابغة، وأنه على كل شيء قدير. فلا يخرج عن مقدوره شيء من الموجودات أعيانها وأفعالها وصفاتها، كما لا يخرج عن علمه؛ فكل ما تعلّق به علمه من العالم تعلّقت به قدرته ومشيّته.

وآمنوا مع ذلك بأن له الحجة على خلقه، وأنه لا حجة لأحد عليه بل لله الحجة البالغة، وأنه لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم. لهم، بل كان تعذيبهم عدلاً منه وحكمة، لا بمحض المشيئة المجردة عن السبب والحكمة، كما يقوله الجبرية.

ولا يجعلون القدر حجة لأنفسهم ولا لغيرهم، بل يؤمنون به ولا يحتجون به، ويعلمون أن الله سبحانه أنعم عليهم بالطاعات وأنّها من نعمته عليهم وفضله وإحسانه، وأنّ المعاصي من نفوسهم الظالمة الجاهلة، وأنّهم هم جُنّاتها وهم الذين اجترحوها، ولا يحملونها على القضاء والقدر، مع علمهم بشمول قضائه وقدره لما في العالم من خيرٍ وشرٍّ وطاعة وعصيان وكفر وإيمان؛ وأنّ مشيئة الله سبحانه محيطّةٌ بذلك كإحاطة علمه به، وأنه لو شاء ألا يعصى لما عصي، وأنه سبحانه أعزّ وأجلّ من أن يعصى قسراً، والعباد أقل من ذلك وأهون؛ وأنه ما شاء الله كان، وكلّ كائن فهو بمشيئته، وما لم يشأ لم يكن، وما لم يكن فلعدم مشيئته، فله الخلق والأمر، وله الملك والحمد، وله القدرة التامة والحكمة البالغة.

فصل [الكلام على الحمد وأنه سبحانه المحمود على كل شيء]:

ويجمع هذين الأصلين العظيمين أصلٌ ثالثٌ: هو عقد نظامهما وجامع شملهما، وتحقيقه وإثباته على وجهه يتم بناء هذين الأصلين، وهو: إثبات الحمد كله لله رب العالمين؛ فإنّه المحمود على كل ما خلقه، وأمر به، ونهى عنه.

* فهو المحمود على طاعات العباد ومعاصيهم، وإيمانهم وكفرهم.

* وهو المحمود على خلق الأبرار والفجار، والملائكة والشياطين، وعلى خلق الرسل وأعدائهم.

* وهو المحمود على عدله في أعدائه، كما هو المحمود على فضله وإنعامه على أوليائه.

فكل ذرة من ذرات الكون شاهدة بحمده، ولهذا سبَّح بحمده السماوات السبع والأرض ومن فيهن: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وكان من قول النبي ﷺ عند الاعتدال من الركوع: «رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْد، مِلْءَ السَّمَاوَاتِ وَمِلْءَ الْأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدَ»^(١). فله سبحانه الحمد حمداً يملأ المخلوقات والفضاء الذي بين الأرض والسماوات، ويملاً ما يقدر بعد ذلك ممّا يشاء الله أن يملأ بحمده.

وقد اختلف الناس في معنى كون حمده يملأ السماوات والأرض وما بينهما، فقالت طائفة: هذا على جهة التمثيل، أي لو كان أجساماً لملأ السماوات والأرض وما بينهما. قالوا: فإنَّ الحمد من قبيل المعاني والأعراض التي لا تُملأ بها الأجسام، ولا تُملأ الأجسام إلا بالأجسام.

والصواب أنَّه لا يحتاج إلى هذا التكلف البارد، فإنَّ ملء كل شيء يكون بحسب المالى والمملوء، فإذا قيل: امتلأ الإناء ماءً، وامتلأت الجفنة طعاماً، فهذا الامتلاء نوع. وإذا قيل: امتلأت الدار رجالاً، وامتلأت المدينة خيلاً ورجالاً، فهذا نوع آخر. وإذا قيل: امتلأ الكتاب سطوراً، فهذا نوع آخر.

وإذا قيل: امتلأت مسامع الناس حمداً أو ذمّاً لفلان، فهذا نوع آخر، كما في أثر

(١) أخرجه مسلم (٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨، ٧٧١).

معروف: «أهل الجنة من امتلأت مسامعه من ثناء الناس عليه، وأهل النار من امتلأت مسامعه من ذم الناس له»^(١).

وقال عمر بن الخطاب في عبد الله بن مسعود: «كُنِيفٌ»^(٢) مُلِئَ عِلْمًا. ويقال: فلان علمه قد ملأ الدنيا، وكان يقال: «ملأ ابن أبي الدنيا الدنيا علمًا». ويقال: صيْتُ فلانٍ قد ملأ الدنيا فطبق الآفاق، وحبُّه قد ملأ القلوب، وبغضُ فلانٍ قد ملأ القلوب، وامتلاء قلبه رعبًا.

وهذا أكثر من أن تستوعب شواهدُه، وهو حقيقة في بابه. وجعل الملاء والامتلاء حقيقةً للأجسام خاصّة تحكُّم باطلٌ ودعوى لا دليل عليها ألبتة. والأصلُ الحقيقة الواحدة، والاشتراك المعنوي هو الغالب على اللغة والأفهام والاستعمال، فالمصير إليه أولى من المجاز والاشتراك اللفظي.

وليس هذا موضع تقرير هذه المسألة، إذ المقصود أن الرب تعالى أسماؤه كلها حسنى ليس فيها اسم سوء، وأوصافه كلها كمال ليس فيها صفة نقص، وأفعاله كلها حكمة ليس فيها فعل خالٍ عن الحكمة والمصلحة، وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم. موصوف بصفات الكمال، مذكور بنعوت الجلال، منزّه عن الشبيه والمثال، ومنزّه عمّا يضاد صفات كماله: فمنزّه عن الموت المضاد للحياة، وعن السنّة والنوم والسهو والغفلة المضاد للقيومية. وموصوف بالعلم، منزّه عن أضداده كلها من النسيان والذهول وعزوب شيء عن علمه. موصوف بالقدرة التامة، منزّه عن ضدها من العجز واللغوب والإعياء. موصوف بالعدل، منزّه عن الظلم. موصوف بالحكمة، منزّه عن العبث والسفه. موصوف بالسمع والبصر، منزّه عن أضدادهما من الصمّ والبكم. موصوف بالعلو والفوقية، منزّه عن ضد ذلك. موصوف بالغنى التام، منزّه عمّا يضاده بوجه من الوجوه. ومستحق للحمد كله، فيستحيل أن يكون غير

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٢٤)، والبخاري (٥١٥٤)، والطبراني في الكبير (١٢٧٨٧).

(٢) كُنِيفٌ: تصغير الكِنِف وهو الوعاء.

محمود، كما يستحيل أن يكون غير قادر ولا خالق ولا حي. بل الحمد كله واجب له لذاته، فلا يكون إلا محموداً، كما لا يكون إلا إلهاً ورباً وقادراً.

فإذا قيل: «الحمد كله لله»، فهذا له معنيان:

• أحدهما: أنه محمود على كل شيء، وبكل ما يُحمد به المحمودُ الحمد التام. وإن كان بعض خلقه يُحمد أيضاً، كما تُحمد رسله وأنبيأؤه وأتباعهم، فذلك من حمده **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**، بل هو المحمود بالقصد الأول وبالذات، وما نالوه من الحمد فإنما نالوه بحمده، فهو المحمود أولاً وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا. وهذا كما أنه بكل شيءٍ عليم، وقد علم غيره من علمه ما لم يكن يعلمه بدون تعليمه.

وفي الدعاء المأثور: «اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله وأعوذ بك من الشر كله»^(١).

وهو سبحانه له الملك، وقد أتى من ملكه بعض خلقه؛ وله الحمد، وقد أتى غيره من الحمد ما شاء. وكما أن ملك المخلوق داخل في ملكه، فحمده أيضًا داخل في حمده، فما من محمود يحمد على شيء ما -دق أو جل- إلا والله المحمود عليه بالذات، والأولية، والأولية أيضًا. وإذا قال الحامد: «اللهم لك الحمد» فالمراد به: أنت المستحق لكل حمد، ليس المراد به الحمد الخارجي فقط.

• المعنى الثاني: أن يقال: «لك الحمد كله» أي الحمد التام الكامل، فهذا مختص بالله **عَزَّجَلَّ**، ليس لغيره فيه شركة.

والتحقيق أن له الحمد بالمعنيين جميعًا، فله عموم الحمد وكماله، وهذا من خصائصه سبحانه. فهو المحمود على كل حال، وعلى كل شيء، أكمل حمد وأعظمه؛ كما أن له الملك التام العام، فلا يملك كل شيء إلا هو، وليس الملك التام

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٥٩٩).

الكامل إلا له. وأتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يثبتون له كمال الملك وكمال الحمد، فإنهم يقولون: إنَّه خالق كلِّ شيء وربّه ومليكه، لا يخرج عن خلقه وقدرته ومشيتّه شيء ألبته، فله الملك كله.

فَصْلٌ

والمقصودُ بيانُ شمولِ حمده تعالى وحكمته لكلِّ ما يحدثه من إحسانٍ ونعمة، وامتحانٍ وبليّة، وما يقضيه من طاعة ومعصية، وأنَّه سبحانه محمودٌ على ذلك مشكور حمد المدح وحمد الشكر:

* أمّا حمد المدح: فإنَّه محمود على كلِّ ما خلق، إذ هو رب العالمين، والحمد لله ربّ العالمين.

* وأمّا حمد الشكر: فلا نَّ ذلك كلّ نعمة في حقِّ المؤمن إذا اقترن بواجبه.

والإحسانُ والنعمةُ إذا اقترنت بالشكر صارت نعمة، والامتحانُ والبليّةُ إذا اقترن بالصبر كان نعمة. والطاعةُ فمن أجلِّ نعمه، وأمّا المعصيةُ فإذا اقترنت بواجبها من التوبة والاستغفار والإنابة والذل والخضوع، فقد ترتّب عليها من الآثار المحمودّة والغايات المطلوبة ما هو نعمة أيضًا، وإن كان سببها مسخوطًا مبغوضًا للربِّ تعالى، ولكنه يحب ما ترتب عليها من التوبة والاستغفار.

وهو سبحانه أفرح بتوبة عبده من الرجل إذا أضلَّ راحلته بأرضٍ دويّةٍ ^(١) مهلكةٍ عليها طعامه وشرابه، فأيس منها ومن الحياة، فنام، ثمَّ استيقظ، فإذا بها قد تعلّق خطامُها في أصل شجرةٍ، فجاءَ حتّى أخذها؛ فالله أفرح بتوبة العبد حين يتوب إليه من هذا براحلته ^(٢).

(١) أرضٍ دويّةٍ: فهي الفلاة وجمعها دويّ.

(٢) يشير إلى ما رواه البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤).

فهذا الفرح العظيم الذي لا يشبهه شيء أحبُّ إليه سبحانه من عدمه، وله أسباب ولوازم لا بدَّ منها. وما يحصل بتقدير عدمه من الطاعات وإن كان محبوباً له، فهذا الفرح أحبُّ إليه بكثير، ووجوده بدون لازمه ممتنع. فله من الحكمة في تقدير أسبابه وموجباته حكمة بالغة ونعمة سابغة.

هذا بالإضافة إلى الرب **جَلَّ جَلَالُهُ**، وأمّا بالإضافة إلى العبد فإنَّه قد يكون كمالُ عبوديته وخضوعه موقوفاً على أسباب لا يحصل بدونها. فتقديرُ الذنب عليه إذا اتصل به التوبة والإنابة والخضوع والذل والانكسار ودوام الافتقار كان من النعم باعتبار غايته وما يُعقبه، وإن كان من الابتلاء والامتحان باعتبار صورته ونفسه؛ والربُّ تعالى محمود على الأمرين. فإن اتصل بالذنب الآثارُ المحبوبةُ للرب سبحانه من التوبة والإنابة والذل والانكسار فهو عين مصلحة العبد، والاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية.

وإن لم يتصل به ذلك فهذا لا يكون إلا من خُبث نفسه، وشرِّه، وعدم استعداده لمجاورة ربه بين الأرواح الزكية الطاهرة في الملاء الأعلى. ومعلوم أنَّ هذه النفس فيها من الشرِّ والخبث ما فيها، فلا بدَّ من خروج ذلك منها من القوَّة إلى الفعل، ليرتَّب على ذلك الآثارُ المناسبة لها ومساكنةُ من تليق مساكنته ومجاورة الأرواح الخبيثة في المحلِّ الأسفل. فإنَّ هذه النفوس إذا كانت مهياًً لذلك، فمن الحكمة أن تُستخرج منها الأسبابُ التي تُوصِّلها إلى ما هي مهياًة له، ولا يليق بها سواه.

والرب تعالى محمود على ذلك أيضاً، كما هو محمود على إنعامه وإحسانه على أهل الإحسان والإنعام القابلين له، فما كل أحد قابلاً لنعمته تعالى، فحمده وحكمته يقتضي أن لا يُودع نعمه وإحسانه وكنوزَه في محل غير قابل لها.

ولا يبقى إلا أن يقال: فما الحكمة في خلق هذه الأرواح التي هي غيرُ قابلةٍ لنعمته؟ فقد تقدَّم من الجواب أن خلق الأضداد والمتقابلات وترتيب آثارها عليها هو موجب ربوبيته وحكمته وعلمه وعزَّته، وأنَّ تقدير عدم ذلك هضمٌ من جانب الربوبية.

وأيضاً فإنَّ هذه الحوادث نعمة في حق المؤمن، فإنَّها إذا وقعت فهو مأمور أن يُنكِرَها بقلبه ويده ولسانه، أو بقلبه ولسانه فقط، أو بقلبه فقط؛ ومأمور أن يجاهد أربابها بحسب الإمكان، فيترتَّب له على الإنكار والجهاد من مصالح قلبه ونفسه وبدنه ومصالح دنياه وآخرته ما لم يكن ينال بدون ذلك.

والمقصود بالقصد الأوَّل إتمام نعمته تعالى على أوليائه ورسله وخاصته، فاستعمال أعدائه فيما تكمل به النعمة على أوليائه غاية الحكمة، وكان في تمكين أهل الكفر والفسوق والعصيان من ذلك إيصال أوليائه إلى الكمال الذي يحصل لهم بمعادة هؤلاء، وجهادهم، والإنكار عليهم، والموالاتة فيه، والمعاداة فيه، وبذل نفوسهم وأموالهم وقواهم له. فإنَّ تمام العبودية لا يحصل إلا بالمحبة الصادقة، وإنَّما تكون المحبة صادقة إذا بذل فيها المحبُّ ما يملكه من مال ورياسة وقوَّة في مرضاة محبوبه والتقرب إليه، فإن بذل له روحه كان هذا أعلى درجات المحبة.

فلولا خلق الأضداد، وتسليط أعدائه، وامتحان أوليائه بهم لم يستخرج خالص العبودية من عبده الذين هم عبيده، ولم يحصل لهم عبودية الموالاتة فيه، والمعاداة فيه، والحب فيه، والبغض فيه، والعطاء له، والمنع له؛ ولا عبودية بذل الأرواح والأموال والأولاد والقوى في جهاد أعدائه ونصرته، ولا عبودية مفارقة الناس أحوج ما يكون إليهم عبده لأجله وفي مرضاته. فلا يتحيز إليهم، وهو يرى محابَّ نفسه وملاذَّها بأيديهم، فيرضى بمفارقتهم، ومشاققتهم، وإيثار موالاتة الحق عليهم. فلولا الأضداد والأسباب التي توجب ذلك لم تحصل هذه الآثار.

وأيضاً فلولا تسليط الشهوة والغضب ودواعيهما على العبد لم تحصل له فضيلة الصبر، وجهاد النفس، ومنعها من حظوظها وشهواتها محبةً لله، وإيثارة لمرضاته، وطلباً للزلفى لديه والقرب منه.

ولو كان الخلق كله طبيعةً واحدةً ونمطاً واحداً لوجد الملحد مقالاً وقال: هذا

مقتضى الطبيعة، ولو كان فاعلاً بالاختيار لتنوعت أفعاله ومفعولاته، ولفعل الشيء وضده، والشيء وخلافه. وكذلك لو لا شهود هذه الحوادث المشهودة لوجد الملحد أيضاً مقالاً وقال: لو كان لهذا العالم خالق مختار لو جرت فيه الحوادث على حسب إرادته واختياره، كما روي عن الحسن أو غيره قال: «كان أصحاب محمد ﷺ يقولون: جل ربنا القديم، لو لم يتغير هذا الخلق لقال الشاك في الله: لو كان لهذا العالم خالق لحادثه^(١): بينا هو ليل إذ جاء نهار، وبيننا هو نهار إذ جاء ليل، وبيننا هو صحو إذ جاء غيم، وبيننا هو غيم إذ جاء صحو» أو نحو هذا من الكلام.

ولهذا يستدل سبحانه في كتابه بالحوادث تارة وباختلافها تارة، إذ هذا وهذا مستلزم لربوبيته، وقدرته، واختياره، ووقوع الكائنات على وفق مشيئته؛ فتنوع أفعاله ومفعولاته من أعظم الأدلة على ربوبيته وحكمته وعلمه.

ولهذا - سبحانه - خلق النوع الإنساني أربعة أقسام:

- أحدها: لا من ذكر ولا أنثى، وهو خلق أبيهم وأصلهم آدم.
- الثاني: خلقه من ذكر بلا أنثى، كخلق أمهم حواء من ضلع من أضلاع آدم من غير أن تحمل بها أنثى أو يشتمل عليها بطن.
- الثالث: خلقه من أنثى بلا ذكر، كخلق المسيح عيسى ابن مريم صلى الله على نبينا وعليه.

• الرابع: خلق سائر النوع الإنساني من ذكر وأنثى.

وكل هذا ليدل عباده على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وكمال حكمته؛ وأن الأمر ليس كما يظنه أعداؤه الجاحدون له الكافرون به من أن ذلك أمر طبيعي لم يزل هكذا ولا يزال، وأنه ليس للنوع أب ولا أم، وأنه ليس إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع،

(١) لحادثه: أي لأحدث فيه تغييراً وتبديلاً.

وطبيعة تفعل ما يرى ويشاهد. ولم يعلم هؤلاء الجهال الضلال أن الطبيعة قوة وصفة فقيرة إلى محلها، محتاجة إلى حامل لها، وأنّها من أدل الدلائل على وجود من طبعها، وخلقها، وأودعها الأجسام، وجعل فيها هذه الأسرار العجيبة. فالطبيعة مخلوق من مخلوقاته، ومملوك من ممالكه وعبيده، مسخرة لأمره، منقادة لمشيئته. ودلائل الصنعة، وأمارات الخلق والحدوث، وشواهد الفقر والحاجة شاهد عليها بأنّها مخلوقة مصنوعة، لا تخلق، ولا تفعل، ولا تتصرف في ذاتها ونفسها، فضلاً عن إسناد الكائنات إليها.

والمقصود أن تنويع المخلوقات واختلافها من لوازم الحكمة والربوبية والملك، وهو أيضاً من موجبات الحمد، فله الحمد على ذلك كله أكمل حمد وأتمّه. وأيضاً فإنّ مخلوقاته هي موجبات أسمائه وصفاته، فلكل اسم وصفة أثر لا بدّ من ظهوره فيه واقتضائه له، فيمتنع تعطيل آثار أسمائه وصفاته، كما يمتنع تعطيل ذاته عنها. وهذه الآثار لها متعلقات ولوازم يمتنع أن لا توجد، كما تقدم التنبيه عليه.

وأيضاً فإنّ تنويع أسباب الحمد أمرٌ مطلوب للرب محبوب له، فكلما تنوعت أسباب الحمد تنوع الحمد بتنوعها، وكثر بكثرتها. ومعلوم أنّه سبحانه محمود على انتقامه من أهل الإجمام والإساءة، كما هو محمود على إكرامه لأهل العدل والإحسان. فهو محمود على هذا وعلى هذا، مع ما يتبع ذلك من حمده على حلمه وعفوه ومغفرته، وترك حقوقه ومسامحة خلقه بها، والعفو عن كثير من جنيات العبيد. فنبههم باليسير من عقابه وانتقامه على الكثير الذي عفا عنه، وأنّه لو عاجلهم بعقوبته، وأخذهم بحقه، لقضي إليهم أجلهم، ولما ترك على ظهرها من دابة. ولكنّه سبقت رحمته غضبه، وعفوه انتقامه، ومغفرته عقابه. فله الحمد على عفوه وانتقامه، وعلى عدله وإحسانه، ولا سبيل إلى تعطيل أسباب حمده ولا بعضها. فليتدبر اللبيب هذا الموضع حق التدبر، وليعطه حقّه يُطلعه على أبواب عظيمة من أسرار القدر، ويهبط به على رياض منه مُعشبة

وحدائق مُؤنّقة، والله الموفق الهادي للصواب.

وأيضاً فإن الله سبحانه نوع الأدلة الدالة عليه والتي تعرّف عباده به غاية التنوع، وصرف الآيات، وضرب الأمثال، ليقيم عليهم حجّته البالغة، ويتمّ بذلك عليهم نعمته السابغة، ولا يكون لأحد بعد ذلك حجة عليه سبحانه، بل الحجّة كلها له، والنعمة كلها له، والقدرة كلها له. فأقام عليهم حجّته، ولو شاء لسوّى بينهم في الهداية، كما قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

وأيضاً فإن حقيقة الملك إنّما تتم بالعطاء والمنع، والإكرام والإهانة، والإثابة والعقوبة، والغضب والرضا، والتولية والعزل، وإعزاز من يليق به العز وإذلال من يليق به الذل. قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦-٢٧].

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، يغفر ذنباً، ويفرّج كرباً، ويكشف غمّاً، وينصر مظلوماً، ويأخذ ظالماً، ويفكّ عانيّاً، ويُعني فقيراً، ويجبر كسيراً، ويشفي مريضاً، ويُثقل عثرةً، ويستر عورةً، ويُعزّ ذليلاً، ويُذلّ عزيزاً، ويعطي سائلاً، ويذهب بدولة، ويأتي بأخرى، ويداول الأيام بين الناس، ويرفع أقواماً، ويضع آخرين.

والمقصود أنّ الملك والحمد في حقّه متلازمان، فكلّ ما شمله ملكه وقدرته شمله حمده، فهو محمود في ملكه، وله الملك والقدرة مع حمده. فكما يستحيل خروج شيء من الموجودات عن ملكه وقدرته، يستحيل خروجها عن حمده وحكمته. ولهذا يحمد سبحانه نفسه عند خلقه وأمره، لينبّه عباده على أنّ مصدر خلقه وأمره عن حمده. فهو محمود على كلّ ما خلقه وأمر به حمدين: حمد شكر وعبودية، وحمد ثناء ومدح،

ويجمعهما «التبارك»، فتبارك الله يشمل ذلك كله، ولهذا ذكر هذه الكلمة عقيب قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فالحمد أوسع الصفات وأعم المدائح، والطرق إلى العلم به في غاية الكثرة، والسبيل إلى اعتباره في ذرات العالم- وجزئياته وتفصيل الأمر والنهي واسعة جدًا، لأنَّ جميع أسمائه تَبَارَكَ وَتَعَالَى حمد، وصفاته حمد، وأفعاله حمد، وأحكامه حمد، وعدله في انتقامه من أعدائه حمد، وفضله في إحسانه إلى أوليائه حمد. والخلق والأمر إنما قام بحمده، ووجد بحمده، وظهر بحمده، وكان لغاية هي حمده. فحمده سبب ذلك، وغايته، ومظهره، وحامله؛ فحمده روح كل شيء، وقيام كل شيء بحمده. وسريان حمده في الوجودات وظهور آثاره فيه أمر مشهود بالأبصار والبصائر.

فمن الطرق الدالة على شمول معنى الحمد وانبساطه على جميع المعلومات: معرفة أسمائه وصفاته، وإقرار العبد بأنَّ للعالم- إلهًا حيًّا جامعًا لكلِّ صفة كمال، واسم حسن، وثناء جميل، وفعل كريم؛ وأنَّه سبحانه له القدرة التامة، والمشية النافذة، والعلم المحيط، والسمع الذي وسع الأصوات، والبصر الذي أحاط بجميع المبصرات، والرحمة التي وسعت جميع المخلوقات، والملك الأعلى الذي لا يخرج عنه ذرة من الذرات، والغنى التام المطلق من جميع الجهات، والحكمة البالغة المشهود أثرها في الكائنات، والعزة العالية بجميع الوجوه والاعتبارات، والكلمات التامات النافذات التي لا يجاوزهنَّ برٌّ ولا فاجر من جميع البريات.

واحدٌ لا شريك له في ربوبيته، ولا في إلهيته، ولا شبيه له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله. وليس له من يشركه في ذرة من ذرات ملكه، أو يخلفه في تدبير خلقه، أو يحجبه عن داعيه ومؤمليه وسائله، أو يتوسط بينهم وبينه بتبليس أو فرية أو كذب، كما يكون بين الرعايا وبين الملوك. ولو كان كذلك لفسد نظام الوجود، وفسد العالم- بأسره ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فلو كان معه آلهة أخرى -كما

يقوله أعداؤه المبطلون- لوقع من النقص في التدبير وفساد الأمر كله ما لا يثبت معه حال، ولا يصلح معه وجود.

وقد نبّه سبحانه على شمول حمده لخلقه وأمره بأن حمد نفسه في أول الخلق وآخره، وعند الأمر والشرع؛ وحمد نفسه على ربوبيته للعالمين، وحمد نفسه على تفردّه بالإلهية وعلى حياته. وحمد نفسه على امتناع اتصافه بما لا يليق بكماله من اتخاذ الولد والشريك وموالاته أحد من خلقه لحاجة إليه. وحمد نفسه على علوه وكبريائه، وحمد نفسه في الأولى والآخرة. وأخبر عن سريان حمده في العالم العلوي والسفلي. ونبّه على هذا كله في كتابه، وحمد نفسه عليه؛ فنوع حمده وأسباب حمده، وجمعها تارةً، وفرّقها أخرى، ليتعرّف إلى عبادته، ويعرّفهم كيف يحمّدونه وكيف يشنون عليه، ولتجنّب إليهم بذلك، ويحبهم إذا عرفوه وأحبوه وحمّدوه.

■ قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٣﴾ مَلِكٌ يَوْمَ

الدين ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة: ٢-٤].

■ وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ١].

■ وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ فَيَمَّا يَتَذَكَّرُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا

مَنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾ [الكهف: ١-٢].

■ وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ

الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾ [سبأ: ١].

■ وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى

وَتَلَتْ وَرُبِعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [فاطر: ١].

■ وقال: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠].

■ وقال: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥].

■ وقال: ﴿فَسَبِّحْ لِلَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧-١٨].

■ وأخبر عن حمد خلقه له بعد فصله بينهم، والحكم لأهل طاعته بثوابه وكرامته، والحكم لأهل معصيته بعقابه وإهانته: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

■ وأخبر عن حمد أهل الجنة له وأنهم لم يدخلوها إلا بحمده، كما أن أهل النار لم يدخلوها إلا بحمده، فقال أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] و﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ فِيهَا سَلَمٌ مَّا دَعَوْنَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

■ وقال عن أهل النار: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [القصص: ٧٤-٧٥].

■ وقال تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١].

وشهدوا على أنفسهم بالكفر والظلم، وعلموا أنهم كانوا كاذبين في الدنيا، مكذبين بآيات ربهم، مشركين به، جاحدين لإلهيته، مفتريين عليه. وهذا اعتراف منهم بعدله فيهم، وأخذهم ببعض حقه عليهم، وأنه غير ظالم لهم، وأنهم إنما دخلوا النار بعدله وحمده،

وإنما عوقبوا بأفعالهم وبما كانوا قادرين على فعله وتركه، لا كما يقول الجبرية.

فهذا تنبيه على أحد نوعي حمده، وهو حمد الصفات والأسماء.

*** والنوع الثاني: حمد النعم والآلاء، وهذا مشهود للخلقة: برّها وفاجرّها، مؤمنّها وكافرّها؛ من جزيل مواهبه، وسعة عطاياه، وكريم أياديّه، وجميل صنائعه، وحسن معاملته لعباده، وسعة رحمته بهم، وبره ولطفه وحنانه، وإجابته لدعوات المضطرين، وكشف كُربات المكروبين، وإغاثة الملهوفين، ورحمة العالمين، وابتدائه بالنعم قبل السؤال ومن غير استحقاق، بل ابتداءً منه بمجرد فضله وكرمه وإحسانه، ودفع المحن والبلايا بعد انعقاد أسبابها، وصرفها بعد وقوعها، ولطفه تعالى في ذلك بإيصاله إلى من أَراده بأحسن الألفاف، وتبليغه من ذلك إلى ما لا تبلغه الآمال، وهدايته خاصّته وعبادَه إلى سُبُل السلام، ومدافعتهم أحسن الدفاع، وحمايتهم عن مراتع الآثام.**

وَحَبَّبَ إِلَيْهِمُ الْإِيمَانَ، وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَكَرَّهَ إِلَيْهِمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، وجعلهم من الرّاشدين. وكتب في قلوبهم الإيمان، وأيدهم بروح منه، وسَمَّاهم المسلمين قبل أن يخلقهم، وذكرهم قبل أن يذكره، وأعطاهم قبل أن يسألوه، وتَحَبَّبَ إِلَيْهِمْ بِنِعْمِهِ، مع غناه عنهم، وتَبَغَّضَ إِلَيْهِ بِالْمَعَاصِي، وفقَّرههم إليه.

ومع هذا كله فاتخذَ لهم دارًا، وأعدَّ لهم فيها من كلّ ما تشتهيه الأنفس وتلذُّه الأعين، وملائها من جميع الخيرات، وأودعها من النعيم والحَبْرَةِ^(١) والسرور والبهجة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ثمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الرِّسْلَ يَدْعُوهُمْ إِلَيْهَا، ثُمَّ يَسِّرَ لَهُمُ الْأَسْبَابَ الَّتِي تَوصلهم إِلَيْهَا وَأَعَانَهُمْ عَلَيْهَا، وَرَضِيَ مِنْهُمْ بِالْيَسِيرِ فِي هَذِهِ الْمَدَّةِ الْقَصِيرَةِ جَدًّا بِالْإِضَافَةِ إِلَى بَقَاءِ دَارِ النِّعَمِ، وَضَمِنَ لَهُمْ إِنْ أَحْسَنُوا أَنْ يُثَبِّتَهُمُ بِالْحَسَنَةِ عَشْرًا، وَإِنْ أَسَاءُوا وَاسْتَغْفَرُوهُ أَنْ

(١) الحَبْرَةُ: النعمة. وَخَيْرُ الرَّجُلِ حَبْرَةٌ وَخَبْرًا فَهُوَ مُحْبُّورٌ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾، أَي: يُنْعَمُونَ.

يغفر لهم، ووعدهم أن يمحو ما جنّوه من السيئات بما يفعلونه بعدها من الحسنات.
 وذكرهم بالآله، وتعرف إليهم بأسمائهم، وأمرهم بما أمرهم به رحمةً منه بهم وإحساناً،
 لا حاجةً منه إليهم، ونهاهم عمّا نهاهم عنه حمايةً وصيانةً لهم، لا بخلاً منه عليهم.

■ ويخاطبهم باللفظ الخطاب، ويسمّيهم بأحسن أسمائهم كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١]، ﴿يَعِبَادِي الَّذِينَ ءَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣]، ﴿قُلْ لِّعِبَادِي﴾ [إبراهيم: ٣١]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ [البقرة: ١٨٦].

■ فيخاطبهم بـخطاب الوداد والمحبة والتلطف كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ١١ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

■ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِن خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآذَنُوا تُوفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

■ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

■ ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ رَبِّكَ أَكَرِيمٌ﴾ ١٢ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦-٧].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ١٣ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢-١٠٣].

ومن أراد مطالعة أصول النعم فليُسِم^(١) سِرَح الفكر في رياض القرآن، وليتأمل ما عدّد الله فيه من نعمه، وتعرّف بها إلى عباده من أوّل القرآن إلى آخره، حتّى خلق النّار، وابتلاءهم بإبليس وحزبه، وتسليط أعدائهم عليهم، وامتحانهم بالشهوات والإرادات والهوى؛ لتعظّم النعمة عليهم بمخالفتها ومحاربة أعدائه. فللّه على أوليائه وعباده أتمّ نعمة وأكملها في كلّ ما خلقه من محبوب ومكروه، ونعمة ومحنة، وفي كلّ ما أحدثه في الأرض من وقائعه بأعدائه وإكرامه لأوليائه، وفي كلّ ما قضاه وقدره. وتفصيل ذلك لا تنفي به أعلام الدنيا وأوراقها، ولا قوى العباد، وإنّما هو التنبيه والإشارة.

ومن استقرى الأسماء الحسنى وجدها مدائح وثناء تقصر بلاغات الواصفين عن بلوغ كنهها، وتعجز الأوهام عن الإحاطة بالواحد منها. ومع ذلك فللّه سبحانه محامد ومدائح وأنواع من الثناء لم تتحرّك بها الخواطر، ولا هجست^(٢) في الضمائر، ولا لاحت لمتوسم، ولا سنحت في فكر. ففي دعاء أعرّف الخلق برّبّه تعالى وأعلمهم بأسمائه وصفاته ومحامده: «أسألك بكلّ اسم هو لك، سمّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلّاء حزني، وذهاب همّي وغمّي»^(٣).

وفي الصحيح عنه عليه السلام في حديث الشفاعة لمّا يسجد بين يدي ربّه، قال: «يفتح عليّ من محامده بشيء لا أحسنه الآن»^(٤).

وكان يقول في سجوده: «أعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»^(٥).

(١) يخلي فكره حيث شاء.

(٢) هجست: خطرت.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٨٦٤)، والطبراني في الكبير (١٠٣٥٢)، والحاكم في المستدرک (١٨٧٧)، وابن حبان (٩٧٢).

(٤) أخرجه البخاري (٤٧١٢) ومسلم (١٩٤).

(٥) أخرجه مسلم (٤٨٦).

فلا يحصي أحد من خلقه ثناءً عليه ألبته، وله أسماء وأوصاف وحمد وثناء لا يعلمه ملك مقرب، ولا نبي مرسل. ونسبة ما يعلم العباد من ذلك إلى ما لا يعلمونه كنقرة عصفور في بحر.

واعلم أن الله خصائص في خلقه، ورحمة وفضلاً يختص به من يشاء، وذلك موجب ربوبيته وإلهيته وحمده وحكمته، فإياك ثم إياك أن تصغي إلى وسوسة شياطين الإنس والجن والنفس الجاهلة الظالمة أنه هلاً سوى بين عبادته في تلك الخصائص، وقسمها بينهم على السواء؟ فإن هذا عين الجهل والسفاهة من المعترض به. وقد بينا فيما تقدم أن حكمته تأبى ذلك وتمنع منه.

ولكن اعلم أن الأمر قسمة بين فضله وعدله، فيختص برحمته من يشاء، ويقصد بعذابه من يشاء، وهو المحمود على هذا وهذا. فالطيون من خلقه مخصوصون بفضله ورحمته، والخبثون مقصودون بعذابه، ولكل واحد قسطه من الحكمة والابتلاء والامتحان، وكل مستعمل فيما هو له مهياً وله مخلوق.

وكل ذلك خير ونفع ورحمة للمؤمنين، فإنه تعالى خلقهم للخيرات فهم لها عاملون، واستعملهم فيها فلم يدركوا ذلك إلا به، ولا استحقوه إلا بما سبق لهم من مشيئته وقسمه، فلذلك لا تضرهم الأدوية ولا السموم، بل متى وسوس لهم العدو، أو اغتالهم بشيء من كيده، أو مسهم بشيء من طيفه ﴿تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (٢٠١) وإخوانهم يمدونهم في النفي ثم لا يقصرون ﴿[الأعراف: ٢٠١-٢٠٢].

وإذا واقعوا معصية صغيرة أو كبيرة عاد ذلك عليهم رحمة، وانقلب في حقهم دواء، وبذل حسنة بالتوبة النصوح والحسنات الماحية؛ لأنه سبحانه عرفهم بنفسه وفضله، وبأن قلوبهم بيده وعصمتهم إليه، حيث نقض عزماتهم، وقد عزموا أن لا يعصوه، وأراهم عزته في قضائه وبره وإحسانه في عفوه ومغفرته، وأشهدهم نفوسهم وما فيها من النقص والظلم والجهل، وأشهدهم حاجتهم إليه وافتقارهم ذلهم، وأنه إن لم يعف عنهم ويغفر لهم فليس لهم سبيل إلى النجاة أبداً.

فصل [الحكمة في خلق الدنيا والجنة والنار]:

والله سبحانه مع كونه خالق كل شيء، فهو موصوف بالرضا والغضب، والعطاء والمنع، والخفض والرفع، والرحمة والانتقام.

* فاقتضت حكمته تعالى أن خلق داراً لطالبي رضاه العاملين بطاعته، المؤثرين لأمره، القائمين بمحابه، وهي الجنة. وجعل فيها كل شيء مرضي، وملاها من كل محبوب ومرغوب ومشتهى ولذيذ، وجعل الخير بحذايره فيها، وجعلها محل كل طيب من الذوات والصفات والأقوال.

* وخلق داراً أخرى لطالبي أسباب غضبه وسخطه، المؤثرين لأغراضهم وحظوظهم على مرضاته، العاملين بأنواع مخالفته، القائمين بما يكره من الأعمال والأقوال، الواصفين له بما لا يليق به، الجاحدين لما أخبرت به رسله من صفات كماله ونعوت جلاله، وهي جهنم. وأودعها كل شيء مكروه، وشحنها من كل مؤذ ومؤلم، وجعل الشر بحذايره فيها، وجعلها محل كل خبيث من الذوات والصفات والأقوال والأعمال.

فهاتان الداران هما دارا القرار.

* وخلق داراً ثالثة هي كالميناء لهاتين الدارين، ومنها يتزود المسافرون إليهما، وهي دار الدنيا. ثم أخرج إليها من آثار الدارين بعض ما اقتضته أعمال أربابهما وما يستدل به عليهما، حتى كأنهما رأي عين، ليصير للإيمان بالدارين - وإن كان غيباً - وجه شهادة تستأنس به النفوس، وتستدل به. فأخرج سبحانه إلى هذه الدار من آثار رحمته من الثمار والفواكه، والطيبات، والملابس الفاخرة، والصور الجميلة، وسائر ملاذ النفوس ومشتهاها ما هو نفحة من نفحات الدار التي جعل ذلك كله فيها على وجه الكمال. فإذا رآه المؤمنون ذكرهم بما هناك من الحبرة والسرور والعيش الرخي، كما قيل:

فإذا رآك المسلمون تيقنوا *** حور الجنان لدى النعيم الخالد

فشمروا إليه وقالوا: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة»^(١)، وأحدثت لهم رؤيته عزمات وهممًا وجدًا وتشميرًا، لأن النعيم يذكر بالنعيم، والشيء يذكر بجنسه؛ فإذا رأى أحدهم ما يعجبه ويروقه ولا سبيل له إليه قال: «موعذك الجنة، وإنما هي عشية أو ضحاها». فوجود تلك المشتتهات والملذذات في هذه الدار رحمة من الله، يشوق بها عباده المؤمنين إلى تلك التي هي أكمل منها، وزاد لهم من هذه الدار إليها، فهي زاد، وعبرة، ودليل، وأثر من آثار رحمته التي أودعها تلك الدار. فالمؤمن يهتز برؤيتها إلى ما أمامه، ويثير ساكن عزماته إلى تلك، فنفسه ذوابة توافقة، إذا ذقت شيئًا منها تافت إلى ما هو أكمل منه حتى تتوق إلى النعيم المقيم في جوار الرب الكريم.

وأخرج سبحانه إلى هذه الدار أيضًا من آثار غضبه ونقمته من العقوبات والآلام والمحن والمكروهات من الأعيان والصفات ما يستدل بجنسه على ما في دار الشقاء من ذلك، مع أن ذلك من آثار النفسين الشتائي والصيفي اللذين أذن الله سبحانه بحكمته لجهنم أن تتنفس بهما، فاقتضت بذنك النفسين آثارًا ظهرت في هذه الدار كانت دليلًا وعبرة عليها^(٢). وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى، ونبه عليه بقوله في نار الدنيا: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَنَمَتًا لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الواقعة: ٧٣] تذكرة تُذكر بنار الآخرة، ومنفعة للنازِلين بالقواء، وهم المسافرون. يُقال: أقوى الرجل، إذا نزل بالقِيّ والقواء، وهي الأرض الخالية. وخص المقومين بالذكر، وإن كانت منفعتها عامة للمسافرين والمقيمين،

(١) جزء من حديث سهل بن سعد، قال: جاءنا رسول الله ﷺ ونحن نحفر الخندق، ونقل التراب على أكتافنا، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم، لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للأبصار والمهاجرة» أخرجه البخاري (٤٠٩٨) ومسلم (١٨٠٤).

(٢) يشير إلى حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يقول: قال رسول الله ﷺ: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: رب أكل بعضي بعضًا، فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير» أخرجه البخاري (٣٢٦٠) ومسلم (٦١٧).

تنبيهًا لعباده -والله أعلم بمراده من كلامه- على أنهم كلهم مسافرون، وأنهم في هذه الدار على جناح سفر ليسوا مقيمين ولا مستوطنين، وأنهم عابرو سبيل وأبناء سفر.

والمقصود: أنه سبحانه أشهدهم في هذه ما أعدّ لأوليائه وأعدائه في دار القرار، وأخرج إلى هذه الدار من آثار رحمته وعقوبته ما هو عبرة ودلالة على ما هناك من خيرٍ وشرٍّ. وجعل هذه العقوبات والآلام والمحن والبلايا سياتًا يسوق بها عباده المؤمنين، فإذا رأوها حذروا كلَّ الحذر، واستدلُّوا بما رأوه منها وشاهدوه على ما في تلك الدار من المكروهات والعقوبات. وكان وجودها في هذه الدار وإشهادهم إياها، وامتحانهم باليسير منها رحمةً منه بهم، وإحسانًا إليهم، وتذكرةً وتنبيهًا.

ولما كانت هذه الدار ممزوجةً خيرها بشرها، وأذاها براحتها، ونعيمها بعذابها اقتضت حكمةً أحكم الحاكمين أن خلَّص خيرها من شرِّها، وخصَّ بدار أخرى هي دار الخيرات المحضة ودار الشرور المحضة. فكتب على هذه الدار حكمَ الامتزاج والاختلاط، وخلَّط فيها بين الفريقين، وابتلى بعضهم ببعض، وجعل بعضهم لبعض فتنة؛ حكمةً بالغةً بهرت العقول وعزَّةً قاهرة. فقام بهذا الاختلاط سوقُ العبودية كما يحبه ويرضاه، ولم تكن تقوم عبوديته التي يحبها ويرضاها إلا على هذا الوجه، بل العبد الواحد جمَعَ فيه بين أسباب الخير والشر، وسلَّط بعضه على بعض ليستخرج منه ما يحبه من العبودية التي لا تحصل إلا بذلك.

فلما حصلت الحكمة المطلوبة من هذا الامتزاج والاختلاط أعقبه بالتمييز والتخليص، فميز بينهما بدارين ومحلين، وجعل لكلِّ دارٍ ما يناسبها، وأسكن فيها من يناسبها وخلق المؤمنين المتقين المخلصين لرحمته، وأعداء الكافرين لنقمته، والمخلَّطين للأمرين معًا: فهؤلاء أهل الرحمة، وهؤلاء أهل النعمة، وهؤلاء أهل الرحمة والنعمة، وقسم آخر لا يستحقون ثوابًا ولا عقابًا. ورَّتب على كلِّ قسم من هذه الأقسام حكمه اللائق به، وأظهر فيه حكمته الباهرة، ليعلم العباد كمال قدرته وحكمته، وأنَّه يخلق ما يشاء، ويختار من خلقه من يصلح للاختيار، وأنَّه يضع ثوابه

موضعه، وعقابه موضعه، ويجمع بينهما في المحلّ المقتضي لذلك، ولا يظلم أحداً، ولا يبخسه شيئاً من حقّه، ولا يعاقبه بغير جنايته.

هذا مع ما في ضمن هذا الابتلاء والامتحان من الحِكم الراجعة إلى العيّد أنفسهم: من استخراج صبرهم وشكرهم وتوكلهم وجهادهم، واستخراج كمالاتهم الكامنة في نفوسهم من القوّة إلى الفعل، ودفع الأسباب بعضها ببعض، وكسر كلّ شيء بمقابله ومصادمته بضده، ليظهر عليه آثارُ القهر وسماتُ الضعف والعجز، ويستيقن العبد أنّ القهّار لا يكون إلا واحداً، وأنّه يستحيل أن يكون له شريك؛ بل القهر والوحدة متلازمان.

فالملك والقدرة والقوّة والعزّة كلها لله الواحد القهّار، ومن سواه مربوب مقهور، له ضد ومناوٍ ومشارك. فخلق الرياح، وسلّط بعضها على بعض تُصادمها، وتكسر سورتها، وتذهب بها. وخلق الماء، وسلّط عليه الرياح تصرّفه وتكسره. وخلق النار، وسلّط عليها الماء يكسرها ويطفئها. وخلق الحديد، وسلّط عليه النار تذيبه وتكسر قوته. وخلق الحجارة، وسلّط عليه الحديد يكسرها ويفتتها. وخلق آدم وذريته، وسلّط عليهم إبليس وذريته. وخلق إبليس وذريته، وسلّط عليهم الملائكة يشردونهم كلّ مشرّد ويطرّدونهم كلّ مطرّد. وخلق الحرّ والبرد والشتاء والصيف، وسلّط كلّاً منهما على الآخر يُذهبه ويقهره. وخلق الليل والنهار، وقهر كلّاً منهما بالآخر. وكذلك الحيوان على اختلاف ضروبه من حيوان البر والبحر، لكلّ منه مضاد ومغالب.

فاستبان للعقول والفطر أنّ القاهر الغالب لذلك كلّ واحد، وأنّه من تمام ملكه إيجاد العالم على هذا الوجه، وربط بعضه ببعض، وإحواج بعضه إلى بعض، وقهر بعضه ببعض، وابتلاء بعضه ببعض، وامتحان خيره بشرّه وجعل شرّه لخيره الفداء.

ولهذا يُدفع إلى كلّ مؤمن يوم القيامة كافراً فيقال له: «هذا فداؤك من النار»^(١).

(١) أخرجه مسلم (٢٧٦٧)، بلفظ فكاك من النار، وأخرجه ابن ماجه بلفظ (٤٢٩٢).

وهكذا المؤمن في الدنيا يسَلِّط عليه من الابتلاء والامتحان والمصائب ما يكون فداءً من عذاب الله، وقد تكون تلك الأسباب فداءً له من شرور أكبر منها في العالم. أيضًا. فَلْيُعْطِ اللَّيْبُ هذا الموضع حقَّه من التدبر يتبين له حكمة اللطيف الخبير.

فصل

وقد تقرَّر أنَّ الله سبحانه كامل الصفات، له الأسماء الحسنى، ولا يكون عن الكامل في ذاته وصفاته إلا الفعل المحكم. وهو سبحانه خلق عباده على الفطرة، وكلُّ مولود فإِنَّمَا يُولَدُ على الفطرة التي فُطِرَ الخلاق عليها، ولكنَّ الآباء والكافرين للمولودين يخرجونهم عن الفطرة، ويعدِّلون بهم عنها، ولو تركوهم لما اختاروا عليها غيرها، ولكن أخرجوهم عن سَنَنِ الحنيفية وأفسدوا فطرهم وقلوبهم. وهكذا بالأضداد والأغيار يخرج بعض المخلوقات عن سَنَنِ الإتيان والحكمة، ولو لا تلك الأضداد والأغيار لكانت في مرتبتها كالمولود في فطرته، ولذلك أمثلة:

• **المثال الأول:** أنَّ الماء خلقه الله في الأصل طاهرًا مطهرًا، فلو تركَ على حالته التي خُلِقَ عليها ولم يخالطه ما يزيل طهارته لم يكن إلا طاهرًا، ولكن بمخالطته أضداده من الأنجاس والأقذار تغيرت أوصافه، وخرج عن الخلقة التي خلق عليها. فكانت تلك النجاسات والقاذورات بمنزلة أبوي الطفل وكافليه الذين يهودونه وينصرونه ويمجسونه ويشركونه. وكما أنَّ الماء إذا فسد بمخالطته الأنجاس والقاذورات لم يصلح للطهارة، فكذلك القلوب إذا فسدت فطرَّها بالأغيار لم تصلح لحظيرة القدس.

• **المثال الثاني:** الشراب المعتصر من العنب، فإنَّه طيب يصلح للدواء ولإصلاح الغذاء وللمنافع التي يصلح لها. ولو خُلِّيَ على حاله لم يكن إلا طاهرًا طيبًا، ولكن أفسد بتهيئته للسكر واتخاذ مسكرًا، فخرج بذلك عن خلقة التي خُلِقَ عليها من الطهارة والطيب، فصار أخبث شيء وأنجسه. فلو انقلبَ خلًّا، أو زال تغير الماء، كان بمنزلة رجوع الكافر إلى فطرته الأولى، فإنَّ الحكم إذا ثبت لعلَّة زال بزوالها.

• المثال الثالث: الأغذية الطيبة النافعة إذا خالطت باطن الحيوان واستقرت هناك خرجت عن حالتها التي خُلِقَتْ عليها، واكتسبت بهذه المخالطة والمجاورة خبثاً وفساداً لم يكن فيها، لسلوكها في غير طرقها التي بها كمالها.

وهذا القرآن المجيد عمدته ومقصوده الإخبار عن صفات الرب **جَلَّ جَلَالُهُ** وأسمائه وأفعاله وأنواع حمده والثناء عليه، والإنباء عن عظمته وعلائه وحكمته وإبداع صنعه، والتقدم إلى عبادته بأمره ونهيه على السنة رسله، وتصديقهم بما أقامه من الشواهد والدلالات على صدقهم وبراهين ذلك ودلائله، وتبيين مراده من ذلك كله. وكان من تمام ذلك الإخبار عن الكافرين والمكذّبين، وذكر ما أجابوا به رسلهم وقابلوا به رسالات ربهم، ووصف كفرهم وعنادهم وكيف كذبوا على الله، وكذبوا رسله، وردّوا أمره ونصائحه. وكان في اجتلاب ذلك من العلوم والمعارف والبيان وضوح شواهد الحق، وقيام أدلته، وتنوعها.

ونظير هذا اشتمال كلمة الإسلام -وهي شهادة أن لا إله إلا الله- على النفي والإثبات. فكان في الإتيان بالنفي في صدر هذه الكلمة من تقرير الإثبات، وتحقيق معنى الإلهية، وتجريد التوحيد الذي يُقصد بنفي الإلهية عن كل من ادعت فيه سوى الإله الحق **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**. فتجريد هذا التوحيد من العقد واللسان بتصور إثبات الإلهية لغير الله -كما قاله أعداؤه المشركون- ونفيه وإبطاله من القلب واللسان من تمام التوحيد وكماله، وتقريره، وظهور أعلامه، ووضوح شواهد، وصدق براهينه.

ونظير ذلك أيضاً أن تكذيب أعداء الرسل لهم وردّهم ما جاؤوهم به كان من الأسباب الموجبة ظهور براهين صدق الرسل، ودفع ما احتجّ به أعداؤهم عليهم من الشبه الداحضة، ودحض حججهم الباطلة، وتقرير طرق الرسالة، وإيضاح أدلتها. فإنّ الباطل كلّما ظهر فساد وبطلانه أسفر وجه الحق، واستنارت معالمه، ووضحت سبله، وتقررت براهينه. فكسر الباطل ودحض حججه وإقامة الدليل على بطلانه من

أدلة الحق وبراهينه.

فتأمل كيف اقتضى الحق وجود الباطل، وكيف تمّ ظهور الحق بوجود الباطل، وكيف كان كفر أعداء الرسل بهم وتكذيبهم لهم ودفعهم ما جاؤوا به هو من تمام صدق الرسل، وثبوت رسالات الله، وقيام حججه على العباد.

والمقصود أن خلق الأسباب المضادة للحق وإظهارها في مقابلة الحق من أبين دلائله وشواهد، فكان في خلقها من الحكمة ما لو فاتت لفاتت بها تلك الحكمة، وهي أحب إلى الله تعالى من تفويتها بتقدير تفويت هذه الأسباب. والله أعلم.

قاعدة

كمال العبد وصلاحه يتخلف عنه من أحد جهتين:

* إما أن تكون طبيعته يابسة قاسية غير ليّنة ولا منقادة ولا قابلة لما به كمالها وفلاحها.

* وإما أن تكون ليّنة منقادة سلسلة القياد، لكنّها غير ثابتة على ذلك، بل سريعة الانتقال عنه كثيرة التقلب.

فمتى رُزق العبد انقياداً للحق وثباتاً عليه فليُبشّر، فقد يُسرّ لكل خير، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

قاعدة [الابتلاء بين النعمة والنقمة]:

إذا ابتلى الله عبده بشيء من أنواع البلايا والمحن فإن ردّه ذلك الابتلاء والامتحان إلى ربّه، وجمعه عليه، وطرحه ببابه، فهو علامة سعادته وإرادة الخير به. والشدة بتراء لا دوام لها وإن طال، فتقلع عنه حين تقلع، وقد عوّض منها أجلّ عوض وأفضلّه، وهو رجوعه إلى الله بعد أن كان شاردًا عنه، وإقباله عليه بعد أن كان نائيًا عنه، وانظر أحه على بابه وقد كان عنه معرضًا، وللووقوف على أبواب غيره متعرّضًا.

وكانت البلية في حق هذا عين النعمة، وإن ساءت، وكرهها طبعه، ونفرت منها نفسه.

فربما كان مكروه النفوس إلى ** محبوبها سبباً ما مثله سبب

وقوله تعالى في ذلك هو الشفاء والعصمة: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وإن لم يرد ذلك البلاء إليه، بل شرد قلبه عنه، وردّه إلى الخلق، وأنساه ذكر ربّه، والضراعة إليه، والتذلّل بين يديه، والتوبة والرجوع إليه؛ فهو علامة شقاوته وإرادة الشرّ به. فهذا إذا ألق عن البلاء رده إلى حكم طبيعته، وسلطان شهوته، ومرحه وفرحه؛ فجاءت طبيعته عند القدرة بأنواع الأشر والبطر والإعراض عن شكر المنعم عليه بالسراء، كما أعرض عن ذكره والتضرّع إليه في الضراء. فبليّة هذا وبأل عليه وعقوبة ونقص في حقّه، وبليّة الأوّل تطهير له ورحمة وتكميل. وبالله التوفيق.

قاعدة في مشاهد الناس في المعاصي والذنوب:

الناس في البلوى التي تجري عليهم أحكامها بإرادتهم وشهواتهم متفاوتون - بحسب شهودهم لأسبابها وغايتها - أعظم تفاوت. وجماع ذلك ثمانية مشاهد^(١):

* أحدها: شهود السبب الموصل إليها، والغاية المطلوبة منها فقط. وهو شهود الحيوانات، إذ لا تشهد إلا طريق قضاء وطرها، وبرد النفس بعد تناولها. وهذا الضرب من الناس ليس بينه وبين الحيوان البهيم في ذلك فرق إلا تدقيق الحيلة في الوصول إليها، وربما زاد غيره من الحيوانات عليه في تناولها ولذته بها.

* المشهد الثاني: من يشهد مع ذلك مجرد الحكم القدري وجريانه عليه، ولا يتجاوز شهوده ذلك. وربما رأى أنّ الحقيقة هي توفية هذا المشهد حقّه.

(١) ذكر المؤلف منها سبعة فقط.

وربما زاد على ذلك أنه يشهد نفسه مطيعاً من وجه، وإن كان عاصياً من وجه آخر، فيقول: «أنا مطيع للإرادة والمشية، وإن كنت عاصياً للأمر».

وأصحاب المشهد الأول أقرب إلى السلامة من هؤلاء وخير منهم. وهذا المشهد بعينه هو المشهد الذي شهده المشركون عبّاد الأصنام، ووقفوا عنده، كما قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠].

*** المشهد الثالث: مشهد الفعل الكسبيّ القائم بالعبد فقط، ولا يشهد إلا صدوره عنه وقيامه به، ولا يشهد مع ذلك مشيئة الربّ له، ولا جريان حكمه القدريّ به، ولا عزّة الربّ تعالى في قضائه ونفوذ أمره. بل قد فني بشهود معصيته وذنبه وقبح ما اجترمه عن شهود المشيئة النافذة والقدر السابق، إمّا لعدم اتساع قلبه لشهود الأمرين، فقد امتلأ من شهود ذنبه وجرمه وفعله، مع أنّه مؤمن بقضاء الربّ وقدره، وأنّ العبد أقلّ قدراً من أن يُحدّث في نفسه ما لم يسبق به مشيئة بارئه وخالقه. وإمّا لإنكاره القضاء والقدر جملةً، وتنزيهه للربّ تعالى أن يُقدّر على العبد شيئاً ثمّ يلومه عليه.**

● فأما الأول وإن كان مشهده صحيحاً نافعاً له موجباً له أن لا يزال لائماً لنفسه، مزرئاً عليها، ناسباً للذنب والعيب إليها، معترفاً بأنّه يستحقّ العقوبة والنكال.

فهو لغيبته عن هذا المشهد، وغلبة شهود المعصية والكسب على قلبه، لا يعطي التوحيد حقّه، ولا الاستعانة برّبّه والاستغاثة به واللجأ إليه والافتقار والتضرع والابتهال حقّه.

● وأمّا الثاني -وهو منكر القضاء والقدر- فمخذول، محجوب عن شهود التوحيد، مصدود عن شهود الحكمة الإلهية، موكول إلى نفسه، ممنوع عن شهود عزّة الربّ تعالى في قضائه وكمال مشيئته ونفوذ حكمه، وعن شهود عجزه هو وفقره، وأنّه لا توفيق له إلا بالله، وأنّه إن لم يُعنه الله فهو مخذول، وإن لم يوفقه ويخلق له عزيمة الرشد وفعله فهو عنه ممنوع.

✽ **المشهد الرابع:** مشهد التوحيد والأمر، فيشهد انفراد الرب تعالى بالخلق، ونفوذ مشيئته، وتعلق الموجودات بأسرها بها، وجريان حكمه على الخليقة، وانتهاءها إلى ما سبق في علمه، وجري به قلمه. ويشهد مع ذلك أمره ونهيه وثوابه وعقابه، وارتباط الجزاء بالأعمال واقتضاءها له، ارتباط المسببات بأسبابها، التي جعلت أسباباً مقتضية له شرعاً وقدرًا وحكمة.

فشهوه توحيد الرب تعالى وانفراذه بالخلق ونفوذ مشيئته وجريان قضائه وقدره يفتح له باب الاستعانة به ودوام الالتجاء إليه والافتقار إليه. وذلك يُدنيه من عتبة العبودية، ويطرحه بالباب فقيرًا عاجزًا مسكينًا، لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا. وشهوه أمره تعالى ونهيه وثوابه وعقابه يُوجب له الجِدَّ والتشمير، وبذل الوسع، والقيام بالأمر، والرجوع على نفسه باللوم والاعتراف بالتقصير. فيكون سيره بين شهود العزة والحكمة والقدرة الكاملة والعلم السابق والمنّة العظيمة، وبين شهود التقصير والإساءة منه وتطلب عيوب نفسه وأعمالها. فهذا هو العبدُ الموفق المعان، الملطوف به، المصنوع له، الذي أقيم في مقام العبودية، وضمن له التوفيق.

• وهذا هو مشهد الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، فهو مشهد أبيهم آدم، إذ يقول: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

• ومشهد أول الرسل نوح، إذ يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

• ومشهد إمام الحنفاء وشيخ الأنبياء إبراهيم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إذ يقول: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ (٧٨) **وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ (٨١) **وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨-٨٢].****

وقال في دعائه: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ أَمِنًا وَاجْعَلْنِي وَبَنِيَّ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] فعَلِمَ ﷺ أَنَّ الذي يحول بين العبد وبين الشرك وعبادة الأصنام هو الله لا ربَّ غيره، فسأله أن يجعله وبنيه عبادة الأصنام.

• وهذا مشهد صاحب سيّد الاستغفار، حين يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»^(١).

○ فأقرّ بتوحيد الربوبية المتضمن لانفراده سبحانه بالخلق وعموم المشيئة ونفوذها، وتوحيد الإلهية المتضمن لمحبه وعبادته وحده لا شريك له، والاعتراف بالعبودية المتضمن للافتقار من جميع الوجوه إليه سبحانه.

○ ثمَّ قال: «وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ»، فتضمن ذلك التزام شرعه وأمره ودينه - وهو العهد الذي عهده إلى عباده - وتصديق وعده، وهو جزاؤه وثوابه. فتضمن التزام الأمر، والتصديق بالموعود، وهو الإيمان والاحتساب.

○ ثمَّ لمَّا علم أَنَّ العبد لا يوفي هذا المقام حقَّه الذي يصلح له تعالى علَّقَ ذلك باستطاعته وقدرته التي لا يتعدّاها، فقال: «مَا اسْتَطَعْتُ» أي ملتزم ذلك بحسب استطاعتي وقدرتي.

○ ثمَّ شهد المشهدين المذكورين، وهما مشهد القدرة والعزة. ومشهد التقصير من نفسه، فقال: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ»، فهذه الكلمة تضمنت المشهدين معًا.

○ ثمَّ أضاف النعم كلها إلى وليّها وأهلها والمبتدئ بها، والذنب إلى نفسه وعمله، فقال: «أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي». فأنت المحمود المشكور الذي

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٦).

له الثناء كله، والإحسان كله، ومنه النعم كلها. فلك الحمد كله، ولك الثناء كله، ولك الفضل كله، وأنا المذنب المسيء، المعترف بذنبه، المقر بخطئه.

○ ثم لما قام هذا بقلب الداعي وتوسل إليه بهذه الوسائل قال: «فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

فصل

ثم أصحاب هذا المشهد فيه قسمان:

■ أحدهما: من يشهد تسلط عدوه عليه، وقياده إياه بسلسلة الهوى، وكبحه إياه بلجام الشهوة. فهو أسير معه بحيث يسوقه إلى ضرب عنقه، وهو مع ذلك ملتفت إلى ربّه وناصره ووليّه، عالم بأنّ نجاته في يديه، وأنّ ناصية عدوه بيده، وأنّه لو شاء طرده عنه وخلّصه من يديه.

■ وفوقه مشهد أجلّ منه وأعظم وأخصّ، تجفو عنه العبارة، وإن أشارت إليه بعض الإشارة. وتقريبه إلى الفهم بضرب مثل يعبر منه إليه، وذلك مثل عبدٍ أخذه سيّده بيده، وقدمه ليضرب عنقه بيده، فهو قد أحكم ربطه، وشدّ عينيه، وقد أيقن العبد أنّه في قبضته، وأنّه هو قاتله لا غيره. وقد علم مع ذلك برّه به ولطفه، ورحمته ورأفته، وجوده وكرمه؛ فهو يناشده بأوصافه، ويدخل عليه به، قد ذهب عن وهمه وشهوده كلّ نسب، وانقطع تعلّقه بشيء سواه، فهو معرض عن عدوه الذي كان سبب غضب سيّده عليه، قد محا شهوده من قلبه، فهو مقصود النظر إلى سيّده وكونه في قبضته، ناظر إلى ما يصنعه به، منتظر منه ما يقتضيه عطفه وبرّه وكرمه.

ومثل الأول مثل عبدٍ أمسكه عدوّه وهو يخنقه للموت، وذلك العبد يشهد خنق عدوّه له، ويستغيث بسيّده، وسيّده يغيثه ويرحمه.

ولكنّ ما يحصل للثاني في مشهده ذلك من الأمور العجيبة فوق ما يحصل للأول، وهو بمنزلة من قد أخذه محبوبه، فهو يخنقه خنقةً، وهو لا يشهد إلّا خنقه له،

فهو يقول: اخنُقْ خنَفَكَ، فأنت تعلم أن قلبي يحبُّك!

فهذه ستّة مشاهد.

✽ **المشهد السابع:** مشهد الحكمة، وهو أن يشهد حكمة الله في تخليته بينه وبين الذنب، وإقداره عليه، وتهيئة أسبابه له، وأنّه لو شاء لعصمه وحال بينه وبينه، ولكنّه خلّى بينه وبينه لحكم عزيمة لا يعلم مجموعها إلا الله:

• أحدها: أنّه سبحانه يحب التوابين ويفرح بتوبتهم، فلمحبته للتوبة وفرحه بها قضى على عبده بالذنب.

• الثاني: تعريف العبد عزّة الرب تعالى في قضائه، ونفوذ مشيئته، وجريان حكمه.

• الثالث: تعريفه حاجته إلى حفظه وصيانته.

• الرابع: استجلابه من العبد استغاثته به، واستعاذته به من عدوّه وشرّ نفسه، ودعائه، والتضرع إليه، والابتهاال بين يديه.

• الخامس: إرادته من عبده تكميل مقام الذل والانكسار.

• السادس: تعريفه بحقيقة نفسه، وأنّها الظالمة الجاهلة.

• السابع: تعريفه عبده سعة حلمه تعالى وكرمه في ستره عليه.

• الثامن: تعريفه أنّه لا طريق إلى النجاة إلا بعفوه ومغفرته.

• التاسع: تعريفه كرمه في قبول توبته، ومغفرته له على ظلمه وإساءته.

• العاشر: إقامة الحجة على عبده، وأنّه له عليه الحجة البالغة، فإنّ عدّبه فبعده، وبيعض حقه عليه، بل اليسير منه.

• الحادي عشر: أن يعامل عباده في إساءتهم إليه وزلّاتهم معه بما يُحب أن يعامله

الله به.

- الثاني عشر: أن يقيم معاذير الخلائق.
- الثالث عشر: أن يخلع صولة الطاعة والإحسان من قلبه.
- الرابع عشر: أن يُعْرِيه من رداء العُجْب بعمله.
- الخامس عشر: أن يعْرِيه من لباس الإدلال الذي يصلح للملوك، ويُلبسه لباس الذل الذي لا يليق بالعبد سواه.
- السادس عشر: أن يستخرج من قلبه عبوديته بالخوف والخشية وتوابعهما من البكاء والإشفاق والندم.
- السابع عشر: أن يُعْرِفه مقدار نعمة معافاته، وفضله في توفيقه وعصمته.
- الثامن عشر: أن يستخرج منه محبته وشكره لرَبِّه إذا تابَ إليه ورجعَ إليه.
- التاسع عشر: أنَّه إذا شهد إساءته وظلمه، استكثر القليل من نعمة ربِّه.
- العشرون: أنَّه يوجب له التيقظ والحذر من مصايد العدو ومكايده.
- الحادي والعشرون: أنَّ مثل هذا ينتفع به المرضى، لمعرفة بأمراضهم ودوائها.
- الثاني والعشرون: أنَّه يرفع عنه حجاب الدعوى، ويفتح له طريق الفاقة.
- الثالث والعشرون: أن يكون في القلب أمراض مُزْمَنة لا يشعر بها، فيطلب دواءها، فيمنُّ عليه اللطيفُ الخبيرُ، ويقضي عليه بذنب ظاهر، فيجد ألمَ مرضه، فيحتمي، ويشرب الدواء النافع، فتزول تلك الأمراض التي لم يكن يشعر بها.
- الرابع والعشرون: أن يذيقه ألمَ الحجاب والبعد بارتكاب الذنب، ليكمل له نعمته وفرحه وسروره إذا أقبل بقلبه إليه، وجمعه عليه.
- الخامس والعشرون: امتحان العبد واختباره هل يصلح لعبوديته وولايته أم لا.

• السادس والعشرون: أنَّ الحكمة الإلهية اقتضت تركيب الشهوة والغضب في الإنسان، وفي ذلك حِكْمٌ عظيمة لصانعه تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فالذنبُ من موجبات البشرية، كما أنَّ النسيان من موجباتها، كما قال النبي ﷺ: «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»^(١)، ولا يتم الابتلاء والاختبار إلا بذلك.

• السابع والعشرون: أن يُنسيه رؤية طاعته، ويشغله برؤية ذنبه، فلا يزال نصب عينيه.

• الثامن والعشرون: أنَّ شهود ذنبه وخطيئته يُوجب له أن لا يرى له على أحد فضلاً، ولا له على أحد حقاً؛ فإنه يشهد عيب نفسه وخطأها وذنوبها فلا يظن أنه خير من مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر.

• التاسع والعشرون: أنه يُوجب له الإمساك عن عيوب الناس والفكر فيها، فإنه في شغل بعييه ونفسه.

• الثلاثون: أنه يُوجب له الإحسان إلى الناس، والاستغفار لإخوانه المؤمنين الخطائين.

• الحادي والثلاثون: أنه يوجب له سعة بطانه^(٢) وحلمه ومغفرته لمن أساء إليه.

قاعدة في الإنابة ودرجاتها:

كثيراً ما يتكرَّر في القرآن ذكر الإنابة والأمر بها كقوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾ [الزمر: ٥٤]، وقوله حكاية عن شعيب أنه قال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وقوله: ﴿تَبَصَّرْهُ وَذَكَرْهُ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، وأحمد في المسند (٢٧٦٣/٥).

(٢) البطان: حزام يُشد على البطن، وسعة البطنان كناية عن سعة الصدر.

إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿[الرعد: ٢٧]﴾ وقوله عن نبيِّه داود: ﴿وَحَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].

فالإِنبابة: الرجوع إلى الله، وانصراف دواعي القلب وجواذبه إليه. وهي تتضمن المحبة والخشية، فإنَّ المنيب محب لمن أناب إليه، خاضع له، خاشعٌ ذليلٌ.

والناس في إنباتهم على درجات متفاوتة:

■ فمنهم المنيب إلى الله بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي.

■ ومنهم المنيب إليه بالدخول في أنواع العبادات والقربات، فهو ساع فيها بجهده، وقد حُبَّبَ إليه فعلُ الطاعات وأنواع القربات. وهذه الإنبابة مصدرها الرجاء، ومطالعةُ الوعد والثواب، ومحبةُ الكرامة من الله.

■ ومنهم المنيب إلى الله بالتضرع، والدعاء، والافتقار إليه، والرغبة، وسؤال الحاجات كلها منه. ومصدر هذه الإنبابة: شهودُ الفضل، والمنَّة، والغنى، والكرم، والقدرة.

■ ومنهم المنيب إليه عند الشدائد والضراء فقط إنبابة اضطرار، لا إنبابة اختيار، كحال الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وهؤلاء كلهم قد تكون نفس أرواحهم ملتفتة عن الله سبحانه، معرضة عنه إلى مألوف طبيعي نفساني قد حال بينها وبين إنباتها بذاتها إلى معبودها وإلهها الحق، فهي ملتفتة إلى غيره، ولها إليه إنبابة ما بحسب إيمانها به، ومعرفتها له.

فأعلى أنواع الإنبابات: إنبابة الروح بجملتها إليه بشدة المحبة الخالصة المفنية لهم عمَّا سوى محبوبهم ومعبودهم. وحين أنابت إليه أرواحهم لم يتخلف منهم شيء عن الإنبابة، فإنَّ الأعضاء كلها رعيته، وملكها تبع للروح، فلمَّا أنابت الروح بذاتها إليه، إنبابة محبِّ صادق المحبة ليس فيه عرق ولا مفصل إلا وفيه حبٌّ ساكن

لمحجوبه، أنابت جميع القوى والجوارح.

وأما أصحاب الإنابات المتقدمة، فإن أناب أحدهم ساعة بالدعاء والذكر والابتغال، فلنفسه وروحه وقلبه وعقله التفات عمّن قد أناب إليه. فهو ينيب ببعضه ساعة، ثم يترك ذلك مقبلاً على دواعي نفسه وطبعه.

قاعدة في ذكر طريق قريب موصل إلى الاستقامة في الأحوال والأقوال والأعمال:

وهي شيئان:

* أحدهما: حراسة الخواطر وحفظها، والحذر كل الحذر من إهمالها والاسترسال معها. فإن قلت: فما الطريق إلى حفظ الخواطر؟ قلت: أسباب عدة:

• أحدها: العلم الجازم باطلاع الرب تعالى، ونظره إلى قلبك، وعلمه بتفصيل خواطرك.

• الثاني: حيائك منه.

• الثالث: إجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر في بيته الذي خلقه لمعرفته ومحبته.

• الرابع: خوفك منه أن تسقط من عينه بتلك الخواطر.

• الخامس: إثارك له أن يساكن قلبك غير محبته.

• السادس: خشيتك أن تتولد تلك الخواطر، ويستعر شرارها، فتأكل ما في القلب من الإيمان ومحبة الله.

• السابع: أن تعلم أن تلك الخواطر بمنزلة الحب الذي يلقي للطائر ليصاد به، فاعلم أن كل خاطر منها فهو حبة في فخ منصوب لصيدك، وأنت لا تشعر.

• **الثامن:** أن تعلم أن تلك الخواطر الرديئة لا تجتمع هي وخواطر الإيمان ودواعي المحبة والإنابة أصلاً، بل هي ضدّها من كل وجه، وما اجتمعاً في قلبٍ إلا وغلبَ أحدهما صاحبه، وأخرجه، واستوطن مكانه.

• **التاسع:** أن يُعلم أن تلك الخواطر بحر من بحور الخيال لا ساحل له، فإذا دخل القلبُ في غمراته غرق فيه، وتاه في ظلماته.

• **العاشر:** أن تلك الخواطر هي وادي الحمقى وأماني الجاهلين، فلا تثمر لصاحبها إلا الندامة والخزي.

كما أن هذا معلومٌ في الخواطر النفسانية، فهكذا الخواطر الإيمانية الرحمانية، هي أصل الخير كلّ. فإن أرض القلب متى بُدِرَ فيها خواطرُ الإيمان والخشية والمحبة والإنابة والتصديق بالوعد ورجاء الثواب، وسُقِيَتْ مرّةً بعد مرّةٍ، وتعاهد بها صاحبها بحفظها ومراعاتها والقيام عليها، أثمرت له كلّ فعل جميل، وملاّت قلبه من الخيرات، واستعملت جوارحه في الطاعات واستقرّ بها الملك في سلطانه، واستقامت له رعيته.

* **الثاني:** صدق التأهب للقاء الله عزّ وجلّ. وهذا من أنفع ما للعبد وأبلغه في حصول استقامته. فإن من استعدَّ للقاء الله انقطع قلبه عن الدنيا ومطالبها، وخمدت من نفسه نيران الشهوات، وأخبت قلبه إلى ربّه تعالى، وعكفت همته على الله وعلى محبته وإيثار مرضاته. واستحدث همّةً أخرى وعلوماً آخر، وولد ولادةً أخرى تكون نسبة قلبه فيها إلى الدار الآخرة كنسبة جسمه إلى هذه الدار بعد أن كان في بطن أمّه، فيولد قلبه ولادةً حقيقية، كما ولد جسمه حقيقة. وكما كان بطن أمه حجاباً لجسمه عن هذه الدار، فهكذا نفسه وهواه حجاب لقلبه عن الدار الآخرة، فخروج قلبه عن نفسه بارزاً إلى الدار الآخرة كخروج جسمه عن بطن أمه بارزاً إلى هذه الدار. وهذا معنى ما يذكر عن المسيح صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «يا بني إسرائيل، إنكم لن تلجوا ملكوت السماء حتّى تولدوا مرّتين».

والمقصود أن صدق التأهب للقاء الله هو مفتاح جميع الأعمال الصالحة، والأحوال الإيمانية، ومقامات السالكين إلى الله ومنازل السائرين إليه، من اليقظة والتوبة والإنابة والمحبة والرجاء والخشية والتفويض والتسليم وسائر أعمال القلوب والجوارح. فمفتاح ذلك كله صدق التأهب والاستعداد للقاء الله، والمفتاح بيد الفتاح العليم، لا إله غيره، ولا رب سواه.

قاعدة شريفة [الطريق إلى الله واحد]:

الناس قسمان: عليّة، وسفلة،

• فالعليّة: من عرف الطريق إلى ربّه، وسلكها قاصداً للوصول إليه، وهذا هو الكريم على ربّه.

• والسفلة: من لم يعرف الطريق إلى ربّه، ولم يتعرفها، فهذا هو اللئيم الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

والطريق إلى الله في الحقيقة واحد لا تعدّد فيه، وهو صراطه المستقيم الذي نصبه موصلاً لمن سلكه إليه، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. فوحد سبيله لأنّه في نفسه واحد لا تعدّد فيه، وجمع السبل المخالفة لأنّها كثيرة متعدّدة، كما ثبت عن النبي ﷺ أنّه خطّ خطاً، ثمّ قال: «هذا سبيل الله». ثمّ خطّ خطوطاً عن يمينه وعن يساره، ثمّ قال: «هذه سبل، على كلّ سبيل منها شيطانٌ يدعو إليه»، ثمّ قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾^(١) [الأنعام: ١٥٣].

ومن هذا قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُوهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٩٥٨)، والبخاري (١٦٧٧)، وابن حبان (٦)، والدارمي (٢٠٨).

فوحّد النورَ الذي هو سبيله، وجمع الظلمات التي هي سُبُل الشيطان.

وأما ما يقع في كلام بعض العلماء أنَّ الطرق إلى الله متعددة متنوعة، جعلها الله كذلك لتنوع الاستعدادات واختلافها، رحمةً منه وفضلاً فهو صحيح لا ينافي ما ذكرناه من وحدة الطريق.

وكشف ذلك وإيضاحه أنَّ الطريقَ واحدة جامعة لكلِّ ما يرضي الله. وما يرضيه سبحانه متعدّدٌ متنوعٌ، فجميعُ ما يُرضيه طريق واحد، ومراضيه متعددة متنوعة بحسب الأزمان والأماكن والأشخاص والأحوال، فكلُّها طرق مرضاته. فهذه هي التي جعلها الله سبحانه برحمته وحكمته كثيرةً متنوعةً جدًّا لاختلاف استعدادات العباد وقوابلهم. ولو جعلها نوعاً واحداً مع اختلاف الأذهان والعقول وقوّة الاستعدادات وضعفها لم يسلكها إلا واحدٌ بعد واحدٍ. ولكن لما اختلفت الاستعدادات تنوعت الطرق ليسلك كلٌّ امرئٍ إلى ربّه طريقاً يقتضيها استعدادُه وقوّته وقبولُه.

ومن هنا يُعلَم تنوعُ الشرائع واختلافُها مع رجوعها كلّها إلى دينٍ واحد، بل تنوعُ الشريعة الواحدة، مع وحدة المعبود ودينه. ومنه الحديث المشهور: «الأنبياءُ أولادُ عَلاّت، دينُهُم واحد»^(١). فأولادُ العَلاّت أن يكون الأبُّ واحداً والأمّهاتُ متعدّدة، فشبهَ دينَ الأنبياءِ بالأب الواحد، وشرائعهم بالأمّهاتِ المتعددة. فإنّها وإن تعددت فمرجعها كلها إلى أب واحد.

■ وإذا علِمَ هذا فمن الناس من يكون سيّد عمله وطريقه الذي تعبّد بسلوكه إلى الله طريق العلم والتعليم، وقد وفّر عليه زمانه مبتغيّاً به وجه الله.

■ ومن الناس من يكون سيّد عمله الذكر، وقد جعله زاده لمعاده، ورأس ماله لماله، فمتى فتر عنه أو قصّر فيه رأى أنّه قد غُبن وخسر.

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥).

■ ومن الناس من يكون سيّد عمله وطريقه الصلاة، فمتى قصّر في ورده منها، أو مضى عليه وقت، وهو غير مشغول بها أو مستعدّ لها، أظلم عليه وقته، وضاق صدره.

■ ومن الناس من يكون طريقه الإحسان والنفع المتعدّي، كقضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وأنواع الصدقات، قد فتح له في هذا، وسلك منه طريقاً إلى ربّه.

■ ومن الناس من يكون طريقه تلاوة القرآن، فهي الغالب على أوقاته، وهي أعظم أوراده.

■ ومنهم من يكون طريقه الصوم فهو متى أفطر تغيّر عليه قلبه، وساءت حاله.

■ ومنهم من يكون طريقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قد فُتح له فيه، ونفذ منه إلى ربّه.

■ ومنهم من يكون طريقه الذي نفذ فيه الحجّ والاعتماد.

■ ومنهم من يكون طريقه قطع العلائق، وتجريد الهمة، ودوام المراقبة، ومراعاة الخواطر، وحفظ الأوقات أن تذهب ضائعة.

■ ومنهم الجامع الفذّ، السالك إلى الله في كلّ واد، الواصل إليه من كلّ طريق. فهو قد جعل وظائف عبوديته قبلة قلبه ونصب عينه، يؤمّها أين كانت، ويسير معها حيث سارت، قد ضرب مع كلّ فريق بسهم. فأين كانت العبودية وجدته هناك:

فهذا هو العبد السالك إلى ربّه، النافذ إليه حقيقة.

فطوبى لمن أقبل على الله بكلّيته، وعكف عليه بإرادته ومحبته، فإن الله يقبل عليه بتوليّه ومحبته وعطفه ورحمته. وإنّ الله سبحانه إذا أقبل على عبد استنارت جهاته، وأشرقت ساحتها، وتنورت ظلماتها، وظهرت عليه آثار إقباله من بهجة الجلال وآثار

الجمال، وتوجّه إليه أهل الملائكة الأعلى بالمحبة والمواودة لأنّهم تبع لمولاهم. فإذا أحب عبداً أحبوه، وإذا والى ولياً وآلوه. «إذا أحبَّ الله العبد نادى: يا جبريلُ إنِّي أحبُّ فلاناً فأحبّه، فينادي جبريل في السماء: إنّ الله يحب فلاناً فأحبّه. فيحبه أهل السماء ثمّ يحبه أهل الأرض، فيوضع له القبول بينهم»^(١)، ويجعل الله قلوب أوليائه تفتد إليه بالودّ والمحبة والرحمة. وناهيك بمن يتوجّه إليه مالك الملك ذو الجلال والإكرام بمحبته، ويقبل عليه بأنواع كرامته، ويلحظه الملائكة الأعلى وأهل الأرض بالتبجيل والتكريم. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

قاعدة [السير إلى الله لا يتم إلا بقوتين: علمية وعملية]:

السائر إلى الله والدار الآخرة، بل كلّ سائرٍ إلى مقصد، لا يتم سيره ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين: قوّة علمية، وقوّة عملية.

* فبالقوّة العلمية يبصر منازل الطريق ومواقع السلوك، فيقصدها سائراً فيها، ويجتنب أسباب الهلاك، ومواقع العطب، وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل.

* وبالقوّة العملية يسير حقيقةً، بل السير هو حقيقة القوّة العملية، فإنّ السير هو عمل المسافرين. وكذلك السائر إلى ربّه إذا أبصر الطريق وأعلامها، وأبصر المعائر والوهاد والطرق الناكبة عنها، فقد حصل له شطر السعادة والفلاح. وبقي عليه الشطر الآخر، وهو أن يضع عصاه على عاتقه، ويشمّر مسافراً في الطريق، قاطعاً منازلها منزلةً بعد منزلة. فكلماً قطع مرحلة استعدّ لقطع الأخرى، واستشعر القرب من المنزل، فهان عليه مشقة السفر.

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٩) ومسلم (٢٦٣٧).

فصل

• فمن النَّاسِ من تكون له القوة العلمية الكاشفة عن الطريق ومنازلها وأعلامها وعوارضها ومعاثرها، وتكون هذه القوَّة أغلب القوَّتين عليه، ويكون ضعيفاً في القوَّة العملية. يبصر الحقائق ولا يعمل بموجبها، ويرى المتالف والمخاوف والمعاطب ولا يتوقَّأها. فهو فقيه ما لم يحضر العمل، فإذا حضر العمل شارك الجُهَّال في التخلف، وفارقهم في العلم. وهذا هو الغالب على أكثر النفوس المشتغلة بالعلم، والمعصوم من عصمه الله، فلا قوَّة إلا بالله.

• ومن النَّاسِ من تكون له القوة العملية الإرادية، وتكون أغلب القوتين عليه. وتقتضي هذه القوة السير والسلوك، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، والجِدِّ والتشمير في العمل، ويكون أعمى البصر عند ورود الشبهات في العقائد، والانحرافات في الأعمال والأحوال والمقامات، كما كان الأوَّل ضعيف العقل عند ورود الشهوات. فداءً هذا من جهله، وداء الأوَّل من فساد إرادته وضعف عقله.

وهذا حال أكثر أرباب الفقر والتصوف السالكين على غير طريق العلم، بل على طريق الذوق والوجد والعادة.

فمن كانت له هاتان القوتان استقام له سيره إلى الله تعالى، ورجي له النفوذ، وقوي على رد القواطع والموانع بحول الله وقوته.

والوقت هو - كما قيل - سيفٌ، فإن قطعته وإلا قطعك. فإذا كان السير ضعيفاً، والهمة ضعيفة، والعلم بالطريق ضعيفاً، والقواطع الخارجة والداخلية كثيرة شديدة فإنَّه جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء؛ إلا أن يتدارك الله برحمته منه من حيث لا يحتسب: يأخذ بيده، ويخلصه من أيدي القواطع. والله ولي التوفيق.

قاعدة نافعة [أقسام العباد في سفرهم إلى ربهم]:

العبد من حين استقرَّت قدمه في هذه الدار فهو مسافر إلى ربِّه، ومدة سفره هي

عمره الذي كتب له. فالعمر هو مدّة سفر الإنسان في هذه الدار إلى ربّه تعالى، ثمّ قد جعلت الأيام والليالي مراحل لسفره، فكلّ يوم و ليلة مرحلة من المراحل، فلا يزال يطويها مرحلة بعد مرحلة حتّى ينتهي السفر.

فالكيّس الفطن هو الذي يجعل كل مرحلة نصب عينيه، فيهتم بقطعها سالمًا غانمًا، فإذا قطعها جعل الأخرى نصب عينيه. ولا يطول عليه الأمد، فيقسو قلبه، ويمتد أمله، ويحضره التسويفُ والوعد والتأخير والمطل؛ بل يعدّ عمره تلك المرحلة الواحدة، فيجتهد في قطعها بخير ما بحضرته، فإنّه إذا تيقن قصرها وسرعة انقضائها هان عليه العمل، وطوّعت له نفسه الانقياد إلى التزود؛ فإذا استقبل المرحلة الأخرى من عمره استقبلها كذلك، فلا يزال هذا دأبه حتّى يطوي مراحل عمره كلّها، فيحمد سعيه، ويبتهج بما أعدّه ليوم فاقته وحاجته، فإذا طلع صبح الآخرة، وانقشع ظلام الدنيا، فحينئذٍ يحمد سُرا، وينجلي عنه كراه. فما أحسن ما يستقبل يومه، وقد لاح صباؤه، واستبان فلاؤه!

ثمّ النَّاسُ في قطع هذه المراحل قسمان:

* فقسم قطعوها مسافرين فيها إلى دار الشقاء، فكلّما قطعوا مرحلة منها قربوا من تلك الدار، وبعثوا عن ربهم وعن دار كرامته. فقطعوا تلك المراحل بمساخط الرب ومعاداته، ومعاداة رسله وأوليائه ودينه، والسعي في إطفاء نوره، وإبطال دعوته -دعوة الحق- وإقامة دعوة غيرها.

* القسم الثاني: قطعوا تلك المراحل سائرين فيها إلى الله وإلى دار السلام.

وهم ثلاثة أقسام: ظالمٌ لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله. وهؤلاء كلهم مستعدون للسير موقنون بالرجع إلى الله، ولكن متفاوتون في التزود وتعبئة الزاد واختياره، وفي نفس السير وسرعته وبطئه.

• فالظالم لنفسه: مقصر في الزاد غير آخذٍ منه ما يبلغه المنزل، لا في قدره ولا في

صفته؛ بل مفرط في زاده الذي ينبغي له أن يتزوده، ومع ذلك فهو متزود ما يتأذى به في طريقه، ويجد غيباً إذاه إذا وصل المنزل بحسب ما تزود من ذلك المؤذي الضار.

● **والمقتصد:** اقتصر من الزاد على ما يبلغه، ولم يشدّ مع ذلك أحمال التجارة الرابحة، ولم يتزود ما يضره، فهو سالم- غانم، لكن فاتته المتاجر الرباحية، وأنواع المكاسب الفاخرة.

● **والسابق بالخيرات:** همّه في تحصيل الأرباح، وشدّ أحمال التجارات، لعلمه بمقدار الربح الحاصل. فيرى خسراناً أن يدخر شيئاً ممّا بيده، ولا يتجر فيه، فيجد ربحه يوم يغتبط التجار بأرباح تجارتهم. فهو كرجل قد علم أنّ أمامه بلدة يكسب الدرهم فيها عشرة إلى سبعمائة وأكثر، وعنده حاصل، وله خبرة بطريق ذلك البلد، وخبرة بالتجارة، فهو لو أمكنه بيع ثيابه وكلّ ما يملك حتّى يهيئ به تجارة إلى ذلك البلد لفعل. فهكذا حال السابق بالخيرات بإذن ربّه يرى خسراناً بيناً أن يمرّ عليه وقت في غير متجر.

فنذكر بعون الله وفضله نبذة من متاجر الأقسام الثلاثة ليعلم العبد من أي التجار هو:

■ **فأما الظالم لنفسه:** فإنّه إذا استقبل مرحلة يومه وليلته استقبلها وقد سبقت حظوظه وشهواته إلى قلبه، فحرّكت جوارحه طالبة لها ساعة فيها. فإذا زاحمتها حقوق ربّه فتارةً وتارةً: فمرة يأخذ بالرخصة، ومرة بالعزيمة، ومرة يقدم على الذنب وترك الحقّ تهاوناً ووعداً بالتوبة. فهذا حال الظالم لنفسه، مع حفظ التوحيد، والإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، والتصديق بالثواب والعقاب. فمرحلة هذا مقطوعة بالربح والخسران، وهو للأغلب منهما. فإذا ورد القيامة ميّز ربحه من خسارانه، وحُصّل ربحه وحده، وخسارته وحده، وكان الحكم للرّاجح منهما. وحكم الله عزّ وجلّ من وراء ذلك، لا يعدم عباده منه فضله وعدله.

وهذا الظالم لنفسه ليس من أصحاب اليمين عند الإطلاق، وإن كان مآله إلى

أصحاب اليمين، كما أنه لا يسمّى مؤمناً عند الإطلاق وإن كان مصيره ومآله مصير المؤمنين بعد أخذ الحق منه.

وظلم النفس نوعان:

○ نوعٌ لا يبقى معه شيء من الإيمان والولاية والاصطفاء، وهو ظلمها بالشرك والكفر.

○ ونوع يبقى معه حصّة من الإيمان والاصطفاء والولاية، وهو ظلمها بالمعاصي، وهو درجات متفاوتة في القدر والوصف.

■ وأما المقتصدون: فأدوا وظيفة تلك المرحلة، ولم يزيدوا عليها، ولم ينقصوا منها. فلا حصلوا على أرباح التجار، ولا بخسوا الحق الذي عليهم.

فإذا استقبل أحدهم مرحلة يومه استقبلها بالطهور التام والصلاة التامة في وقتها، بأركانها وواجباتها وشرائطها؛ ثم ينصرف منها إلى مباحاته ومعيشته وتصرفاته التي أذن الله له فيها مشغلاً بها، قائماً بأعبائها، مؤدياً واجب الرب فيها، غير متفرغ لنوافل العبادات وأوراد الأذكار والتوجه.

فإذا حضرت الفريضة الأخرى بادر إليها كذلك، فإذا أكملها انصرف إلى حاله الأول، فهو كذلك سائر يومه.

فإذا جاء الليل فكذلك إلى حين النوم، يأخذ مضجعه حتى ينشق الفجر، فيقوم إلى عَدَّانِه^(١) ووظيفته. فإذا جاء الصوم الواجب قام بحقه، وكذلك الزكاة الواجبة، والحج الواجب. وكذلك المعاملة مع الخلق، يقوم فيها بالقسط، لا يظلمهم، ولا يترك حقه لهم.

■ وأما السابقون بالخيرات فهم نوعان: أبرار ومقرَّبون. وهؤلاء الأصناف

(١) يُقال: كان ذلك على عَدَّانِ فلانٍ وعَدَّانِ فلانٍ، أي: على عهدِهِ.

الثلاثة هم أهل اليمين، وهم المقتصدون، والأبرار، والمقربون.

أَمَّا الْأَشْقِيَاءُ: ففقطعوا تلك المراحل سائرين إلى دار الشقاء متزوِّدين غضبَ الربِّ سبحانه، ومعاداةَ كتبه ورسله وما بُعثوا به، ومعاداةَ أوليائه والصدِّ عن سبيله، ومحاربةَ من يدعو إلى دينه، ومقاتلةَ الذين يأمرُونَ بالقسطِ مِنَ النَّاسِ، وإقامةَ دعوةٍ غير دعوة الله سبحانه التي بَعَثَ بها رسَلَه لتكون الدعوة له وحده. فقطع هؤلاء الْأَشْقِيَاءُ مراحل أعمارهم في ضِدِّ ما يحبه ويرضاه.

وَأَمَّا السَّائِرُونَ إِلَيْهِ: فظالمهم قطع مراحل عمره في غفلاته وإثارة شهواته ولذَّاته علىٰ مرضي الربِّ وأوامره، مع إيمانه بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، لكن نفسه مغلوبة معه، مأسور مع حظِّه وهواه، يعلم سوءَ حاله، ويعترف بتفريطه، ويعزم علىٰ الرجوع إلى الله. فهذا حال المؤمن المسلم.

وَأَمَّا مَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا: وهو غير معترفٍ ولا مقرٍّ ولا عازمٍ علىٰ الرجوع إلى الله والإِنابة إليه أصلاً، فهذا لا يكاد إسلامه أن يكون صحيحاً أبداً، ولا يكون هذا إلا منسلخ القلب من الإيمان، ونعوذ بالله من الخذلان.

وَأَمَّا الْأَبْرَارُ الْمُقْتَصِدُونَ: فقطعوا مراحل سفرهم بالاهتمام بإقامة أمر الله، وعقد القلب علىٰ ترك مخالفته ومعاصيه، فهمُّهم مصروفة إلى القيام بالأعمال الصالحة واجتناب الأعمال القبيحة.

فَأَوَّلُ مَا يَسْتَيْقِظُ أَحَدُهُمْ مِنْ مَنَامِهِ يَسْبِقُ إِلَىٰ قَلْبِهِ الْقِيَامُ إِلَىٰ الْوُضوءِ وَالصَّلَاةِ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ. فَإِذَا أَدَّى فَرَضَ وَقْتِهِ اشْتَغَلَ بِالتَّلَاوَةِ وَالْأَذْكَارِ إِلَىٰ حِينَ تَطْلُعَ الشَّمْسُ، فَرَكَعَ الضَّحَىٰ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ مَا أَقَامَهُ اللَّهُ فِيهِ مِنَ الْأَسْبَابِ.

فَإِذَا حَضَرَ فَرَضُ الظُّهْرِ بَادَرَ إِلَىٰ التَّطَهُّرِ وَالسَّعْيِ إِلَىٰ الصَّفِّ الْأَوَّلِ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَأَدَّى فَرِيضَتَهُ كَمَا أَمَرَ مَكْمَلًا لَهَا بِشَرَائِطِهَا وَأَرْكَانِهَا وَسُنَنِهَا وَحَقَائِقِهَا الْبَاطِنَةِ مِنَ الْخُشُوعِ وَالْمُرَاقَبَةِ وَالْحُضُورِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ.

فينصرف من الصلاة وقد أثرت في قلبه وبدنه وسائر أحواله آثاراً تبدو على صفحاته ولسانه وجوارحه. ويجد ثمرتها في قلبه من الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور، وقلة التكالب والحرص على الدنيا وعاجلها. قد نهته صلاته عن الفحشاء والمنكر، وحَبَّبَتْ إليه لقاء الله، ونفَّرتَه من كلِّ قاطع يقطعه عن الله. فهو مغموم مهموم، كأنه في سجن، حتَّى تحضر الصلاة، فإذا حضرت قام إلى نعيمه وسروره وقرّة عينه وحياة قلبه، فهو لا تطيب له الحياة إلا بالصلاة.

هذا، وهم في ذلك كلّهم مراعون لحفظ السنن لا يُخلّون منها بشيء ما أمكنهم. فيقصدون من الوضوء أكمله، ومن الوقت أوّله، ومن الصفوف أوّلها عن يمين الإمام أو خلف ظهره.

ويأتون بعد الفريضة بالأذكار المشروعة كالاستغفار ثلاثاً، وقول: «اللّهم أنت السّلام، ومنك السّلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام»^(١)، وقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كلّ شيء قدير. اللّهم لا مانع لما أعطيت، ولا مُعطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ، لا إله إلا الله، ولا نعبُدُ إلا إيّاه، له النّعمة وله الفضل وله الثّناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدّين ولو كره الكافرون»^(٢).

ثمَّ يسبّحون ويحمدون ويكبرون تسعاً وتسعين، ويختمون المائة بـ«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كلّ شيء قدير»^(٣).

ومن أراد المزيد قرأ آية الكرسيّ والمعوذتين عقيب كلّ صلاة، فإنّ فيهما

(١) أخرجه مسلم (٥٩١).

(٢) أخرجه مسلم (٥٩٤) عن ابن الزبير موقوفاً. وأخرجه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣) عن المغيرة بن شعبه مرفوعاً مختصراً.

(٣) أخرجه مسلم (٥٩٧).

أحاديث رواها النسائي^(١) وغيره، ثم يركعون السنّة على أحسن الوجوه.

هذا دأبهم في كلّ فريضة.

فإذا كان قبل غروب الشمس توقّفوا على أذكار المساء الواردة في السنّة نظير أذكار الصباح الواردة في أوّل النهار، لا يُخلّون بها أبداً. فإذا جاء الليل كانوا فيه على منازلهم من مواهب الربّ تعالى التي قسمها بين عباده.

فإذا أخذوا مضاجعهم أتوا بأذكار النوم الواردة في السنّة، وهي كثيرة تبلغ نحواً من أربعين، فيأتون منها بما علموه وما يقدرون عليه من قراءة سورة الإخلاص والعمودتين ثلاثاً، ثمّ يمسحون بها رؤوسهم ووجوههم وأجسادهم ثلاثاً، ويقرؤون آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة، ويسبّحون ثلاثاً وثلاثين، ويحمدون ثلاثاً وثلاثين، ويكبرون أربعاً وثلاثين. ثمّ يقول أحدهم: «اللّهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجّهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك. آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت»^(٢).

وإن شاء قال: «باسمك ربّي وضعت جنبي وبك أرفعه، فإن أمسكت نفسي فاغفر لها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»^(٣).

وإن شاء قال: «اللّهم ربّ السماوات السبع وربّ العرش العظيم، ربّي وربّ كلّ شيء، فالق الحبّ والنوى، مُنزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شرّ كلّ دابة أنت آخذٌ بناصيتها. أنت الأوّل فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عني الدين،

(١) سنن النسائي (١٣٦٦)، وسنن النسائي الكبرى (٩٨٤٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٧، ٦٣١١، ٦٣١٣)، ومسلم (٢٧١٠).

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٢٠، ٧٣٩٣)، ومسلم (٢٧١٤).

وأغنيني من الفقر»^(١).

وبالجملة، فلا يزال يذكر الله على فراشه حتى يغلبه النوم وهو يذكر الله. فهذا منامه عبادة، وزيادة له في قربه من الله. فإذا استيقظ عاد إلى عدّانه الأوّل. ومع هذا فهو قائمٌ بحقوق العباد من عيادة المرضى، وتشجيع الجنائز، وإجابة الدعوة، والمعاونة لهم بالجاء والبدن والنفس والمال، وزيارتهم، وتفقدهم؛ وقائمٌ بحقوق أهله وعياله. فهو متنقّل في منازل العبوديّة كيف نقله فيها الأمر. فإذا وقع منه تفريط في حقٍّ من حقوق الله بادر إلى الاعتذار والتوبة والاستغفار، ومحوه ومداواته بعمل صالح يُزيل أثره. فهذا وظيفته دائماً.

وأما السابقون المقربون: فنستغفر الله الذي لا إله إلا هو أولاً من وصف حالهم وعدم الاتّصاف به، بل ما شِمنّا له رائحةً، ولكن محبة القوم تحمل على تعرّف منزلتهم والعلم بها. وإن كانت النفوس متخلفةً منقطعةً عن اللحاق بهم، ففي معرفة حال القوم فوائد عديدة:

- منها: أن لا يزال المتخلّف المسكين مُزريّاً على نفسه، ذامّاً لها، لاثماً لها.
- ومنها: أنّه لا يزال منكسر القلب بين يدي ربه، ذليلاً له حقيراً، ويشهد منازل السابقين وهو في زمرة المنقطعين، ويشهد بضائع التجار وهو في رفقة المحرومين.
- ومنها: أنّه عساه أن تنهض همّته يوماً ما إلى التّشبّث والتعلّق بساقة القوم ولو من بعيد.

وجملة أمرهم أنّهم قوم قد امتلأت قلوبهم من معرفة الله، وعُمرت بمحبّته وخشيته وإجلاله ومراقبته، فسرت المحبة في أجزائهم، فلم يبق فيها عرق ولا مفصل إلا وقد دخله الحبّ. قد أنساهم حبه ذكر غيره، وأوحشهم أنسهم به ممّن سواه. قد فنّوا بحبه عن

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣).

حَبَّ مَنْ سِوَاهُ، وَبَذَرَهُ عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَاهُ، وَبِخَوْفِهِ، وَرَجَائِهِ، وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ، وَالرَّهْبَةِ مِنْهُ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَالْإِنَابَةَ إِلَيْهِ، وَالسَّكُونِ إِلَيْهِ، وَالتَّذَلُّلَ وَالْانْكَسَارَ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ عَنْ تَعَلُّقِ ذَلِكَ مِنْهُمْ بغيره.

فَإِذَا وَضَعَ أَحَدُهُمْ جَنْبَهُ عَلَى مُضْجِعِهِ صَعَدَتْ أَنْفَاسُهُ إِلَى إِلَهِهِ وَمَوْلَاهُ، وَاجْتَمَعَ هَمُّهُ عَلَيْهِ، مَتَذَكَّرًا صِفَاتِهِ الْعُلَى وَأَسْمَاءَهُ الْحُسْنَى، مُشَاهِدًا لَهُ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، قَدْ تَجَلَّتْ عَلَى قَلْبِهِ أَنْوَارُهَا، فَانْصَبَغَ قَلْبُهُ بِمَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ، فَبَاتَ جِسْمُهُ فِي فَرَاشِهِ يَتَجَافَى عَنْ مُضْجِعِهِ، وَقَلْبُهُ قَدْ أَوَى إِلَى مَوْلَاهُ وَحَبِيبِهِ، فَأَوَاهُ إِلَيْهِ، وَأَسْجَدَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ خَاضِعًا خَاشِعًا ذَلِيلًا مُنْكَسِرًا مِنْ كُلِّ جِهَةٍ مِنْ جِهَاتِهِ. فَيَا لَهَا سَجْدَةً مَا أَشْرَفَهَا مِنْ سَجْدَةٍ، لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ مِنْهَا إِلَى يَوْمِ اللَّقَاءِ!

وَقِيلَ لِبَعْضِ الْعَارِفِينَ: أَيْسَجِدُ الْقَلْبَ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّهِ؟ فَقَالَ: «إِي وَاللَّهِ، سَجْدَةً لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ مِنْهَا إِلَى الْقِيَامَةِ!».

فَإِذَا اسْتَيْقِظَ هَذَا الْقَلْبُ مِنْ مَنَامِهِ صَعَدَ إِلَى اللَّهِ بِهِمَّةٍ وَحَبَّةٍ وَأَشْوَاقِهِ مُشْتَاقًا إِلَيْهِ، طَالِبًا لَهُ، مُحِبًّا لَهُ، عَاكِفًا عَلَيْهِ. فَحَالُهُ كَحَالِ الْمَحَبِّ الَّذِي غَابَ عَنْ مَحْبُوبِهِ الَّذِي لَا غِنَى لَهُ عَنْهُ، وَلَا بَدَلَ لَهُ مِنْهُ، وَضُرُورَتُهُ إِلَيْهِ أَعْظَمُ مِنْ ضُرُورَتِهِ إِلَى التَّنَفُّسِ وَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ. فَإِذَا نَامَ غَابَ عَنْهُ، فَإِذَا اسْتَيْقِظَ عَادَ إِلَى الْحَنِينِ إِلَيْهِ، وَإِلَى الشَّوْقِ الشَّدِيدِ وَالْحُبِّ الْمَقْلُوقِ، فَحَبِيبُهُ آخِرُ خَطَرَاتِهِ عِنْدَ مَنَامِهِ، وَأَوَّلُهَا عِنْدَ اسْتَيْقَازِهِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْمُحِبِّينَ لِمَحْبُوبَتِهِ:

آخِرُ شَيْءٍ أَنْتِ فِي كُلِّ هَجْعَةٍ * * * وَأَوَّلُ شَيْءٍ أَنْتِ عِنْدَ هُبُوبِي؟

فَصْلٌ

* فَإِذَا اسْتَيْقِظَ أَحَدُهُمْ، وَقَدْ بَدَرَ إِلَى قَلْبِهِ هَذَا الشَّأْنُ، فَأَوَّلُ مَا يَجْرِي عَلَى لِسَانِهِ ذِكْرُ مَحْبُوبِهِ، وَالتَّوَجُّعُ إِلَيْهِ، وَاسْتِعْطَافُهُ، وَالتَّمَلُّقُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالِاسْتِعَانَةُ بِهِ أَنْ يَخْلِيَ بَيْنَهُ

وبين نفسه، وأن لا يكلِّه إليها، فيكلِّه إلى ضَيْعَةٍ وعجز وذنْب وخطيئة، بل يكلِّه^(١) كلاءة الوليد الذي لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

* فأول ما يبدأ به قول: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»^(٢)، متدبرًا لمعناها من ذكرِ نعمة الله عليه بأن أحياه بعد نومه الذي هو أخو الموت، وأعادته إلى حاله سويًّا سليمًا محفوظًا مما لا يعلمه ولا يخطر بباله من المؤذيات والمهلكات التي هو غرضٌ وهدف لسهامها، كُلُّها تقصده بالهلاك أو الأذى، والتي من بعضها أرواح شياطين الإنس والجن، فإنَّها تلتقي بروحه إذا نام، فتقصد إهلاكه وأذاه؛ فلو لا أن الله سبحانه يدفع عنه لما سلم.

* ثمَّ يقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كلِّ شيءٍ قدير. الحمد لله، وسبحان الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله»^(٣). ثمَّ يدعو ويتضرَّع. ثمَّ يقوم إلى الوضوء بقلب حاضر مستصحِّب لما فيه.

* ثمَّ يصلي ما كتب الله له صلاةً محبِّ ناصحٍ لمحجوبه متذلِّل منكسرٍ بين يديه، لا صلاةً مُدِلِّ بها عليه، يرى من أعظم نعم محجوبه عليه أن أقامه وأنام غيره، واستزاره^(٤) وطرده غيره، وأهله وحرَم غيره، فهو يزداد بذلك محبَّةً إلى محبته، يرى أن قرَّة عينه وحياة قلبه وجنة روحه ونعيمه ولذته وسروره في تلك الصلاة، فهو يتمنَّى طولَ ليله، ويهتمُّ بطلوع الفجر، كما يتمنَّى المحب الفائز بوصل محجوبه ذلك.

فهو كما قيل:

(١) كَلَّاهُ يَكَلِّئُهُ كَلَاءً، وكِلَاءَةٌ: حَرَسُهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣١٢، ٦٣١٤، ٦٣٢٤)، ومسلم (٢٧١١).

(٣) أخرجه البخاري (١١٥٤).

(٤) استزاره: طلب منه أن يزوره. ولعل المعنى الذي قصده المؤلف هو: سمح له بزيارته ووقفه لها وأعانه عليها.

يُودُّ أَنْ ظِلَامَ اللَّيْلِ دَامَ لَهُ *** وَزَيْدٌ فِيهِ سَوَادُ الْقَلْبِ وَالْبَصَرِ

فَصْلٌ

* فإذا صَلَّى ما كتب الله جلس مطرقاً بين يدي ربّه تعالى هيبَةً له وإجلالاً، واستغفره استغفاراً من قد تيقن أنّه هالك إن لم يغفر له ويرحمه.

* فإذا قضى من الاستغفار وطراً، وكان عليه بعدُ ليلٌ اضطجع على شقه الأيمن مُجَمِّماً نفسه، مريحاً لها، مقوياً لها على أداء وظيفة الفرض، فيستقبله شيطاناً بجده وهمته كأنّه لم يزل نائماً طول ليلته لم يعمل شيئاً، فهو يريد أن يستدرك ما فاتته في صلاة الفجر، فيصلّي السنة، ويبتهل بينها وبين الفريضة، فإنّ لذلك الوقت شأنًا يعرفه من عرفه. ويكثر فيه من قول: «يا حيُّ يا قيوم لا إله إلا أنت»، فلهذا الذكر في هذا الموطن تأثيرٌ عجيب.

* ثمّ ينهض إلى صلاة الصبح قاصداً الصفّ الأوّل عن يمين الإمام أو خلف قفاه. فإن فاتته ذلك قصدَ القرب منه مهما أمكن، فإنّ للقرب من الإمام تأثيراً في سرّ الصلاة. ولهذا القرب تأثيرٌ في صلاة الفجر خاصّةً يعرفه من عرف قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]. قيل: يشهده الله عزّ وجلّ وملائكته. وقيل: يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، فيتفق نزول هؤلاء البدل عند صعود أولئك فيجتمعون في صلاة الفجر، وذلك لأنّها في أوّل ديوان النهار وآخر ديوان الليل فيشهدها ملائكة الليل والنهار.

فَصْلٌ

* فإذا فرغ من صلاة الصبح أقبل بكلّيته على ذكر الله والتوجّه إليه بالأذكار التي شرّعت أوّل النّهار، فيجعلها ورداً له لا يُخلُّ به أبداً، ثمّ يزيد عليها ما شاء من الأذكار الفاضلة أو قراءة القرآن حتّى تطلع الشمس حسناء، فإذا طلعت فإن شاء ركع ركعتي الصّحى وزاد ما شاء، وإن شاء قام من غير ركوع.

* ثم يذهب متضرعاً إلى ربّه، سائلاً له أن يكون ضامناً عليه، متصرفاً في مرضاته بقيّة يومه. فلا يتقلب إلا في شيء يظهر له فيه مرضاة ربّه، وإن كان من الأفعال العادية الطبيعيّة قلبه عبادةً بالنية، وقصد الاستعانة به على مرضاة الربّ. وبالجملة فيقف عند أوّل الداعي إلى فعله، فيفتش ويستخرج منه منفذاً ومسلكاً يسلك به إلى ربّه. فينقلب في حقّه عبادة وقرية. وشتان كم بين هذا وبين من إذا عرض له أمر من أوامر الربّ لا بدّ له من فعله، فتش فيه على مراد لنفسه وغرض لطبعه، ففعله لأجل ذلك، وجعل الأمر طريقاً له ومنفذاً لمقصده. فسبحان من فاوت بين النفوس إلى هذا الحد والغاية! فهذا عباداته عادات، والأوّل عاداته عبادات!

* فإذا جاء فرض الظهر بادر إليه كذلك مكماً له، ناصحاً فيه لمعبوده كنصح المحبّ الصادق المحبّة لمحبوبه الذي قد طلب منه أن يعمل له شيئاً ما، فهو لا يُبقي مجهوداً، بل يبذل مقدوره كلّ في تحسينه وتزيينه وإصلاحه وإكماله، ليقع موقعاً من محبوبه، فينال به رضاه عنه وقربه منه.

وبالجملة، فهذا حال هذا العبد مع ربّه في جميع أعماله، فهو يعلم أنّه لا يوفي هذا المقام حقّه، فهو أبداً يستغفر الله عقيب كلّ عمل. وكان النبي ﷺ إذا سلّم من الصلاة استغفر ثلاثاً، وقال تعالى: ﴿وَيَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْجِعُوا إِلَى اللَّهِ فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ إِنَّهُ يُمِيطُ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَرْحِمُكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [البقرة: ١٩٩] فأمر سبحانه بالاستغفار بعد الوقوف بعرفة والمزدلفة، وشرع للمتوضّئ أن يقول بعد وضوئه: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ»^(١). فهذه توبة بعد الوضوء، وتوبة بعد الحجّ، وتوبة بعد الصلاة، وتوبة بعد قيام الليل. فصاحب هذا المقام مضطّر إلى التوبة والاستغفار كما تبين، فهو لا يزال مستغفراً تائباً، وكلّما كثرت طاعاته كثرت توبته واستغفاره.

(١) أخرجه الترمذي (٥٥).

فصل

وجماع الأمر في ذلك إنما هو بتكميل عبودية الله **عَزَّوَجَلَّ** في الظاهر والباطن، فتكون حركات نفسه وجسمه كلها في محبوبات الله، فكمال عبودية العبد موافقته لربه في محبة ما أحبه، وبذل الجهد في فعله؛ وموافقته في كراهة ما كرهه، وبذل الجهد في تركه. وهذا إنما يكون للنفس المطمئنة، لا للأماراة ولا للوامة. فهذا كمال من جهة الإرادة والعمل.

وأما من جهة العلم والمعرفة فأن تكون بصيرته منفتحة في معرفة الأسماء والصفات والأفعال، له شهود خاص فيها مطابق لما جاء به الرسول **ﷺ** لا مخالف له، فإن بحسب مخالفته له في ذلك يقع الانحراف. ويكون مع ذلك قائماً بأحكام العبودية الخاصة التي تقتضيها كل صفة بخصوصها.

فصل

ومن شأن القوم أن تنسلخ نفوسهم من التدبير والاختيار الذي يخالف تدبير ربهم تعالى واختياره، بل قد سلموا إليه سبحانه التدبير كله، فلم يزاحم تدبيرهم تدبيره ولا اختيارهم اختياره، لتيقنهم أنه الملك القاهر القابض على نواصي الخلق، المتولي لتدبير أمر العالم كله، وتيقنهم مع ذلك أنه الحكيم في أفعاله الذي لا تخرج أفعاله عن الحكمة والمصلحة والرحمة.

قال بعض السلف: «لو قُرِضَ جسمي بالمقاريض كان أحب إلي من أن أقول لشيء قضاء الله: ليت له لم يقضه».

والمقصود أن من شأن القوم ترك الاهتمام بالتدبير والاختيار، بل همهم كله في إقامة حقه عليهم. وأما التدبير العام والخاص فقد سلموه لولي الأمر كله ومالكة الفعل لما يريد.

فإذا وردت عليهم أقداره التي تصيبهم بغير اختيارهم قابلوها بمقتضاها من

العبودية، وهم فيها على مراتب ثلاثة:

* أحدها: الرضا عنه فيها والمزيد من حبه والشوق إليه. وهذا ينشأ من مشاهدتهم للطفه فيها وبرّه وإحسانه العاجل والآجل، ومن مشاهدتهم حكمته فيها ونصبها سبباً لمصالحهم، وسوقهم بها إلى حبه ورضوانه.

* المرتبة الثانية: شكره عليها كشكره على النعم. وهذا فوق الرضا عنه بها. ومنه ينتقل إلى هذه المرتبة، فهذه مرتبتان لأهل هذا الشأن.

* والثالثة: للمقتصدين وهي مرتبة الصبر التي إذا نزل منها نزل إلى نقصان الإيمان وفواته، من التسخّط والتشكي، واستبطاء الفرج، واليأس من الرّوح، والجزع الذي لا يفيد إلا فوات الأجر وتضاعف المصيبة. فالصبر أوّل منازل الإيمان ودرجاته، وأوسطها، وآخرها؛ فإن صاحب الرضا والشكر لا يعدم الصبر في مرتبته، بل الصبر معه، وبه يتحقّق الرضا والشكر، لا تصوّر ولا تحقّق لهما دونه.

فصل [في الكلام على المقامات وعللها والرد على ابن العريف^(١) وأرباب التصوف]:

* المثال الأوّل: الإرادة، فإن الله جعلها من منازل صفوة عباده وأمر رسوله ﷺ أن يصبر نفسه مع أهلها، فقال: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعِشَى يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۖ إِلَّا أَتِنَاءً وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ١٩-٢٠]. وقال تعالى حكاية عن أوليائه قولهم: ﴿إِنَّمَا نَطْعُمُكَ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩] وهذه لام التعليل الداخلة على الغايات المرادة، وهي كثيرة في القرآن.

فقال طائفة: «الإرادة حلية العوالم، وهي تجريد القصد، وجزم النية، والجد في الطلب. وذلك في طريق الخواص: نقص، وتفرّق، ورجوع إلى النفس. فإن إرادة

(١) أحمد بن محمد بن موسى الصنهاجي الأندلسي أبو العباس (٤٨١-٥٣٦هـ): من أئمة الصوفية الذين تكلّموا في المقامات والإشارات. انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠/١١١).

العبد عينُ حظّه، وهو رأسُ الدعوى. وإنّما الجمع والوجود فيما يراد بالعبد لا فيما يريد، كقوله تعالى: ﴿وَإِن يُرَدَّكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، فيكون مراده ما يراد به، واختياره ما اختير له، إذ لا إرادة للعبد مع سيّده ولا نظر.

كما قال:

أريدُ وصاله ويريد هجري * فأتركُ ما أريدُ لما يُريدُ

ومن هذا قول أبي يزيد: «قيل لي: ما تريد؟ قلتُ: أريد أن لا أريد، لأنّي أنا المراد وأنت المريد».

فيقال: ليس المراد من «العوام» في كلامهم العامّة الجهال، وإنّما مرادهم بهذه اللفظة عموم السالكين، دون أهل الخصوص الواصلين إلى منازل الفناء وعين الجمع. وإذا عرف هذا فالكلام على ما ذكر في الإرادة من وجوه:

• أحدها: أن الإرادة هي مركّب العبودية، وأساس بنائها الذي لا تقوم إلا عليه، فلا عبودية لمن لا إرادة له. بل أكمل الخلق عبوديةً ومحبةً، وأصحّهم حالًا، وأقومهم معرفةً أتمّهم إرادةً. فكيف يقال: إنّها حلية العوام أو من منازل العوام؟

• الوجه الثاني: أنّه يلزم من هذا أن تكون المحبة من منازل العوام، وتكون معلولةً أيضًا؛ لأنّها إرادة تامّة للمحبوب، ووجود المحبة بلا إرادة كوجود الإنسانية من غير حيوانية، وكوجود مقام الإحسان بدون الإيمان والإسلام. فإذا كانت الإرادة معلولةً وهي من منازل العوام لزم أن تكون المحبة كذلك.

• الوجه الثالث: أن الإرادة إنّما تكون ناقصةً بحسب نقصان المراد، فإذا كان مرادها أشرف المراد فإنّ إرادته أشرف الإرادات. ثمّ إذا كانت الوسيلة إليه أجلّ الوسائل، وأنفعها، وأكملها، فإنّ إرادتها كذلك. فلا تخرج إرادته عن إرادة أشرف الغايات، وإرادة أقرب الوسائل إليه وأنفعها. فأى علّة في هذه الإرادة؟ وأي شيء فوقها للخواص؟

• **الوجه الرابع:** أن نقصان الشيء يكون من وجهين: أحدهما: أن يوجب ضرراً. والثاني: أن تكون له ثمرة نافعة لكن يشغل عما هو أكمل منه. وكلاهما منتفٍ عن الإرادة، فكيف تكون ناقصة معلولة؟

فإن قيل: لما كان الوقوف معها رجوعاً إلى النفس وتفرّقاً ووقوفاً مع حظّ المريد كانت ناقصة، قيل: هذا منشأ الغلط.

• **وجوابه بالوجه الخامس:** وهو أن يقال: قوله: «إن الإرادة تفرّق». فإن أردتم بالتفرّق شهود المريد لإرادته ومراده ولعبوديته ولمعبوده ولمحبّته ومحبوبه، فلم قلت: إن هذا التفرّق نقص؟ وهل هذا إلا عين الكمال؟ وهل تتمّ العبودية إلا بهذا؟

وتأمّل حال أكمل الخلق ﷺ وأفضلهم وأشدّهم حبّاً لله عزّ وجلّ، كيف كان في عبادته جامعاً بين الشهودين، حتّى كان لا يغيب عن أحوال المأمومين، فضلاً عن شهود عبادته، فكان يراعي أحوالهم وهو في ذلك المقام بين يدي ربّه تعالى؛ فالكَمَل من أمّته على منهاجه وطريقته في ذلك ﷺ. فالواجب التمييز بين المراتب وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه، فقد جعل الله لكلّ شيءٍ قدرًا.

• **الوجه السادس:** أن قوله: «الإرادة رجوعٌ إلى النفس، وإن إرادة العبد عينُ حظّه» كلام فيه إجمال وتفصيل. فيقال: ما تريدون بقولكم: إن الإرادة رجوع إلى النفس؟ أتريدون أنّها رجوع عن إرادة الربّ وإرادة محبّته إلى إرادة النفس وحظوظها، أم تريدون أنّها رجوع إلى إرادة النفس لربّها ولمرضاته؟ فإن أردتم الأوّل علّم أنّ هذه الإرادة معلولة ناقصة فاسدة، ولكن ليست هذه الإرادة التي نتكلم فيها، وإن أردتم المعنى الثاني فهو عين الكمال، وإنّما النقصان خلافه.

• **الوجه السابع:** أن قولكم: «إن هذه الإرادة عين حظّ العبد»، قلنا: نعم، وهي أكبر حظّ له وأجلّه وأعظمه. وهل للعبد حظّ أشرف من أن يكون الله وحده إلهه ومعبوده ومحبوبه ومراده؟ فهذا هو الحظّ الأوفر والسعادة العظمى.

• يوضح هذا الوجه الثامن: أنَّ الحيَّ لا ينفكَّ عن الإرادة ما دام شاعراً بنفسه، وإنَّما ينفكَّ عنها إذا غاب عنه شعوره بعارضيٍّ من العوارض، فالإرادة من لوازم الحياة، فدعوى أنَّ الكمال في التجرّد عنها دعوى باطلة مستحيلة طبعاً وحساً، بل الكمال في التجرّد عن الإرادة التي تُزاحم مرادَ المحبوب، لا عن الإرادة التي توافق مراده.

• الوجه التاسع: قوله: «الجمع والوجود فيما يراد بالعبد، لا فيما يريد...» إلى آخره، فيقال: هذا على نوعين:

○ أحدهما: ما يراد بالعبد من المقدور الذي يجري عليه بغير اختياره، كالقفر والغنى، والصحة والمرض، والحياة والموت، وغير ذلك. فهذا لا ريب أنَّ الكمال فناء العبد فيه عن إرادته، ووقوفه مع ما يراد به، لا يكون له إرادة تُزاحم إرادة الله منه.

○ والنوع الثاني: ما يراد من العبد من الأوامر والقربات. فهذا ليس الكمال إلا في إرادته، وإن فَرَّقْتَهُ، فهو مجموع في تفرقه، متفرّق في جمعيّته. وهذا حال الكَمَل من الناس.

• الوجه العاشر: أنَّ قول أبي يزيد: «أريد أن لا أريد» تناقض بين، فإنَّه قد أراد عدم الإرادة. فإذا قال: «أريد أن لا أريد» يقال له: فقد أردت!

• الوجه الحادي عشر: أنَّه فسّر الإرادة بتجريد القصد وجزم النية، والجدّ في الطلب. وهذا هو عين كمال العبد، وهو متضمّن للصدق والإخلاص والقيام بالعبودية. فأَيُّ نقص في تجريد القصد - وهو تخليصه من كلّ شائبة نفسانية أو طبيعية، وتجريده لمراد المحبوب وحده - والجدّ في طلبه وطلب مرضاته، وجزم النية، وهو أن لا يعترها وقفة ولا تأخر؟ وهذا الأمر هو غاية منازل الصديقين.

• الوجه الثاني عشر: أنَّه قال بعد هذا: «فصحّة الإرادة بذل الوسع واستفراغ الطاقة مع ترك الاختيار والسكون إلى مجاري الأقدار، فيكون كالميّت بين يدي الغاسل، يقلّبه كيف يشاء». فأين هذا من قوله: «وذلك في طريق الخواص نقص وتفرق»؟

وهل يكون بذل الوسع واستفراغ الطاقة إلا مع تمام الإرادة؟

وإنما الذي يعرض له النقص من الإرادة نوعان:

○ أحدهما: إرادة مصدرها طلب الحظّ.

○ والثاني: اختياره فيما يفعل به بغير اختياره.

فعن هاتين الإرادتين ينبغي الفناء، وفيهما يكون النقص. والكمال ترك الاختيار فيهما، والسكون إلى مراد المحبوب وحقّه في الأولى، وإلى مجاري أقداره وحكمه في الثانية. فيكون في الأولى حيّاً فعلاً منازعاً لقواطعه عن مراد محبوبه، وفي الثانية كالميت بين يدي الغاسل يقلّبه كيف يشاء.

وهذا التفصيل ينكشف سرّ هذه المسألة، ويحصل التمييز بين محض العبودية وحظّ النفس. والله الموفق للصواب.

فصل

* المثل الثاني: الزهد. قال أبو العباس ^(١) رَحِمَهُ اللهُ: «هو للعوامّ أيضاً؛ لأنّه حبس النفس عن المملذوذات، وإمساكها عن فضول الشهوات، ومخالفة دواعي الهوى، وترك ما لا يعني من الأشياء، وهذا نقص في طريق الخاصّة، لأنّه تعظيم للدنيا، واحتباس عن انتقادها، وتعذيب للظاهر بتركها مع تعلق الباطن بها».

فيقال: الكلام على هذا من وجوه:

• أحدها: أنّ جعل الزهد للعوامّ لما ذكره، إنّما يتمّ إذا كان الزهد ملزوماً لمنازعة النفس ومجاذبتها لدواعي الشهوة والهوى، وحيث إنّ يكون قلبه مشغولاً بتلك الدواعي والجواذب، ونفسه تطالبها بها، وزهده يأمره باجتنابها. ولا ريب أنّ فوق هذا مقاماً أعلى منه، وهو طمأنينة نفسه وسكونها إلى محبوبها، وانجذاب دواعيها إلى

(١) أبو العباس: هو ابن العريف.

محبّته ومرضاته؛ وهذا للخواصّ من المؤمنين، ولكن هذه المنازعة غير لازمة للزهد، وإن كان لا بُدَّ منها في حكم الطبيعة لتحقيق الابتلاء والامتحان، ولتحقق تركُّ العبد حظه وهواه لرَبِّه إثارًا له على هواه ونفسه.

• الثاني: أنّه ولو كانت هذه المنازعة وحبس النفس عن المملذوذات من لوازم الزهد لم يكن فيها نقص ولا علة، فإنّها من لوازم الطبيعة وأحكام الجبلّة، وهي كالجوع والعطش والألم والتعب، فحبسُ النفس عن إجابة دواعيها إثارًا لله ومرضاته عليها لا يكون نقصًا ولا مستلزمًا لنقص.

مسألة شريفة:

وهي أنّ العبدَ إذا كان له حال أو مقام مع الله، ثمّ نزل عنه إلى ذنب ارتكبه، ثمّ تاب من ذنبه، هل يعود إلى مثل ما كان؟ أو لا يعود، بل إنّ رجع رجع إلى أنزل من مقامه وأنقص من رتبته؟ أو يعود خيرًا ممّا كان؟

وجرت هذه المسألة بحضرة شيخ الإسلام ابن تيمية، فسمعتُه يحكي هذه الأقوال الثلاثة حكاية مجرّدة. فإمّا سألتُه، وإمّا سئل عن الصواب منها، فقال: الصواب أنّ من التائبين من يعود إلى مثل حاله، ومنهم من يعود أكمل ممّا كان، ومنهم من يعود أنقص ممّا كان. فإن كان بعد التوبة خيرًا ممّا كان قبل الخطيئة، وأشدّ حذرًا، وأعظم تشميرًا، وأعظم ذلًّا وخشية وإنابةً، عاد إلى أرفع ممّا كان. وإن كان قبل الخطيئة أكمل في هذه الأمور، ولم يعد بعد التوبة إليها، عاد إلى أنقص ممّا كان عليه. وإن كان بعد التوبة مثل ما كان قبل الخطيئة رجع إلى مثل منزلته. هذا معنى كلامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مسألة أخرى:

قلتُ: وههنا مسألة، هذا الموضوعُ أخصّ المواضع بيانها. وهي أنّ التائب إذا تاب إلى الله توبةً نصوحًا، فهل تُمحى تلك السيئات، ويذهب لا له ولا عليه، أو إذا مُحيّت أثبت له مكان كلّ سيئةٍ حسنة؟

هذا مما اختلف الناس فيه من المفسرين وغيرهم قديماً وحديثاً.

والصواب - إن شاء الله - في هذه المسألة أن يقال: لا ريب أن الذنب نفسه لا ينقلب حسنة، والحسنة إنما هي أمرٌ وجوديّ يقتضي ثواباً، ولهذا كان تارك المنهيات إنما يثاب على كف نفسه وحبسها عن مواجهة المنهي، وذلك الكفّ والحبس أمرٌ وجوديّ هو متعلّق الثواب. وأمّا من لم يخطر بباله الذنب أصلاً، ولم يحدث به نفسه، فهذا كيف يثاب على تركه؟ ولو أثيب مثل هذا على ترك هذا الذنب لكان مثاباً على ترك ذنوب العالم التي لا تخطر بباله، وذلك أضعاف حسناته بما لا يحصى، فإنّ الترك مستصحّب معه، والمتروك لا ينحصر ولا ينضب، فهل يثاب على ذلك كله؟ هذا ممّا لا يتوهم.

وإذا كانت الحسنة لا بدّ أن تكون أمراً وجودياً، فالتائب من الذنوب التي قد عملها قد قارن كلّ ذنب منها نداماً عليه، وكفّ نفسه عنه، وعزم على ترك معاودته، وهذه حسنات بلا ريب، وقد محت التوبة أثر الذنب، وخلّفت هذا الندم والعزم، وهو حسنة، فقد بدّلت تلك السيئة حسنة، وهذا معنى قول بعض المفسرين: «يجعل مكان السيئة التوبة، والحسنة مع التوبة». فإذا كانت كلّ سيئة من سيئاته قد تاب منها، فتوبته منها حسنة حلّت مكانها، فهذا معنى التبديل، لا أن السيئة نفسها تنقلب حسنة، ولهذا قال بعض المفسرين في هذه الآية: «يعطيهم بالندم على كلّ سيئة أسأؤوها حسنة».

• **الوجه الثالث:** أن يقال: قوله: «الزهد تعظيم للدين، واحتباس عن انتقادها» إلى آخر الفصل، إن أراد به أن زهده دليل على تعظيمه للدين وأن لها في قلبه من القدر والمنزلة ما يكره لأجله نفسه على تركها، أو مستلزم لذلك؛ فالزهد لا يدل على هذا التعظيم، ولا يستلزمه، وإن كان من عوارض غلبات الطباع التي تزدّم مساكنتها وانحجاب القلب بها، بل زهده فيها دليل على خروج عظمتها من قلبه، وقلة مبالاته بها، وترك الاهتبال بشأنها؛ فكيف يكون هذا نقصاً بوجه؟ بلى، النقص في الزهد يكون

من أحد وجوه ثلاثة:

○ الأول: إمّا أن يزهد فيما ينفعه منها، ويكون قوّة له على سيره، ومعوّنة له على سفره، فهذا نقص.

○ الثاني: أن يكون زهده مشوباً إمّا بنوع عجز أو ملالة وسامة وتأذيه بها وبأهلها، وتعب قلبه بشغله بها، ونحو هذا من المزهّدات فيها، كما قيل لبعضهم: ما الذي أوجب زهدك في الدنيا؟ قال: قلّة وفائها، وكثرة جفائها، وخسّة شركائها، فهذا زهد ناقص، فلو صفت الزاهد من تلك العوارض لم يزهد فيها؛ بخلاف من كان زهده فيها لا متلاء قلبه من الآخرة، ورغبته في الله وقربه؛ فهذا لا نقص في زهده، ولا علة من جهة كونه زهداً.

○ الثالث: أن يشهد زهده ويلحظه، ولا يفنى عنه بما زهد لأجله؛ فهذا نقص أيضاً.

● الوجه الرابع: أن الزهد على أربعة أقسام^(١):

○ أحدها: فرض على كل مسلم، وهو الزهد في الحرام، وهذا متى أخلّ به انعقد سبب العقاب، فلا بدّ من وجود مسببه، ما لم ينعقد سبب آخر يضاده.

○ الثاني: زهد مستحبّ، وهو على درجات في الاستحباب بحسب المجهود فيه. وهو الزهد في المكروه وفضول المباحات والتفنن في الشهوات المباحة.

○ الثالث: زهد الدّاخلين في هذا الشأن، وهم المشمّرون في السير إلى الله، وهو نوعان:

■ أحدهما: الزهد في الدنيا جملةً، وليس المراد تخلّيها من اليد ولا إخراجها وعوده صِفراً منها، وإمّا المراد إخراجها من قلبه بالكليّة، فلا يلتفت إليها، ولا يدعها تُساكن قلبه وإن كانت في يده.

(١) ذكر المؤلف ثلاثة فقط ولعل الرابع هو النوع الثاني من القسم الثالث وهو الزهد في النفس.

والذي يصحح هذا الزهد ثلاثة أشياء:

- أحدها: علم العبد أنها ظل زائل، وخيال زائر، وأنها كما قال تعالى فيها: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ فِيهَا مَرْغَبَةٌ وَلَهُمْ فِيهَا مَرْغَبَةٌ وَفَخَرُّ بَيْنَكُمْ وَتَكَثُرُ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ [الحديد: ٢٠].

وقال النبي ﷺ: «مالي وللدنيا! إنما أنا كراكبٍ قال في ظل شجرة ثم راح وتركها»^(١).

فما اغترَّبها ولا سكن إليها إلا ذو همّة دنيّة، وعقل حقير، وقدر خسيس!

- الثاني: علمه أن وراءها داراً أعظم منها قدرًا وأجل خطرًا، وهي دار البقاء؛ وأن نسبتها إليها كما قال النبي ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يدخل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بم ترجع؟»^(٢).

- الثالث: معرفته أن زهده فيها لا يمنعه شيئًا كُتِبَ له منها، وأن حرصه عليها لا يجلب له ما لم يقص له منها.

فهذه الأمور الثلاثة تُسهّل على العبد الزهد فيها، وتثبت قدمه في مقامه. والله الموفق لمن يشاء.

■ النوع الثاني: الزهد في نفسك، وهو أصعب الأقسام وأشقّها، وأكثر الزاهدين إنما وصلوا إليه ولم يلجوه وهو نوعان:

- أحدهما: وسيلة وبداية؛ وهو أن تميّتها، فلا تُبقي لها عندك من القدر شيئًا، فلا تغضب لها، ولا ترضى لها، ولا تتنصر لها، ولا تنتقم لها.

- والنوع الثاني: غاية وكمال؛ وهو أن تبذلها للمحسوب جملةً بحيث لا تستبقي

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٧٧)، وأحمد في المسند (٩٧٢/٢)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٥٨).

منها شيئاً، بل تزهد فيها زهدَ المحبِّ في قدر خسيس من ماله، قد تعلَّقت رغبةً محبوبه به، فهل يجد من قلبه رغبةً في إمساك ذلك القدر وحبسه عن محبوبه؟ فهكذا زهد المحبِّ الصادق في نفسه، قد خرج عنها، وسلَّمها لربِّه، فهو يبذلها له دائماً يتعرَّض منه لقبولها. وجميع مراتب الزهد المتقدِّمة مبادٍ^(١) ووسائل لهذه المرتبة، ولكن لا يصحَّ إلا بتلك المراتب.

فمن رام الوصول إلى هذه المرتبة بدون ما قبلها فمُتَعَنٌّ^(٢) متمنٍّ، كمن رام الصعود إلى أعلى المنارة بلا سلَّم، كما قال بعض السلف: «إنَّما حُرِّموا الوصول بتضييع الأصول»، فمَن ضيَّع الأصول مُنِعَ الوصول. وإذا عُرِفَ هذا فكيف يُدَّعى أنَّ الزهد من منازل العوامِّ وأنَّه نقص في طريق الخاصَّة؟ وهل الكمال إلا في الزهد، وما النقص إلا في نقصانه؟ والله الموفق للصواب.

فصل

* المثال الثالث: التوكُّل:

قال أبو العباس: «هو للعوامِّ أيضاً؛ لأنَّه كِلْتكَ أَمْرَكَ إلى مولاك، والتجاوُّك إلى علمه ومعرفته لتدبير أَمْرِكَ وكفاية همِّكَ، وهذا في طريق الخواصِّ عمَّى عن الكفاية، ورجوعٌ إلى الأسباب؛ لأنَّكَ رفضت الأسباب، ووقفت مع التوكُّل، فصار بدلاً عن تلك الأسباب؛ فكأنَّكَ معلق بما رفضته من حيث معتقدك الانفصال».

فيقال: جعله التوكُّل من منازل العوامِّ باطلٌ كما تقدَّم، بل الخاصَّة أحوج إليه من العامة، وتوكُّل الخواصِّ أعظم من توكُّل العوامِّ. والتوكُّل مصاحبٌ للصادق من أوَّل قدم يضعه في الطريق إلى نهايته، وكلَّما ازداد قُرْبُهُ وقوي سِرُّهُ ازداد توكُّله. فالتوكُّل مَرَكَبُ السائر الذي لا يتأتَّى له السيرُ إلا به، ومتى نزل عنه انقطع لوقته.

(١) مبادٍ تسهيل مبادئ: أي مقدمات ووسائل.

(٢) تعنَّى الرجلُ يتعنَّى، تعنَّياً، فهو مُتَعَنٌّ: تعب ونصب. والمعنى هنا أنه تعب ونصب لغير فائدة.

وهو من لوازم الإيمان ومقتضياته، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]. فجعل التوكل شرطاً في الإيمان، فدلّ على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل، وفي الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمُ إِن كُنْتُمْ ءَامِنُونَ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] فجعل دليل صحة الإسلام التوكل. وقال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢] فذكر اسم الإيمان هاهنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الإيمان للتوكل، وأنّ قوّة التوكل وضعفه بحسب قوّة الإيمان وضعفه، فكلمة قوي إيمان العبد كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفاً فهو دليل على ضعف الإيمان ولا بدّ.

والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والهداية.

فأمّا التوكل والعبادة، فقد جمع سبحانه بينهما في سبعة مواضع من كتابه:

• أحدها: في سورة أمّ القرآن فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

• الثاني: قوله حكاية عن نبيّه شعيب أنّه قال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

• الثالث: قوله حكاية عن أوليائه وعباده المؤمنين أنّهم قالوا: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

• الرابع: قوله تعالى لنبيّه محمّد ﷺ: ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَبَنِّتْ إِلَيْهِ بَنِيلاً ۝٨ رَبُّ الشَّرِّقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٨-٩].

• الخامس: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

• السادس: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَىٰهَا ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْ ۚ وَإِلَيْهِ مَتَابُكَ﴾ [الرعد: ٣٠].
وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿[الحج: ٧٨].

• السابع: قوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُكَ﴾ [الرعد: ٣٠].

فهذه السبع مواضع جمعت الأصلين: التوكل وهو الوسيلة، والإنابة وهي الغاية؛ فإنَّ العبد لا بدَّ له من غاية مطلوبة، ووسيلة موصلة إلى تلك الغاية، فأشرف غاياته التي لا غاية له أجل منها؛ عبادة ربِّه والإنابة إليه، وأعظم وسائله التي لا وسيلة له غيرها ألبتة؛ التوكل على الله والاستعانة به، ولا سبيل له إلى هذه الغاية إلا بهذه الوسيلة، فهذه أشرف الغايات، وتلك أشرف الوسائل.

وأما الجمع بين الإيمان والتوكل، ففي مثل قوله: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]. ونظيره قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]. وقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

وأما الجمع بين التوكل والإسلام، ففي قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يُقَوْمُ إِن كُنْتُمْ ءَامِنُونَ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

وأما الجمع بين التقوى والتوكل، ففي مثل قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ الْيَتَّىٰ أَتَقَىٰ اللَّهَ وَلَا تُطِيعَ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ١-٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وأما الجمع بين التوكل والهداية، ففي قول الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لقومهم: ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢]. وقال عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، فأمر سبحانه رسوله بالتوكل

عليه، وعَقَّبَ هذا الأمر بما هو موجبٌ للتوكل، مصحَّحٌ له، مستدعٍ لثبوتِهِ وتحققِهِ، وهو قوله: ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾. فَإِنَّ كُونَ الْعَبْدِ عَلَى الْحَقِّ يَقْتَضِي تَحْقِيقَ مَقَامِ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ، وَالْإِكْتِفَاءَ بِهِ، وَالْإِيوَاءَ إِلَى رُكْنِهِ الشَّدِيدِ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ، وَهُوَ وَلِيُّ الْحَقِّ وَنَاصِرُهُ وَمُؤَيِّدُهُ، وَكَافِي مَنْ قَامَ بِهِ؛ فَمَا لِمَاذَا لَا يَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ؟ وَكَيْفَ يَخَافُ وَهُوَ عَلَى الْحَقِّ؟ كَمَا قَالَتِ الرِّسَالَةُ لِقَوْمِهِمْ: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢]، فَعَجَبُوا مَنْ تَرَكَهُمُ التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَاهُمْ، وَأَخْبَرُوا أَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ أَبَدًا، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْهَدَايَةَ وَالتَّوَكُّلَ مُتَلَازِمَانِ.

فصاحبُ الحقِّ -لَعَلَّمَهُ بِالْحَقِّ وَلِثِقَتِهِ بِأَنَّ اللَّهَ وَلِيُّ الْحَقِّ وَنَاصِرُهُ- مُضْطَرٌّ إِلَى تَوَكُّلِهِ عَلَى اللَّهِ، لَا يَجِدُ بَدَأًا مِنْ تَوَكُّلِهِ، فَإِنَّ التَّوَكُّلَ يَجْمَعُ أَصْلِينَ: عِلْمَ الْقَلْبِ وَعَمَلَهُ. أَمَّا عِلْمُهُ، فَيَقِينُهُ بِكَفَايَةِ وَكَيْلِهِ، وَكَمَالِ قِيَامِهِ بِمَا وَكَلَهُ إِلَيْهِ، وَأَنَّ غَيْرَهُ لَا يَقُومُ مَقَامَهُ فِي ذَلِكَ.

وَأَمَّا عَمَلُهُ، فَسُكُونُهُ إِلَى وَكَيْلِهِ، وَطُمَأْنِينَتُهُ إِلَيْهِ، وَتَفْوِيضُهُ وَتَسْلِيمُهُ أَمْرَهُ إِلَيْهِ، وَرِضَاهُ بِتَصَرُّفِهِ لَهُ فَوْقَ رِضَاهِ بِتَصَرُّفِهِ هُوَ لِنَفْسِهِ. فَبِهَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ يَتَحَقَّقُ التَّوَكُّلُ، وَهُمَا جَمَاعَةٌ، وَإِنْ كَانَ التَّوَكُّلُ أَدْخَلَ فِي عَمَلِ الْقَلْبِ مِنْ عِلْمِهِ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: «التَّوَكُّلُ عَمَلُ الْقَلْبِ»؛ وَلَكِنْ لَا بَدَأَ فِيهِ مِنَ الْعِلْمِ، وَهُوَ إِمَّا شَرْطُ فِيهِ، وَإِمَّا جُزْءٌ مِنْ مَاهِيَّتِهِ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْقَلْبَ مَتَى كَانَ عَلَى الْحَقِّ كَانَ أَعْظَمَ لَطْمَأْنِينَتِهِ، وَوَثُوقَهُ بِأَنَّ اللَّهَ وَلِيُّهُ وَنَاصِرُهُ، وَسُكُونُهُ إِلَيْهِ، فَمَا لَهُ أَنْ لَا يَتَوَكَّلَ عَلَى رَبِّهِ؟ وَإِذَا كَانَ عَلَى الْبَاطِلِ عِلْمًا وَعَمَلًا أَوْ أَحَدَهُمَا لَمْ يَكُنْ مُطْمَئِنًّا وَاثِقًا بِرَبِّهِ، فَإِنَّهُ لَا ضَمَانَ لَهُ عَلَيْهِ، وَلَا عَهْدَ لَهُ عِنْدَهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ لَا يَتَوَلَّى الْبَاطِلَ وَلَا يَنْصُرُهُ، وَلَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ بُوجُهُ، فَهُوَ مُنْقَطِعُ النِّسْبَةِ إِلَيْهِ بِالْكُلِّيَّةِ، فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ هُوَ الْحَقُّ، وَقَوْلُهُ الْحَقُّ، وَدِينُهُ الْحَقُّ، وَوَعْدُهُ حَقٌّ، وَلِقَاؤُهُ حَقٌّ، وَفَعْلُهُ كُلُّهُ حَقٌّ، لَيْسَ فِي أَعْمَالِهِ شَيْءٌ بَاطِلٌ، بَلْ أَعْمَالُهُ بَرِيَّةٌ مِنَ الْبَاطِلِ، كَمَا أَقْوَالُهُ سَبْحَانَهُ كَذَلِكَ. فَلَمَّا كَانَ الْبَاطِلُ لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ سَبْحَانَهُ، بَلْ هُوَ مُقْطُوعٌ عَنْهُ أَلْبَتَّةَ، كَانَ

صاحبه كذلك، ومن لم يكن له تعلق بالله، وكان منقطعاً عن ربّه، لم يكن الله وليّه ولا ناصره ولا وكيله.

فتدبّر هذا السرّ العظيم في اقتران التوكّل والكفاية بالحقّ والهدى، وارتباط أحدهما بالآخر. ولو لم يكن في هذه الرسالة إلا هذه الفائدة السريّة^(١) لكانت حقيقةً أن تودّع في خزانة القلب؛ لشدة الحاجة إليها. والله المستعان وعليه التكلان.

فظهر أن التوكّل أصلٌ لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلة منها منزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكّل. والله أعلم.

فصل

* المثال الرابع: الصبر.

قال أبو العباس: «وهو من منازل العوالم أيضاً؛ لأنّ الصبر حبس النفس على المكروه، وعقل اللسان عن شكوى، ومكابدة الغصص في تحمّله، وانتظار الفرج عند عاقبته، وهذا في طريق الخاصة تجلّد ومناوأة وجرأة ومنازعة.

والكلام على هذا من وجوه:

• أحدها: أن يقال: الصبر نصف الدين، فإنّ الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩] وقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له: إن أصابته سراءٌ شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراءٌ صبر، فكان خيراً له. وليس ذلك إلا للمؤمن»^(٢) فمنازل الإيمان كلّها بين الصبر والشكر. والذي يوضح هذا:

(١) السرية: الشريفة.

(٢) أخرجه مسلم رقم (٢٩٩٩) بلفظ: «عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا

• **الوجه الثاني:** وهو أنَّ العبد لا يخلو قطُّ من أن يكون في نعمة أو بليّة. فإن كان في نعمة ففرَّضها الشكر والصبر. أمّا الشكر فهو قيدها وثباتها والكفيلُ بمزيدِها. وأمّا الصبر فعن مباشرة الأسباب التي تسلبها، وعلى القيام بالأسباب التي تحفظها؛ فهو أحوجُّ إلى الصبر فيها من حاجة المبتلى.

• **الوجه الثالث:** أنَّ الصبر ثلاثة أقسام: إمّا صبرٌ عن المعصية فلا يرتكبها، وإمّا صبرٌ على الطاعة حتّى يؤدّيها، وإمّا صبرٌ على البليّة فلا يشكو ربّه فيها. وإذا كان العبد لا بدّ له من واحد من هذه الثلاث، فالصبر لازم له أبداً، لا خروج له عنه ألبتّة.

• **الوجه الرَّابع:** أنَّ الله تعالى ذكر الصبر في كتابه في نحو تسعين موضعاً، فمرّةً أمر به، ومرّةً أثنى على أهله، ومرّةً أمر نبيّه ﷺ أن يبشّرهم، ومرّةً جعله شرطاً في حصول النصر والكفاية، ومرّةً أخبر أنّه مع أهله. وأثنى به على صفوته من العالمين، وهم أنبياءه ورسله، فقال عن نبيّه أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، وقال تعالى لخاتم أنبيائه ورسله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال يوسف الصديق وقد قال له إخوته: ﴿أَوَلَمْ نَكْ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَقٍ وَيَصْبِرٍ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وهذا يدلُّ على أنَّ الصبر من أجلِّ مقامات الإيمان، وأنَّ أخصَّ النَّاسِ بالله وأولاهم به أشدُّهم قِيامًا وتحقُّقًا به، وأنَّ الخاصّة أحوجُّ إليه من العامّة.

• **الوجه الخامس:** أنَّ الصبر سبب في حصول كلّ كمال ممكن، فأكمل الخلق أصبرُّهم، ولم يتخلف عن أحد كماله الممكن إلّا من ضعف صبره.

• **الوجه السادس:** قوله: «الصبرُ حبسُ النفس على مكروه، وعقلُ اللسان عن الشكوى، ومكابدة الغصص في تحمّله، وانتظار الفرج عند عاقبته».

فيقال: هذا أحد أقسام الصبر، وهو الصبرُ على البلاء. وأمّا الصبر على الطاعة فقد يعرض فيه ذلك أو بعضه، وقد لا يعرض فيه، بل يتحلّى بها ويأتي بها محبةً ورضىً، ومع هذا فالصبر واقع عليها، فإنّه حبس النفس على مداومتها والقيام بها. قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ الآية [الكهف: ٢٨].

وأمّا الصبر عن المعصية فقد يعرض فيه ذلك أو بعضه، وقد لا يعرض فيه، لتمكّن الصابر من قهر داعيها وغلبته.

• **الوجه السابع:** قوله: «فإنَّ حاصله يرجع إلى كتمان الشكوى في تحمّل الأذى بالبلوى، والاستبشار باختيار المولى».

فيقال: الذي يمكن الخروج عنه هو الشكوى، وأمّا أن يخرج عن ذوق البلوى فلا يجده، أو يتلذذ بها، فهذا غير ممكن، ولا هو في الطبيعة، وإنّما الممكن أن يشاهد العبد في تضاعيف البلاء لطف صنع الله به، وحسن اختياره له، وبرّه به في حمله عنه فيخفّ عنه مؤنة حمله؛ وتشتغل النفس باستخراج لطائف صنع الله به وبرّه وحسن اختياره عن شهود حمله، فتحصل له لذة بما شهده من ذلك.

قاعدة:

الصبر عن المعصية ينشأ من أسباب عديدة:

• **أحدها:** علمُ العبد بقبحها ورذالتها ودناءتها، وأنَّ الله إنّما حرّمها ونهى عنها صيانةً لعبده وحمايةً عن الدنيا والرذائل، كما يحمي الوالدُ الشفيق ولده عما يضرّه.

• **السبب الثاني:** الحياءُ من الله **عَزَّجَلَّ**، فإنَّ العبد متى علم بنظره إليه ومقامه عليه وأنّه بمرأى منه ومستمع، وكان حيًّا حيًّا، استحيا من ربّه أن يتعرّض لمساخطه.

• السبب الثالث: مراعاة نعمه عليك وإحسانه إليك، فإن الذنوب تزيل النعم ولا بدّ. فما أذنبَ عبدٌ ذنبًا إلا زالت عنه نعمةٌ من الله بحسب ذلك الذنب، فإن تاب وراجع رجعت إليه أو مثلها، وإن أصرّ لم ترجع إليه.

• السبب الرابع: خوف الله وخشية عقابه، وهذا إنما يثبت بتصديقه في وعده ووعيده، والإيمان به وبكتابه وبرسوله ﷺ، وهذا السبب يقوى بالعلم واليقين، ويضعف بضغفهما.

• السبب الخامس: محبة الله سبحانه، وهي من أقوى الأسباب في الصبر عن مخالفته ومعاصيه. فإنّ المحبّ لمن يحبّ مطيع، وكلّما قوي سلطان المحبة في القلب كان اقتضاؤه للطاعة وترك المخالفة أقوى.

• السبب السادس: شرف النفس وزكاؤها وفضلها وأنفعتها وحميئتها أن تختار الأسباب التي تحطّها وتضع قدرها، وتخفض منزلتها وتحقّرّها، وتسوّي بينها وبين السّفلة.

• السبب السابع: قوة العلم بسوء عاقبة المعصية، وقبح أثرها، والضرر الناشئ منها: من سواد الوجه، وظلمة القلب، وضيقه وغمّه.

○ ومنها: ذلّة بعد عزّة.

○ ومنها: أنّه يصير أسيرًا في يد أعدائه بعد أن كان ملكًا متصرفًا يخافه أعداؤه.

○ ومنها: أنّه يضعف تأثيره، فلا يبقى له نفوذ في رعيّته ولا في الخارج، فلا رعيّته تطيعه إذا أمرها، ولا ينفذ في غيرهم.

○ ومنها: زوال أمنه وتبدّله به مخافة، فأخوف الناس أشدّهم إساءة.

○ ومنها: زوال الأُنس والاستبدال به وحشة، وكلّما ازداد إساءة ازداد وحشة.

○ ومنها: زوال الرضى واستبداله بالسخط.

- ومنها: زوال الطمأنينة بالله والسكون إليه والإيواء عنده، واستبدال الطرد والبعد منه.
- ومنها: وقوعه في بئر الحسرات، فلا يزال في حسرة دائمة، كلما نال لذة نازعته نفسه إلى نظيرها.
- ومنها: فقره بعد غناه.
- ومنها: نقصان رزقه، فإنَّ العبد يُحرَم الرزق بالذنب يصيبه ^(١).
- ومنها: ضعف بدنه.
- ومنها: زوال المهابة والحلاوة التي أُلْبِسَهَا بالطاعة، فتبدَّل بها مهانةٌ وحقارةٌ.
- ومنها: حصول البغضة والنفرة منه في قلوب الناس.
- ومنها: ضياع أعزِّ الأشياء عليه وأنفسِها وأغلاها، وهو الوقت الذي لا عوض منه، ولا يعود عليه أبداً.
- ومنها: طمعُ عدوّه فيه، وظفره به.
- ومنها: الطبع والرّين على قلبه، فإنَّ العبد إذا أذنب نُكِتَ في قلبه نكتةٌ سوداءُ، فإن تاب منها صُقِلَ قلبه ^(٢).
- ومنها: أنَّه يُحرَم حلاوة الطاعة.
- ومنها: أنَّها تمنع قلبه من ترحّله من الدنيا ونزوله بساحة القيامة.
- ومنها: إعراض الله وملائكته وعباده عنه.
- ومنها: أنَّ الذنب يستدعي ذنباً آخر، ثمَّ يقوى أحدهما بالآخر، فيستدعيان ثالثاً، ثمَّ تجتمع الثلاثة، فتستدعي رابعاً، وهَلَمْ جَرّاً، حتَّى تغمره ذنوبه، وتحيط

(١) ورد ذلك مرفوعاً أخرجه ابن ماجه (٤٠٢٢)، وأحمد في المسند (١٠/٥٢٦٧).

(٢) صقل قلبه: لمع واستنار.

به خطيئته.

- ومنها: علمه بفوات ما هو أحب إليه وخير له منها من جنسها وغير جنسها.
- ومنها: علمه بأن أعماله هي زاده ووسيلته إلى دار إقامته.
- ومنها: علمه بأن عمله هو وليه في قبره وأنيسه فيه، وشفيعه عند ربه، والمخاصم والمحتاج عنه؛ فإن شاء جعله له، وإن شاء جعله عليه.
- ومنها: علمه بأن أعمال البر تنهض بالعبد، وتقوم به، وتصعد إلى الله به؛ فبحسب قوة تعلّقه بها يكون صعوده مع صعودها. وأعمال الفجور تهوي به وتجذبه إلى الهاوية، وتجّره إلى أسفل سافلين؛ وبحسب قوة تعلّقه بها يكون هبوطه معها ونزوله إلى حيث تستقرّ به.
- ومنها: خروجه من حصن الله الذي لا ضيعة على من دخله. فيخرج بمعصيته منه إلى حيث يصير نهبا للصّوص وقطاع الطريق.
- ومنها: أنه بالمعصية قد تعرّض لِمَحَقِّ بَرَكَتِهِ في كُلِّ شيءٍ من أمر دنياه وآخرته. وبالجملة فآثار المعصية القبيحة أكثر من أن يحيط بها العبد علما، وآثار الطاعة الحسنة أكثر من أن يحيط بها علما، فخير الدنيا والآخرة بحذافيره في طاعة الله، وشرّ الدنيا والآخرة بحذافيره في معصيته.
- السبب الثامن: قصر الأمل، وعلمه بسرعة انتقاله، وأنه كمسافر دخل قرية وهو مُزْمِعٌ على الخروج منها، أو كراكب قال في ظلّ شجرة ثم سار وتركها.
- السبب التاسع: مجانية الفضول في مطعمه ومشربه وملبسه ومناحه واجتماعه بالناس. فإنّ قوة الداعي إلى المعاصي إنّما تنشأ من هذه الفضلات، فإنّها تطلب لها مصرفا، فيضيق عليها المباح، فتتعدّاه إلى الحرام.
- السبب العاشر، وهو الجامع لهذه الأسباب كلّها، وهو: ثبات شجرة الإيمان

في القلب. فصبر العبد عن المعاصي إنّما هو بحسب قوّة إيمانه، فكّلما كان إيمانه أقوى كان صبره أتمّ، وإذا ضعف الإيمان ضعف الصبر.

فصل

والصبر على الطاعة ينشأ من معرفة هذه الأسباب، ومن معرفة ما تجلبه الطاعة من العواقب الحميدة والآثار الجميلة. ومن أقوى أسبابها: الإيمان والمحبة، فكّلما قوي داعي الإيمان والمحبة في القلب كانت استجابته للطاعة بحسبه.

وهنا مسألة تكلم فيها الناس، وهي: أيّ الصبرين أفضل: صبر العبد عن المعصية، أم صبره على الطاعة؟

وفصل النزاع في ذلك: أنّ هذا يختلف باختلاف الطاعة والمعصية، فالصبر على الطاعة العظيمة الكبيرة أفضل من الصبر عن المعصية الصغيرة الدنيّة، والصبر عن المعصية الكبيرة أفضل من الصبر على الطاعة الصغيرة، فصبر العبد على الجهاد مثلاً أفضل وأعظم من صبره عن كثير من الصغائر، وصبره عن كبائر الإثم والفواحش أعظم من صبره على صلاة الضحى وصوم يوم تطوعاً ونحوه، فهذا فصل النزاع في المسألة. والله أعلم.

فصل

والصبر على البلاء ينشأ من أسباب عديدة:

- أحدها: شهود جزائها وثوابها.
- الثاني: شهود تكفيرها للسيئات ومحوها لها.
- الثالث: شهود القدر السابق الجاري بها، وأنّها مقدّرة في أم الكتاب قبل أن تخلق، فلا بدّ منها؛ فجزعه لا يزيده إلا بلاءً.
- الرابع: شهوده حقّ الله عليه في تلك البلوى، وواجهه فيها، وهو الصبرُ بلا خلاف

بين الأئمة.

• الخامس: شهود ترتبها عليه بذنبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

• السادس: أن يعلم أن الله قد ارتضاها له واختارها وقسمها، وأن العبودية تقتضي رضاه بما رضي له به سيّده ومولاه.

• السابع: أن يعلم أن هذه المصيبة هي دواءٌ نافع ساقه إليه الطبيب العليم بمصلحته الرحيم به، فليصبر على تجرّعه.

• الثامن: أن يعلم أن في عُقبى هذا الدواء من الشفاء والعافية والصحة وزوال الألم ما لا يحصل بدونه.

• التاسع: أن يعلم أن المصيبة ما جاءت لِتُهْلِكَه وتقتله، وإنّما جاءت لتمتحن صبره وتبتليه، فيتبين حينئذ هل يصلح لاستخدامه وجعله من أوليائه وحزبه أم لا؟

• العاشر: أن يعلم أن الله سبحانه يرّبي عبده على السراء والضراء، والنعمة والبلاء؛ فيستخرج منه عبوديته في جميع الأحوال.

فلو علم العبد أن نعمة الله عليه في البلاء ليست بدون نعمته عليه في العافية لشغل قلبه بشكره ولسانه بقوله: «اللّهم أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»^(١). وكيف لا يشكر من قيّض له ما يستخرج به خبثه ونحاسه، ويصيرُه تَبْرًا خالصًا يصلح لمجاورته والنظر إليه في داره؟

فهذه الأسباب ونحوها تثمر الصبر على البلاء، فإن قويت أثمرت الرضا والشكر. فنسأل الله أن يسترنا بعافيته، ولا يفضحنا بابتلائه بمثمه وكرمه.

(١) ورد هذا الدعاء مرفوعاً أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣)، وأحمد في المسند (٥١٩٤/١٠).

فصل

* المثل الخامس: الحزن.

قال أبو العباس: «وهو من منازل العوالم. وهو انخلاع عن السرور وملازمة الكآبة لتأسف عن فائت، أو توجع لممتنع».

اعلم أن الحزن من عوارض الطريق، ليس من مقامات الإيمان ولا من منازل السائرين، ولهذا لم يأمر الله به في موضع قط، ولا أثنى عليه، ولا رتب عليه جزاء ولا ثواباً، بل نهى سبحانه عنه في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]. وقال تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦]. وقال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]. فالحزن هو بليّة من البلايا التي نسأل الله دفعها وكشفها، ولهذا يقول أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: ٣٤] فحمدوه سبحانه على أن أذهب عنهم تلك البلية ونجّاهم منها.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين^(١) وغلبة الرجال^(٢)». فاستعاذ ﷺ من ثمانية أشياء، كل شيئين منها قرينان.

والمقصود أن النبي ﷺ جعل الحزن مما يستعاذ منه، وذلك لأن الحزن يُضعف القلب، ويوهن العزم، ويغيّر الإرادة؛ ولا شيء أحبُّ إلى الشيطان من حزن المؤمن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا اتَّجَوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [المجادلة: ١٠].

(١) ضلع الدين بفتح الضاد واللام: شدته وثقله.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٩٣، ٥٤٢٥)، ومسلم (٢٧٠٦).

فالحزن مرض من أمراض القلب يمنعه من نهوضه وسيره وتشميره، والثواب عليه ثواب على المصائب التي يُبتلى العبد بها بغير اختياره، كالمرض والألم ونحوهما. وأمّا أن يكون عبادة مأمورًا بتحصيلها وطلبها فلا. ففرق بين ما يثاب عليه العبد من المأمورات، وما يثاب عليه من البليّات.

ولكن يُحمد في الحزن سببه ومصدره ولازمه، لا لذاته؛ فإنّ المؤمن إمّا أن يحزن على تفریطه وتقصيره في خدمة ربه وعبوديته، وإمّا أن يحزن على تورّطه في مخالفته ومعصيته وضياع أيامه وأوقاته، وهذا يدلّ على صحّة الإيمان في قلبه وعلى حياته، حيث شعر قلبه بمثل هذا الألم، فحزن عليه، ولو كان قلبه ميتًا لم يحسّ بذلك، ولم يحزن، ولم يتألم، فما لجرح بميت إيلام، وكلّما كان قلبه أشدّ حياة كان شعوره بهذا الألم أقوى، ولكنّ الحزن لا يجدي عليه، فإنّه يُضعفه، كما تقدّم، بل الذي ينفعه أن يستقبل السير، ويجدّ، ويشمّر، ويبدل جهده.

فصل

* والمثال السادس: الخوف.

قال أبو العباس: «هو الانخلاع عن طمأنينة الأمن، والتيقّظ لنداء الوعيد، والحدّز من سطوة العقاب، وهو من منازل العوامّ أيضًا، وليس في منازل الخواصّ خوف، لأنّه لا أمان للغافل، إنّما يعبد مولاه على وحشة من نظره، ونفرة من الأنس به عند ذكره. ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الشورى: ٢٢]. وأمّا الخواصّ أهل الاختصاص، فإنّهم جعلوا الوعيد منه وعدًا، والعذاب فيه عذابًا لأنّهم شاهدوا المبتلي في البلاء، والمعدّب في العذاب، فاستعذبوا ما وجدوا في جنب ما شاهدوا».

والكلام على ما ذكره من وجوه:

• أحدها: أنّ الخوف أحد أركان الإيمان والإحسان الثلاثة التي عليها مدار

مقامات السالكين جميعها، وهي: الخوف، والرجاء، والمحبة. وقد ذكره سبحانه في قوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِي فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٦-٥٧]. فجمع بين المقامات الثلاثة، فإن ابتغاء الوسيلة إليه هو التقرب إليه بحبه وفعل ما يحبه. ثم قال: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾، فذكر الحب، والخوف، والرجاء. والمعنى أن هؤلاء الذين تدعونهم من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين يتقربون إلى ربهم ويخافونه ويرجون، فهم عبيده، كما أنكم عبيده، فلماذا تعبدونهم من دونه، وأنتم وهم عبيد له؟

وقد أمر سبحانه بالخوف منه في قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، فجعل الخوف منه شرطاً في تحقق الإيمان، وإن كان الشرط داخلياً في الصيغة على الإيمان فهو المشروط في المعنى، والخوف شرط في حصوله وتحقيقه.

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْا الْكَاسَ وَالْخَشُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. وقد أثنى سبحانه على أقرب عباده إليه بالخوف منه، فقال تعالى عن أنبيائه بعد أن أثنى عليهم ومــــدحهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ بِأَلْخَمِيرِ وَيَدْعُونَكَ رَجَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]. فالرجب: الرجاء والرغبة، والرهب: الخوف والخشية. وقال عن ملائكته الذين قد آمنهم من عذابه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنِّي أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً»^(١).

فكلما كان العبد بالله أعلم كان له أخوف. قال ابن مسعود: «كفى بخشية الله علماً». ونقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد به، فأعرف الناس أخشاهم لله. ومن عرف الله اشتد حياؤه منه وخوفه له وحبه له، وكلما ازداد معرفة ازداد حياءً وخوفاً وحباً.

(١) أخرجه البخاري (٦١٠١)، ومسلم (٢٣٥٦).

فالخوف من أجل منازل الطريق، وخوف الخاصة أعظم من خوف العامة، وهم إليه أحوج، وهو بهم ألصق، ولهم ألزم، فإنَّ العبد إمَّا أن يكون مستقيمًا، أو مائلًا عن الاستقامة، فإن كان مائلًا عن الاستقامة فخوفه من العقوبة على ميله، ولا يصحَّ الإيمان إلا بهذا الخوف، وهو ينشأ من ثلاثة أمور:

○ أحدها: معرفته بالجناية وقبحها.

○ والثاني: تصديق الوعيد وأنَّ الله ربَّ على المعصية عقوبتها.

○ والثالث: أنَّه لا يعلم لعلَّه يُمنع من التوبة ويُحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب.

فبهذه الأمور الثلاثة يتم له الخوف، وبحسب قوتها وضعفها تكون قوة الخوف وضعفه. فإنَّ الحامل على الذنب إمَّا أن يكون عدم علمه بقبحه، وإمَّا عدم علمه بسوء عاقبته، وإمَّا أن يجتمع له الأمران لكن يحمله عليه اتكاله على التوبة، وهو الغالب من ذنوب أهل الإيمان.

فإذا علم قبح الذنب، وعلم سوء مغيبته، وخاف أن لا يُفتح له باب التوبة بل يُمنعها ويحال بينه وبينها اشتدَّ خوفه، هذا قبل الذنب، فإذا عمله كان خوفه أشدَّ.

وأما إن كان مستقيمًا مع الله، فخوفه يكون مع جريان الأنفاس، لِعلمه بأنَّ الله مقلب القلوب، وما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عزَّ وجلَّ، فإن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يُزيغه أزاعه، كما ثبت عن النبي ﷺ. وكانت أكثر يمينه ﷺ: «لا ومقلب القلوب، لا ومقلب القلوب»^(١). وقال بعض السلف: «القلب أشدَّ تقلُّبًا من القدر إذا استجمعت غليانًا».

فالخوف الأوَّل ثمرة العلم بالوعد والوعيد، وهذا الخوف ثمرة العلم بقدرته الله وعزَّته وجلاله، وأنَّه الفعَّال لما يريد، وأنَّه المحرِّك للقلب، المصرِّف له، المقلب له

(١) أخرجه البخاري (٦٦١٧، ٦٦٢٨، ٧٣٩١).

كيف يشاء، لا إله إلا هو.

• **الوجه الثاني:** قوله: «ليس في منازل الخواصّ خوف» قد تبين فساده، وأنّ الخاصّة أشدّ خوفاً من العامّة.

• **الوجه الثالث:** قوله: «الغافل يعبد ربّه على وحشةٍ من نظره ونفرةٍ من الأنس به عند ذكره ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ الآية [الشورى: ٢٢]».

فهذا إنّما هو وحشة ونفار، وهو غير الخوف، فإنّ الوحشة إنّما تنشأ من عدم الخوف، وأمّا الخوف فإنّه يوجب هروباً إلى الله، وجمعيّةً عليه، وسكوناً إليه؛ فهي مخافة مقرونة بحلاوة وطمأنينة وسكينة ومحبة، بخلاف خوف المسيء الهارب من الله، فإنّه خوف مقرون بوحشة ونفرة.

• **الوجه الرابع:** أنّ استشهاده بقوله: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الشورى: ٢٢] ليس استشهداً صحيحاً، فإنّ هذا وصفٌ لحالهم في الآخرة عند معاينة العذاب أو عند الموت، فليست الآية من الخوف المأمور به في شيءٍ.

• **الوجه الخامس:** أنّ الخوف يتعلّق بالأفعال، وأمّا الحبّ فإنّه يتعلّق بالذات والصفات، ولهذا يزول الخوف في الجنّة، وأمّا الحبّ فيزداد.

ولمّا كان الحبّ يتعلّق بالذات كان من أسمائه سبحانه: «الودود». قال البخاري في صحيحه: «الحبيب». وأمّا الخوف فإنّ متعلّقه أفعال الربّ سبحانه، ولا يخرج عن كون سببه جناية العبد، وإن كانت جنايته من قدر الله، ولهذا قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «لا يرجو عبداً إلا ربّه، ولا يخاف عبداً إلا ذنبه». فمتعلّق الخوف ذنب العبد وعاقبته، وهي مفعولات للربّ، فليس الخوف عائداً إلى نفس الذات. والفرق بينه وبين الحبّ أنّ الحبّ سببه الكمال، وذاته تعالى لها الكمال

المطلق، وهو متعلّق الحبّ التام، وأمّا الخوف فسيبه توقّع المكروه، وهذا إنّما يكون في الأفعال والمفعولات.

• الوجه السادس: «وأمّا الخواصّ فإنّهم جعلوا الوعيد منه وعدّاء، والعذاب فيه عدّباء؛ لأنّهم شاهدوا المبتليّ والمعدّب، فاستعذبوا ما وجدوا في جنب ما شاهدوا...» إلى آخر كلامه.

فيقال: هذا الكلام ونحوه من رعونات النفس، ومن الشطحات التي يجب إنكارها، فمن الذي جعل وعيد الله وعدّاء، وعقابه ثواباً، وعذابه عدّباء؟ وهل هذا إلا إنكار لوعيده وعذابه في الحقيقة؟ وأيّ عذاب أشدّ من عذابه، نعوذ بالله منه قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢٠]. وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ ۖ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥-٢٦]. وهذا أظهر في كلّ ملّة من أن يحتاج إلى الاستدلال عليه. وإنّما ينسب هذا المذهب للملاحدة من القائلين بوحدة الوجود.

فصل في المحبة:

قال أبو العباس: «وأمّا المحبة فقد كثرت إشارة أهل التحقيق في العبارة عنها، وكلّ نطق بحسب ذوقه، وانفسح بمقدار شوقه».

قلت: الشيء إذا كان من الأمور الوجدانيّة الذوقيّة التي إنّما تعلم بآثارها وعلاماتها، وكان ممّا يقع فيه التفاوت بالشدّة والضعف، وكان له لوازم وآثار وعلامات متعددة اختلفت العبارات عنه بحسب اختلاف هذه الأشياء، وهذا شأن المحبة، فإنّها ليست بحقيقة معيّنة تُرى بالأبصار، فيشترك الواصفون لها في الصفة. وهي في نفسها متفاوتة أعظم تفاوت، ما بين العلاقة التي هي تعلّق القلب بالمحبوب، والخلة التي هي أعلى مراتب الحبّ؛ وبينهما درجات متفاوتة تفاوتاً لا ينحصر، ولها آثار توجّبه، وعلامات تدلّ عليها، فكلّ أدرك بعض آثارها أو بعض علاماتها، فعبر بحسب ما أدركه، وهي وراء ذلك كلّ: ليس اسمها كمسمّاها، ولا لفظها مبيّن لمعناها.

فصل [حدّ للمحبة والكلام عليه] :

قال: «وهي -على الإجمال قبل أن ننتهي إلى التفصيل- وجود تعظيم في القلب يمنع الانقياد لغير محبوه».

فيقال: التعظيم المانع من الانقياد لغير المحبوب هو أثر من آثار المحبة وموجب من موجباتها، لا أنه نفس المحبة، فإن المحبة إذا كانت صادقة أوجبت للمحب تعظيماً لمحبوه يمنعه من انقياده إلى غيره، وليس مجرد التعظيم هو المانع له من الانقياد إلى غيره، بل التعظيم المقارن للحب هو الذي يمنع من الانقياد إلى غير المحبوب، فإن التعظيم إذا كان مجرداً عن الحب لم يمنع انقياد القلب إلى غير المعظم، وكذلك إذا كان الحب خالياً عن التعظيم لم يمنع المحب أن ينقاد إلى غير محبوه، فإذا اقترن الحب بالتعظيم، وامتلاء القلب بهما، امتنع انقياده إلى غير المحبوب.

والمحبة المشتركة ثلاثة أنواع:

• أحدها: محبة طبيعية مشتركة، كمحبة الجائع للطعام، والظمان للماء، وغير ذلك. وهذه لا تستلزم التعظيم.

• والنوع الثاني: محبة رحمة وإشفاق، كمحبة الوالد لولده الطفل، ونحوها. وهذه أيضاً لا تستلزم التعظيم.

• والنوع الثالث: محبة أنس وإلف، وهي محبة المشتركين في صناعة أو علم أو مرافقة أو تجارة أو سفر لبعضهم بعضاً، وكمحبة الإخوة بعضهم بعضاً.

فهذه الأنواع الثلاثة هي المحبة التي تصلح للخلق بعضهم من بعض، ووجودها فيهم لا يكون شركاً في محبة الله. ولهذا كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل^(١)،

(١) أخرجه البخاري (٥٤٣١)، ومسلم (١٤٧٤).

وكان أحبّ الشراب إليه الحلو البارد^(١)، وكان أحبّ اللحم إليه الذراع^(٢).

وكان يحبّ نساءه، وكانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أحبَّهنَّ إليه^(٣). وكان يحبّ أصحابه، وأحبَّهم إليه الصديق^(٤) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأما المحبة الخاصة التي لا تصلح إلا لله وحده، ومتى أحبَّ العبدُ بها غيره كان شرًّا لا يغفره الله، فهي محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع، والتعظيم، وكمال الطاعة، وإيثاره على غيره، فهذه المحبة لا يجوز تعلقها بغير الله أصلاً، وهي التي سوّى المشركون بين آلهتهم وبين الله فيها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وأصحّ القولين أن المعنى: يحبونهم كما يحبّون الله، فيسوّون بين الله وبين أندادهم في الحب، ثم نفى ذلك عن المؤمنين فقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فإن الذين آمنوا أخلصوا حبهم لله لم يشركوا به معه غيره، وأما المشركون فلم يخلصوه لله.

والمقصود من الخلق والأمر إنّما هو هذه المحبة، وهي أوّل دعوة الرسل.

وآخر كلام العبد المؤمن الذي إذا مات عليه دخل الجنة اعترافه وإقراره بهذه المحبة، وإفراد الربّ تعالى بها، فهو أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا إلى الله. وجميع الأعمال كالأدوات والآلات لها، وجميع المقامات وسائل إليها، وأسبابٌ لتحصيلها وتكميلها وتحسينها من الشوائب والعلل، فهي قطب رحى السعادة، وروح الإيمان، وساق شجرة الإسلام، ولأجلها أنزل الله الكتاب والحديد:

(١) أخرجه الترمذي (١٨٩٥)، وأحمد في المسند (٧٤٩/٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٤)، والبخاري بنحوه (٣٣٤٠، ٤٧١٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).

(٤) الحديث السابق نفسه، فقد سئل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من أحبُّ الناس إليك؟ قال: «عائشة» قيل: من الرجال؟ قال: «أبوها».

فالكتاب هادٍ إليها، ودالٌّ عليها، ومفصّلٌ لها، والحديد لمن خرج عنها، وأشرك فيها مع الله غيره. ولأجلها خلقت الجنة والنار: فالجنة دار أهلها الذين أخلصوها لله وحده، فأخلصهم لها؛ والنار دار من أشرك فيها مع الله غيره، وسوّى بينه وبين الله فيها، كما أخبر تعالى عن أهلها أنّهم يقولون في النار لآلهتهم: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَنفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١٧) **إِذْ نُسَوِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴿ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

وهذه التسوية لم تكن منهم في الأفعال والصفات بحيث اعتقدوا أنّها مساوية لله في أفعاله وصفاته، وإنّما كانت تسويةً منهم بين الله وبينها في المحبة والعبودية فقط، مع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها؛ فتصحيح هذه المسألة هو تصحيح شهادة أن لا إله إلا الله. فحقيق بمن نصح نفسه وأحبّ سعادتها ونجاتها أن يتيقّظ لهذه المسألة علماً وعملاً وحالاً، وتكون أهمّ الأشياء عنده، وأجلّ علومه وأعماله؛ فإنّ الشأن كلّ فيها، والمدار عليها، والسؤال يوم القيامة عنها. قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٢) **عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴿ [الحجر: ٩٢-٩٣]. قال غير واحد من السلف: هو عن قول: «لا إله إلا الله». وهذا حقّ، فإنّ السؤال كلّ عنها وعن أحكامها وحقوقها وواجباتها ولوازمها، فلا يسأل أحدٌ قطّ إلا عنها وعن واجباتها ولوازمها وحقوقها.

قال أبو العالية: كلمتان يُسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ فالسؤال عمّا كانوا يعبدون هو السؤال عنها نفسها، والسؤال عمّا أجبوا المرسلين سؤالٌ عن الوسيلة والطريق المؤدية إليها: هل سلكوها وأجابوا الرسل لما دعوهم إليها؟ فعاد الأمر كلّ إليها.

وأمرٌ هذا شأنه حقيقٌ بأن تُثنى عليه الخناصر، ويُعَصَّ عليه بالنواجذ، ويُقبَضَ فيه على الجمر، ولا يؤخذ بأطراف الأنامل، ولا يُطلب على فضلة؛ بل يُجعل هو المطلب الأعظم، وما سواه إنّما يطلب على الفضلة. والله الموفق لا إله غيره، ولا ربّ سواه.

فصل [حد آخر للمحبة]:

قال: «وقيل: المحبة إيثار المحبوب على غيره».

وهذا الحدُّ أيضًا من جنس ما قبله، فإنَّ إيثار المحبوب على غيره موجب المحبة ومقتضاها، فإذا استقرَّت المحبة في القلب استدعت من المحبِّ إيثارَ محبوبه على غيره، وهذا الإيثار علامة ثبوتها وصحتها، فإذا أثر غير المحبوب عليه لم يكن محبًّا له، وإن زعم أنَّه محبٌّ، فإنَّما هو محبٌّ لنفسه ولحظِّه ممن يحبه، فإذا رأى حظًّا آخر هو أحبُّ إليه من حظِّه الذي يريده من محبوبه أثر ذلك الحظُّ المحبوب إليه.

وههنا دقيقة ينبغي التفطن لها، وهي أنَّ إيثار المحبوب نوعان: إيثار معاوضة ومتاجرة، وإيثار حبٍّ وإرادة؛ فالأوَّل يؤثر محبوبه على غيره طلبًا لحظِّه منه، فهو يبذل ما يؤثره ليعاوضه بخير منه. والثاني يؤثره إجابةً لداعي محبته، فإنَّ المحبة الصادقة تدعوه دائمًا إلى إيثار محبوبه، فإيثاره هو أجلُّ حظوظه. فحظُّه في نفس الإيثار، لا في العوض المطلوب بالإيثار، وهذا لا يفهمه إلا النفس اللطيفة الوادعة المشرقة، وأمَّا النفس الكثيفة فلا خبر عندها من هذا، وما هو بعشَّها فلتدرج! ^(١)

فصل**الكلام على الإيثار:**

والدين كلُّه والمعاملة في الإيثار، فإنَّه تقديم وتخصيص لمن تؤثره بما تؤثره به على نفسك، حتى قيل: إنَّ من شرطه الاحتياج من جهة المؤثر، إذ لو لم يكن محتاجًا إليه لكان بذله سخاءً وكرمًا، وهذا إنَّما يصح في إيثار المخلوق، والله سبحانه يؤثر عبده على غيره، من غير احتياج منه سبحانه، فإنَّه الغني الحميد.

وقيل: من أثر الله على غيره أثره الله على غيره.

(١) فلتدرج: فلتذهب، وفي المثل: ليس هذا بعشك فادرجي.

والفرق بين الإيثار والأثرة: أنَّ «الإيثار» تخصيص الغير بما تريده لنفسك. و«الأثرة» اختصاصك به على الغير. وفي الحديث: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في عُسرنا ويُسرنا، ومَنَشَطنا ومَكْرَهنا، وأثرة علينا»^(١).

إذا عرف هذا، فالإيثار إمَّا أن يتعلَّق بالخلق، وإمَّا أن يتعلَّق بالخالق، فإن تعلَّق بالخلق، فكماله أن تؤثرهم على نفسك بما لا يضيِّع عليك وقتًا، ولا يفسد عليك حالًا، ولا يهضم لك دينًا، ولا يسدّ عليك طريقًا، ولا يمنع لك واردًا، فإن كان في إيثارهم شيء من ذلك، فإيثارُ نفسك عليهم أولى، فإنَّ الرجلَ مَنْ لا يؤثر بنصيبه من الله أحدًا كائنًا من كان.

وهذا في غاية الصعوبة على السالك، والأول أسهل منه، فإنَّ الإيثار المحمود الذي أنشئ الله على فاعله الإيثار بالدنيا، لا بالوقت والدين وما يعود بصلاح القلب. قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقْ شَحَنَ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. فأخبر تعالى أنَّ إيثارهم إمَّا هو بالشيء الذي إذا وُقي الرجل الشحَّ به كان من المفلحين، وهذا إمَّا هو فضول الدنيا، لا الأوقات المصروفة في الطاعات؛ فإنَّ الفلاح كلُّ الفلاح في الشحِّ بها، فمن لم يكن شحيحًا بوقته تركه الناس على الأرض عريانًا مفلسًا؛ فالشح بالوقت هو عمارة القلب وحفظ رأس ماله.

وممَّا يدلُّ على هذا أنَّه سبحانه أمر بالمسابقة في أعمال البرِّ، والتنافس فيها، والمبادرة إليها؛ وهذا ضدُّ الإيثار بها. قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. وقال: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]. وقال: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]. وقال النبي ﷺ: «لو يعلمُ الناسُ ما في النداء والصفِّ الأوَّل لكانت قُرعة»^(٢). والقُرعة إمَّا تكون عند التزام

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥٦)، ومسلم (١٧٠٩).

(٢) أخرجه مسلم (٤٣٩).

والتنافس، لا عند الإيثار، فلم يجعل الشارع الطاعات والقربات محلاً للإيثار، بل محلاً للتنافس والمسابقة، ولهذا قال الفقهاء: «لا يستحب الإيثار بالقربات».

فإن قيل: فما الذي يُسهّل على النفس هذا الإيثار، فإن النفس مجبولة على الأثرة، لا على الإيثار؟

قيل: يسهله أمور:

• أحدها: رغبة العبد في مكارم الأخلاق ومعاليتها، فإن من أفضل أخلاق الرجل وأشرفها وأعلاها: الإيثار، وقد جبل الله القلوب على تعظيم صاحبه ومحبته، كما جبلها على بغض المستأثر ومقتته، لا تبديل لخلق الله.

والأخلاق ثلاثة: خلق الإيثار، وهو خلق الفضل، وخلق القسمة والتسوية، وهو خلق العدل، وخلق الاستئثار والاستبداد، وهو خلق الظلم.

• الثاني: النفرة من أخلاق اللئام، ومقت الشح وكراهته له.

• الثالث: تعظيم الحقوق التي جعلها الله للمسلمين بعضهم على بعض، فهو يراها حق رعايتها، ويخاف من تضييعها.

فصل

والإيثار المتعلق بالخالق أجل من هذا وأفضل، وهو إيثار رضاه على رضى غيره، وإيثار حبه على حب غيره، وإيثار خوفه ورجائه على خوف غيره ورجائه، وإيثار الذل له والخضوع والاستكانة والضراعة والتملّق على بذل ذلك لغيره. وكذلك إيثار الطلب منه والسؤال وإنزال الفاقات به على تعلّق ذلك بغيره.

فالأول أثر بعض العبيد على نفسه فيما هو محبوب له، وهذا أثر الله على غيره. ونفسه من أعظم الأغيار، فأثر الله عليها، فترك محبوبها لمحبوب الله.

وعلاوة صحّة هذا الإيثار شيان:

✽ أحدهما: فعلٌ ما يحبه الله إذا كانت النفس تكرهه وتهرب منه.

✽ والثاني: ترك ما يكرهه إذا كانت النفس تحبه وتهواه. فبهذين الأمرين يصحّ مقام الإيثار.

ومؤنة هذا الإيثار شديدة لغلبة الأغيار وقوة داعي العادة والطبع، فالمحنة فيه عظيمة، والمؤنة فيه شديدة، والنفس عنه ضعيفة، ولا يتمّ صلاح العبد وسعادته إلا به، وإنّه ليسيرٌ على من يسره الله عليه، ولا تتحقّق المحبّة إلا بهذا الإيثار.

والذي يسهّله على العبد أمور:

● أحدها: أن تكون طبيعته ليّنة منقادة سلسلة، ليست بجافية ولا قاسية، بل تنقاد معه بسهولة.

● الثاني: أن يكون إيمانه راسخاً ويقينه قوياً، فإنّ هذا ثمرة الإيمان ونتيجته.

● الثالث: قوة صبره وثباته، فهذه الأمور الثلاثة ينهض إلى هذا المقام، ويسهل عليه دركه.

والنقص والتخلّف في النفس عن هذا يكون من أمرين:

■ الأول: أن تكون جامدة غير سريعة الإدراك، بل بطيئة، فلا يكاد يرى حقيقة الشيء إلا بعد عسر، وإن رآها اقترنت به الأوهام والشكوك والشبهات والاحتمالات، فلا يتخلّص له رؤيتها وعيائها.

■ الثاني: أن تكون القريحة وقّادة درّاة، لكن النفس ضعيفة مهينة، إذا أبصرت الحقّ والرشد ضعفت عن إثاره، فصاحبها يسوقها سوق العليل المريض، كلّما ساقه خطوة وقف خطوة؛ أو كسّوق الطفل الصغير الذي قد تعلّقت نفسه بشهواته ومألوفاته، فهو يسوقه إلى رشد، وهو ملتفت إلى لهوه ولعبه لا ينساق معه إلا كرهاً. فإذا رزق العبد قريحة وقّادة، وطبيعةً منقادة: إذا زجرها انزجرت، وإذا قادها انقادت بسهولة وسرعة ولين؛

وأيدَّ مع ذلك بعلم نافع وإيمان راسخ، أقبلت إليه وفود السعادة من كلِّ جانب.

ولمَّا كانت هذه القرائح والطبائع ثابتةً للصحابة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ**، وكَمَّلَهَا اللهُ لهم بنور الإسلام وقوَّةَ اليقين ومباشرة الإيمان لقلوبهم، كانوا أفضل العالمين بعد الأنبياء والمرسلين. وكان مَنْ بعدهم لو أنفق مثل جبل أحد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفَهُ ^(١).

ومن تصوَّر هذا الموضع حقَّ تصوره علِمَ من أين يلزمه النقص والتأخُّر، ومن أين يتقدم ويترقَّى في درجات السعادة. وبالله التوفيق.

فصل [حد آخر للمحبة]:

قال: «وقيل: المحبة موافقة المحبوب فيما ساءَ وسرَّ، ونفع وضرَّ».

فيقال: وهذا الحدُّ أيضًا من جنس ما قبله، فإنَّ موافقة المحبوب من موجبات المحبة وثمراتها، وليست نفس المحبة؛ بل المحبة تستدعي الموافقة، وكلَّمَا كانت المحبة أقوى كانت الموافقة أتمَّ. قال تعالى: **﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾** [آل عمران: ٣١]. قال الحسن: قال قوم على عهد النبي **ﷺ**: إِنَّا نَحِبُّ رَبَّنَا، فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى هذه الآية: **﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾**.

قال مالك **رَحِمَهُ اللهُ** في هذه الآية: «من أحبَّ طاعةَ الله أحبَّه الله وحبَّه إلى خلقه».

وإنَّما كانت موافقة المحبوب دليلًا على محبَّته، لأنَّ من أحبَّ حييًّا فلا بدَّ أن يحبَّ ما يحبه ويبغض ما يبغضه، وإلا لم يكن محبًّا له محبة صادقة، بل إن تخلف ذلك عنه لم يكن محبًّا له، بل يكون محبًّا لمراده منه، أحبَّه محبوبه أم كرهه، ومحبوبه عنده وسيلة إلى ذلك المراد، فلو حصل له حظُّه من غيره لترحلَّ عن حبه، فهذه المحبة المدخولة الفاسدة. وإذا كانت المحبة الصحيحة تستدعي حبَّ ما يحبه المحبوب وبغض ما يبغضه، فلا بدَّ أن يوافقه فيه.

(١) يشير إلى ما رواه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠، ٢٥٤١).

ولكن ههنا مسألة يغلط فيها كثير من المدّعين للحب؛ وهي أنّ موافقة المحبوب في مراده ليس المعنيّ بها مراده الخَلقي الكوني، فإنّ كلّ الكون مراده، وكلّ ما يفعله الخلاق فهو موجب مشيئته وإرادته الكونية، فلو كانت موافقته في هذا المراد هي محبته لم يكن له عدوّ أصلاً، وكانت الشياطين والكفار والمشركون عبّاد الأوثان والشمس والقمر أولياءه وأحبابه، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

وإنّما يظنّ ذلك من يظنّه من أعدائه الجاحدين لإلهيته ودينه، الذين يسوّون بين أولياءه وأعدائه. قال الله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الباقية: ٢١]. وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٢٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]. فأنكر سبحانه على من سوّى بين المسلمين والمجرمين وبين المطيعين والمفسدين مع أنّ الكلّ تحت المراد الكوني والمشية العامة.

وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية -قدّس الله روحه- يقول: قال لي بعض شيوخ هؤلاء: المحبة نار تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب، والكون كلّ مراده، فأيّ شيء أبغض منه؟ قال: فقلت له: فإذا كان المحبوب قد أبغض بعض ما في الكون، فأبغض قومًا ولعنهم ومقتهم وعاداهم؛ فأحببتهم أنت وواليتهم، تكون موالياً للمحبوب موافقاً له، أو مخالفاً له معادياً له؟ قال: فكأنّما ألقم حجراً.

وبيلغ الجهل والكفر ببعض هؤلاء إلى حدّ بحيث إذا فعل محظوراً يزعم أنّه مطيع لله فيه، ويقول: أنا مطيع لإرادته، وينشد في ذلك:

أصبحتُ منفعلاً لما تختاره * * منّي ففعلي كلّ طاعات!

ويقول أحدهم: إبليس وإن عصى الأمر، لكنّه أطاع الإرادة! يعني أنّ فعله طاعة لله من حيث موافقة إرادته. وهذا انسلاخ من ربقة العقل والدين، وخروج عن الشرائع

كلّها؛ فإنّ الطاعة إنّما هي موافقة الأمر الديني الذي يحبّه الله ويرضاه. وأمّا دخوله تحت القدر الكوني الذي يبغضه ويسخطه ويكفرّ فاعله ويعاقبه، فهي المعصية والكفر ومعاداته ومعاداة دينه.

ولا ريب أنّ المسرفين على أنفسهم، المنهمكين في الذنوب والمعاصي، المعترفين بأنّهم عصاة مذنبون أقرب إلى الله من هؤلاء العارفين المنسلخين عن دين الأنبياء كلّهم، الذين لا عقل لهم ولا دين! فنسأل الله أن يثبت قلوبنا على دينه.

فصل [حدّ آخر للمحبة]:

قال: «وقيل: المحبة: القيام بين يديه وأنت قاعد، ومفارقة المضجع وأنت راقد، والسكوت وأنت ناطق، ومفارقة المألوف والوطن وأنت مستوطن».

فيقال: وهذا أيضًا أثر من آثار المحبة، وموجب من موجباتها، وحكم من أحكامها، وهو صحيح، فإنّ المحبة تُوجبُ سفرَ القلب نحو المحبوب دائمًا، والمحبُّ في وطنه قاطن، وتوجبُ مثوله وقيامه بين يدي محبوبه وهو قاعد، وتجافيه عن مضجعه ومفارقه إيّاه وهو فيه راقد، وفراغه لمحبوبه بكلّه وهو مشغول في الظاهر بغيره. كما قال بعضهم: وأديمُ نحوَ محدثي ليرى * أن قد عقلتُ وعندكم عقلي

ومحك هذه الحال يظهر في مواطن أربعة:

- أحدها: عند أخذ مضجعه وتفرّغ حواسه وجوارحه من الشواغل، واجتماع قلبه على ما يحبه، فإنّه لا ينام إلا على ذكر من يحبّه وشغل قلبه به.
- الموطن الثاني: عند انتباهه من النوم. فأول شيء يسبق إلى قلبه ذكر محبوبه، فإنّه إذا استيقظ ورُدّت إليه روحه، رُدّ معها إليه ذكر محبوبه الذي كان قد غاب عنه في النوم.
- الموطن الثالث: عند دخوله في الصلاة، فإنّها محكّ الأحوال وميزان الإيمان، بها يوزن إيمان الرجل، ويتحقّق حاله ومقامه ومقدار قربه من الله ونصيبه منه، فإنّها

محلّ المناجاة والقربة، ولا واسطة فيها بين العبد وبين ربّه، فلا شيء أقرّ لعين المحبّ ولا الدّلّ لقلبه ولا أنعم لعيشه منها إن كان محبّاً، فإنّه لا شيء أثر عند المحبّ ولا أطيب له من خلوته بمحبوبه، ومناجاته له، ومثوله بين يديه، وقد أقبل بقلبه على محبوبه، وقد أقبل محبوبه عليه، وكان قبل ذلك معدّلاً بمقاساة الأغيار ومواصلة الخلق والاشتغال بهم، فإذا قام إلى الصلاة هرب من سوى الله إليه، وأوى عنده، واطمأنّ بذكره، وقرّت عينه بالمثل بين يديه ومناجاته، فلا شيء أهمّ إليه من الصلاة، كأنّه في سجن وضيق وغمّ حتّى تحضر الصلاة، فيجد قلبه قد انفسح وانشرح واستراح، كما قال النبي ﷺ لبلال: «يا بلال، أرخنا بالصلاة»^(١) ولم يقل: أرخنا منها، كما يقول المبطلون الغافلون.

وقال بعض السلف: ليس بمستكمل الإيمان من لم يزل في همّ وغمّ حتّى تحضر الصلاة، فيزول همّه وغمّه، أو كما قال، فالصلاة قرّة عيون المحبين، وسرور أرواحهم، ولذة قلوبهم، وبهجة نفوسهم، يحملون همّ الفراغ منها إذا دخلوا فيها، كما يحمل الفراغ البطال همّها حتّى يقضيها بسرعة، فلمهم فيها شأن وللنقارين شأن! يشكون إلى الله سوء صنيعهم بهم إذا اتّمموا بهم، كما يشكو الغافل المعرض تطويل إمامه. فسبحان من فاضل بين النفوس، وفاوت بينها هذا التفاوت العظيم!

وبالجملة فمن كانت قرّة عينه في الصلاة فلا شيء أحبّ إليه وأنعم عنده منها، وبودّه أن لو قطع عمره بها غير مشغل بغيرها، وإنّما يسلي نفسه إذا فارقتها بأنّه سيعود إليها عن قرب، فهو دائماً يثوب إليها، ولا يقضي منها وطراً، فلا يزن العبد إيمانه ومحبّته لله بمثل ميزان الصلاة، فإنّها الميزان العادل، الذي وزنه غير عائل.

• **الموطن الرابع:** عند الشدائد والأهوال، فإنّ القلب في هذا الموطن لا يذكر إلّا أحبّ الأشياء إليه، ولا يهرب إلّا إلى محبوبه الأعظم عنده، ولهذا كانوا يفتخرون

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٨٥)، وأحمد في المسند (٥٤٧٦/١٠).

بذكرهم من يحبونهم عند الحرب واللقاء، وهو كثير في أشعارهم، كما قال:
ولقد ذكرْتُكَ والرماحُ كأنَّها * * أشطانُ بُرِّ في لَبانِ الأدهمِ^(١)

والسرّ في هذا - والله أعلم - أنّ عند معاينة الشدائد والأهوال يشتدّ خوف القلب من فوات أحبّ الأشياء إليه، وهي حياته التي لم يكن يؤثّر بها إلا لقربه من محبوبه، فهو إنّما يحبّ حياته لتنعمه بمحبوبه، فإذا خاف فوتها بدر إلى قلبه ذكرّ المحبوب الذي يفوت بفوات حياته. ولهذا - والله أعلم - كثيرًا ما يعرض للعبد عند موته لهجّه بما يحبه وكثرة ذكره له، وربما خرجت روحه، وهو يلهج به.

وأيضًا فإنّه عند الموت تنقطع شواغله، وتتعلّط حواسّه، فيظهر ما في القلب، ويقوى سلطانه، فيبدو ما فيه من غير حاجب ولا مدافع. وكثيرًا ما سُمِعَ من بعض المحتضرين عند الموت: «شاه مات». وسُمِعَ من آخر بيت شعر لم يزل يغني به، حتّى مات، وكان مغنيًا. وأخبرني رجل عن قرابة له أنّه حضره عند الموت - وكان تاجرًا يبيع القماش - قال: فجعل يقول: «هذه قطعة جيدة، هذه على قدرك، هذه مشترّاها رخيص تساوي كذا وكذا...» حتّى مات. والحكايات في هذا كثيرة جدًّا.

فمن كان مشغولًا بالله وبذكره ومحبته في حال حياته وجد ذلك أحوج ما هو إليه عند خروج روحه إلى الله. ومن كان مشغولًا بغيره في حال حياته وصحّته فيعسر عليه اشتغاله بالله وحضوره معه عند الموت، ما لم تدركه عناية من ربّه. ولأجل هذا كان جديرًا بالعاقل أن يلزم قلبه ولسانه ذكر الله حيثما كان، لأجل تلك اللحظة التي إن فاتته شقي شقاوة الأبد. فنسأل الله أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

فصل [حدود أخرى للمحبة]:

وقد قيل في المحبة حدود كثيرة غير ما ذكره أبو العباس.

(١) أشطان: جمع شطن وهو الحبل. لبان الأدهم: صدر فرسه. يقول: كنت أذكرك في أشد الأحوال، وهي حال إصابة رماح الأعداء صدر فرسي ودخولها فيه.

• **فقيل:** «المحبة ميل القلب إلى محبوبه». وهذا الحد لا يعطي تصوّر حقيقة المحبة، فإنّ المحبة أعرف عند القلب من الميل، وأيضاً فإنّ الميل لا يدلّ على حقيقة المحبة، فإنّها أخصّ من مجرد ميل القلب، إذ قد يميل قلب العبد إلى الشيء ولا يكون محبّاً له لمعرفته بمضرته له؛ فإن سمي هذا الميل محبة فهو اختلاف عبارة.

• **وقيل:** المحبة تعلّق القلب بالمحسوب.

• **وقيل:** سكون القلب إليه.

• **وقيل:** اشتغال القلب بالمحسوب بحيث لا يتفرغ قلبه لغيره.

• **وقيل:** شجرة تنبت في القلب تسقى بماء المراقبة، وإيثار رضى المحبوب.

• **وقيل:** المحبة صدق المجاهدة في أوامر الله، وتجريد المتابعة لسنة رسول الله ﷺ.

• وقال الحارث بن أسد: المحبة ميلك إلى المحبوب بكليتك، ثمّ إيثارك له على نفسك وروحك ومالك، ثمّ موافقتك له سرّاً وجهراً، ثمّ علمك بتقصيرك في حبه.

وقد قيل فيها حدود أكثر من هذا، وكلّ هذا تعنّ، ولا توصف المحبة ولا تحدّد بحدّ أوضح من المحبة، ولا أقرب إلى الفهم من لفظها، وأمّا ذكر الحدود والتعريفات، فإنّما يكون عند حصول الإشكال والاستعجام على الفهم، فإذا زال الإشكال وعُدِم الاستعجام فلا حاجة إلى ذكر الحدود والتعريفات، كما قال بعض العارفين: إنّ كلّ لفظ يعبر به عن الشيء فلا بدّ أن يكون ألطف وأرقّ منه، والمحبة ألطف وأرقّ من كلّ ما يعبر به عنها.

فصل

قال: «وأما محبة العوام فهي محبة تنبت من مطالعة المنّة، وتثبت باتباع السنّة، وتنمو على الإجابة للغاية، وهي محبة تقطع الوسواس، وتُلذذ الخدمة، وتسلي عن المصائب، وهي في طريق العوام عمدة الإيمان».

فيقال: لا ريب أنَّ المحبَّة درجات متفاوتة، بعضها أكمل من بعض، وكلَّ درجة خاصَّة بالنسبة إلى ما تحتها، عامَّة بالنسبة إلى ما فوقها؛ فليس انقسامها إلى خاصَّ وعامَّ انقسامًا حقيقيًّا متميزًا بفصل يميِّز أحد النوعين عن الآخر، وإنَّما تنقسم باعتبار الباعث عليها وسببها، وتنقسم بذلك إلى قسمين:

* أحدهما: محبة تنشأ من الإحسان، ومطالعة الآلاء والنعم، فإنَّ القلوب جُبلت على حبِّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها، ولا أحد أعظم إحسانًا من الله سبحانه، فإنَّ إحسانه على عبده في كلِّ نفس ولحظة، وهو يتقلَّب في إحسانه في جميع أحواله، ولا سبيل له إلى ضبط أجناس هذا الإحسان فضلًا عن أنواعه أو عن أفراده. وفي الترمذي ^(١) أنَّ النبي ﷺ لما رأى السحاب قال: «هذه روايا الأرض يسوقها الله إلى قوم لا يذكرونه، ولا يعبدونه».

وفي الصحيحين ^(٢) عنه ﷺ أنه قال: «لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، إنَّهم ليجعلون له الولد، وهو يرزقهم ويعافهم».

ولو لم يكن من تحبِّبه إلى عباده وإحسانه إليهم وبرِّه بهم إلَّا أنَّه سبحانه خلق لهم ما في السماوات والأرض وما في الدنيا والآخرة، ثمَّ أهلهم وكرَّمهم، وأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وشرع لهم شرائعه، وأذن لهم في مناجاته كلَّ وقت أرادوا، وكتب لهم بكلِّ حسنة يعملونها عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وكتب لهم بالسيئة واحدة، فإن تابوا منها محاها وأثبت مكانها حسنة. وإذا بلغت ذنوبُ أحدهم عَنان السماء ثمَّ استغفره غَفَرَ له، ولو لقيه بقُراب الأرض خطايا، ثمَّ لقيه بالتوحيد لا يشرك به شيئًا، لَأَتَاهُ بقُرابها مغفرةً.

وشرع لهم التوبة الهادمة للذنوب، فوفقهم لفعلها، ثمَّ قبلها منهم، وشرع لهم

(١) سنن الترمذي (٣٢٩٨).

(٢) البخاري (٦٠٩٩، ٧٣٧٨)، ومسلم (٢٨٠٤).

الحجّ الذي يهدم ما قبله، فوفّقهم لفعله، وكفّر عنهم سيئاتهم به، وكذلك ما شرعه لهم من الطاعات والقربات، هو الذي أمدهم بها، وخلقها لهم، وأعطاهم إيّاها، ورتّب عليها جزاءها، فمنه السبب، ومنه الجزاء، ومنه التوفيق، ومنه العطاء أولاً وآخرًا.

فكيف لا يحبّ من هذا شأنه؟ وكيف لا يستحيي العبد أن يصرف شيئاً من محبته إلى غيره؟ ومن أولى بالحمد والثناء والمحبة منه سبحانه؟ ومن أولى بالكرم والجود والإحسان منه؟ فسبحانه وبحمده، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

والله سبحانه دعا عباده إليه من هذا الباب، حتّى إذا دخلوا منه دُعوا من الباب الآخر، وهو باب الأسماء والصفات الذي إنّما يدخل منه إليه خواصّ عباده وأوليائه، وهو باب المحبّين حقّاً الذي لا يدخل منه غيرهم، ولا يشبّع من معرفته أحد منهم، بل كلّما بدا له منه علّم ازداد شوقاً ومحبّةً وظمأً.

فإذا انضمّ داعي الإحسان والإنعام إلى داعي الكمال والجمال لم يتخلّف عن محبة من هذا شأنه إلا أردأ القلوب وأخبثها وأشدّها نقصاً وأبعدها من كلّ خير. فإنّ الله فطر القلوب على محبة المحسن الكامل في أوصافه وأخلاقه، وإذا كانت هذه فطرة الله التي فطر عليها قلوب عباده، فمن المعلوم أنّه لا أحد أعظم إحساناً منه سبحانه، ولا شيء أكمل منه ولا أجمل؛ فكلّ كمال وجمال في المخلوق من آثار صنّعه سبحانه، وهو الذي لا يُحدّ كماله، ولا يوصّف جلاله وجماله، ولا يحصي أحد من خلقه ثناءً عليه بجميل صفاته وعظيم إحسانه وبديع أفعاله، بل هو كما أثنى على نفسه، وإذا كان الكمال محبوباً لذاته ونفسه وجبّ أن يكون الله هو المحبوب لذاته وصفاته، إذ لا شيء أكمل منه.

وكلّ اسم من أسمائه وصفة من صفاته تستدعي محبةً خاصّةً، فإنّ أسمائه كلّها حسنى، وهي مشتقة من صفاته، وأفعاله دالة عليها، فهو المحبوب المحمود لذاته ولصفاته وأفعاله وأسمائه، فهو المحبوب المحمود على كلّ ما فعل، وعلى كلّ ما أمر؛ إذ ليس في أفعاله عبث، ولا في أوامره سَفَه، بل أفعاله كلّها لا تخرج عن الحكمة والمصلحة

والعدل والفضل والرحمة، وكل واحد من ذلك يستوجب الحمد والثناء والمحبة عليها. وكلامه كله صدق وعدل، وجزاؤه كله فضل وعدل؛ فإنَّه إن أعطى فبفضله ورحمته ونعمته، وإن منع أو عاقب فبعده وحكمته.

ما للعباد عليه حق واجب *** كلاً ولا سعي لديه ضائع
 إن عذبوا فبعده، أو نعموا *** فبفضله، وهو الكريم الواسع
 ولا يتصور بشر هذا المقام حق تصوّره فضلاً عن أن يوفيه حقه. فأعرف خلقه به وأحبهم له يقول: «لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»^(١). ولو شهد العبد بقلبه صفة واحدة من أوصاف كماله لاستدعت منه المحبة التامة عليها.

والمقصود أن العبد إذا اعتبر كل كمال في الوجود وجده من آثار كماله سبحانه، فهو دال على كمال مبدعه؛ كما أن كل علم في الوجود فمن آثار علمه، وكل قدرة فمن آثار قدرته، ونسبة الكمالات الموجودة في العالم العلوي والسفلي إلى كماله كنسبة علوم الخلق وقدرهم وقواهم وحياتهم إلى علمه سبحانه وقدرته وقوته وحياته، فإذا لا نسبة أصلاً بين كمالات العالم وكمال الله **جَلَّ جَلَالُهُ**، فيجب أن لا يكون بين محبته تعالى ومحبة غيره من الموجودات نسبة، بل يكون حبّ العبد له أعظم من حبه لكل شيء بما لا نسبة بينهما. ولهذا قال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾** [البقرة: ١٦٥]. فالمؤمنون أشدّ حباً لرّبهم ومعبودهم تعالى من كل محبّ لكل محبوب. هذا مقتضى عقد الإيمان الذي لا يتمّ إلا به.

وليست هذه المسألة من المسائل التي للعبد عنها غنى أو منها بدّ، كدقائق العلم والمسائل التي يختصّ بها بعض الناس دون بعض، بل هذه أفرص مسألة على العبد، وهي أصل عقد الإيمان الذي لا يدخل فيه الداخل إلا بها، ولا فلاح للعبد ولا نجاة له

(١) أخرجه مسلم (٤٨٦).

من عذاب الله إلا بها، فليشتغل بها العبد أو ليُعرض عنها.

فالمحبة أصل كل خير في الدنيا والآخرة، كما قال سَمْنُون: ذهب المحبّون لله بشرف الدنيا والآخرة، فإنَّ النبي ﷺ قال: «المرءُ مع من أحبَّ»^(١)، فهم مع الله تعالى.

وقوله: «وهي في طريق العوامِّ عمدة الإيمان» كلام قاصر، فإنَّها عمود الإيمان وعمدته وساقه الذي لا يقوم إلا عليه، فلا إيمان بدونها البتّة، وإنَّما مراده أن هذه المحبة الخاصّة التي تنشأ من رؤية النعم هي عمدة إيمان العوامِّ، وأمّا الخواصّ فعمدة إيمانهم محبة تنشأ من معرفة الكمال ومطالعة الأسماء والصفات.

فصل في الشوق:

قال أبو العبّاس: «وأما الشوق فهو هبوب القلب إلى غائب، وإعواز الصبر عن فقده، وارتياح السرِّ إلى طلبه؛ وهو من مقامات العوامِّ، فأما الخواصّ فهو عندهم علّة عظيمة؛ لأنَّ الشوق إنَّما يكون إلى غائب».

اختلف النَّاس في الشوق والمحبة أيُّهما أعلى؟ فقالت طائفة: المحبة أعلى من الشوق؛ هذا قول ابن عطاء وغيره، واحتجُّوا بأنَّ الشوق غايته أن يكون أثرًا من آثار المحبة، ويتولّد عنها: فهي أصله، وهو فرعها. قالوا: والمحبة توجب آثارًا كثيرةً، فمن آثارها الشوق.

وقالت طائفة منهم سريّ السقّطي وغيره: الشوق أعلى. قال الجنيد: سمعت السريّ يقول: الشوق أجلّ مقامات العارف إذا تحقّق فيه. وإذا تحقّق في الشوق لها عن كل شيء يشغله عمّن يشتاّق إليه.

وإنَّما يظهر سرّ المسألة بذكر فصلين:

الفصل الأوّل: في حقيقة الشوق. والثاني: في الفرق بينه وبين المحبة. ويتبع ذلك

(١) أخرجه البخاري (٦١٦٨، ٦١٦٩)، ومسلم (٢٦٤٠).

خمس مسائل:

* الفصل الأول في حقيقته:

• الشوق هو سفر القلب في طلب محبوبه، بحيث لا يقرّ قراره حتّى يظفر به ويحصل له.

• وقيل: هو لهيب ينشأ بين أثناء الحشا، سببه الفرقة. فإذا وقع اللقاء أطفأ ذلك اللهب.

• وقيل: الشوق هبوب القلب إلى محبوب غائب عنه.

فهذه الحدود ونحوها مشتركة في أنّ الشوق إنّما يكون مع الغيبة من المحبوب، وأمّا مع حضوره ولقائه فلا شوق، وهذه حجة من جعل المحبة أعلى منه، فإنّ المحبة لا تزول باللقاء، وبهذا يتبين الكلام في:

* الفصل الثاني، وهو الفرق بينه وبين المحبة

والفرق بينهما فرق ما بين الشيء وأثره، فإنّ الحامل على الشوق هو المحبة، ولهذا يقال: لمحبتي له اشتقت إليه، وأحبته فاشتقت إلى لقائه، ولا يقال: لشوقي إليه أحبته، ولا: اشتقت إلى لقائه فأحبته. فالمحبة بذّر في القلب، والشوق بعض ثمرات ذلك البذر.

وكذلك من ثمراتها: حمدُ المحبوب، والرضا عنه، وشكره، وخوفه، ورجاؤه، والتنعّم بذكره، والسكون إليه، والأنس به، والوحشة بغيره، وكلّ هذه من أحكام المحبة، وثمراتها، وموجباتها.

فمنزلة الشوق من المحبة منزلة الهرب من البغضاء والكراهة، فإنّ القلب إذا أبغض الشيء وكرهه جدّ في الهرب منه، وإذا أحبه جدّ في الهرب إليه وطلبه؛ فهو حركة القلب في الظفر بمحبوبه.

ولشدّة ارتباط الشوق بالمحبّة يقع كلّ واحد منهما موقع صاحبه، ويُفهم منه، ويُعبّر به عنه.

فصل

■ وأمّا المسائل فأحداها: هل يجوز إطلاقه على الله تعالى؟

فهذا ممّا لم يرد به القرآن ولا السنّة بصريح لفظه. قال صاحب «منازل السائرین» وغيره: وسبب ذلك أنّ الشوق إنّما يكون لغائب، ومذهب هذه الطائفة إنّما قام على المشاهدة، ولهذا السبب عندهم لم يجرى في حقّ الله ولا في حقّ العبد.

والصواب أن يقال: إطلاق اللفظ متوقّف على السمع، ولم يردّ به، فلا ينبغي إطلاقه، وهذا كلفظ «العشق» أيضًا، فإنّه لمّا لم يردّ به سمعٌ فإنّه يمتنع إطلاقه عليه سبحانه، واللفظ الذي أطلقه سبحانه على نفسه وأخبر به عنها أتمّ من هذا وأجلّ شأنًا، وهو لفظ «المحبّة». فإنّه سبحانه يوصف من كلّ صفة كمالٍ بأكملها وأجلّها وأعلاها، فيوصف من الإرادة بأكملها، وهو الحكمة وحصول كلّ ما يريد بإرادته كما قال تعالى: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦] وبإرادة اليسر لا العسر، كما قال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وبإرادة الإحسان وإتمام النعمة على عباده، كقوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧]. فإرادة التوبة له، وإرادة الميل لمُتبعي الشهوات. وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُنِزِلَ عَلَيْكُمْ غَلَقًا﴾ [المائدة: ٦].

وكذلك الكلام، يصف نفسه منه بأعلى أنواعه، كالصدق والعدل والحق. وكذلك الفعل، يصف نفسه منه بأكمله وهو العدل والحكمة والمصلحة والنعمة.

وهكذا المحبة، وصف نفسه منها بأعلاها وأشرفها، فقال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ

وَيُحِبُّونَهُ ﴿[المائدة: ٥٤]، ﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] و﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] و﴿يُحِبُّ الصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]. ولم يصف نفسه بغيرها من العلاقة والميل والصبابة والعشق والغرام ونحوها، فإنَّ مسمَّى المحبَّة أشرف وأكمل من هذه المسمَّيات، فجاء في حقِّه إطلاقه دونها، وهذه المسمَّيات لا تنفك عن لوازم ومعاني تنزّه تعالى عن الاتِّصاف بها.

وهذا كلفظ الفاعل والصانع فإنَّه لا يطلق عليه في أسمائه الحسنی إلا إطلاقاً مقيداً، كما أطلقه على نفسه، كقوله تعالى: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقوله: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، فإنَّ اسم الفاعل والصانع منقسم المعنى إلى ما يمدح عليه ويدم.

ولهذا المعنى - والله أعلم - لم يجرى في الأسماء الحسنی «المريد»، كما جاء فيها «السميع البصير»، ولا «المتكلم»، ولا «الأمر الناهي»، لانقسام مسمَّى هذه الأسماء؛ بل ووصف نفسه بكمالاتها وأشرف أنواعها.

ومن هنا يُعَلِّم غلط بعض المتأخرين وزلَّقه الفاحش في اشتقاقه له سبحانه من كلِّ فعل أخبر به عن نفسه اسماً مطلقاً، وأدخله في أسمائه الحسنی! فاشتقَّ له اسم الماكر، والخادع، والفاتن، والمضلِّ، والكاتب، ونحوها من قوله: ﴿وَيَمَكُرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ومن قوله: ﴿وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] ومن قوله: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١] ومن قوله: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الرعد: ٢٧]، وقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ [المجادلة: ٢١].

وهذا خطأ من وجوه:

- أحدها: أنَّه سبحانه لم يطلق على نفسه هذه الأسماء، فإطلاقها عليه لا يجوز.
- الثاني: أنَّه سبحانه إنَّما أخبر عن نفسه بأفعال مختصة مقيَّدة، فلا يجوز أن

ينسب إليه مسمًى الاسم عند الإطلاق.

○ **الثالث:** أن مسمًى هذه الأسماء منقسم إلى ما يمدح عليه المسمًى به، وإلى ما يذم. فيحسن في موضع، ويقبح في موضع. فيمتنع إطلاقه عليه سبحانه من غير تفصيل.

○ **الرابع:** أن هذه ليست من الأسماء الحسنى التي تسمى بها سبحانه، فلا يجوز أن يسمًى بها، فإن أسماء الرب تعالى كلها حسنى. كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وهي التي يحبُّ سبحانه ويثنى عليه ويحمد ويمجد بها دون غيرها.

○ **الخامس:** أن هذا القائل لو سُمِّي بهذه الأسماء، وقيل له: هذه مدحتك وثناء عليك، فأنت الماكر الفاتن المخادع المضلل اللاعن الفاعل الصانع ونحوها، أكان يرضى بإطلاق هذه الأسماء عليه ويعدّها مدحة؟ والله المثل الأعلى **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** عما يقول الجاهلون به علواً كبيراً.

○ **السادس:** أن هذا القائل يلزمه أن يجعل من أسمائه: اللاعن، والجاني، والآتي، والذاهب، والتارك، والمقاتل، والصارف، والمنزل، والنازل، والمدمدم، والمدمر، وأضعاف أضعاف ذلك؛ فيشتق له اسماً من كل فعل أخبر به عن نفسه، وإلا تناقض تناقضاً بيناً، ولا يمكنه ولا أحداً من العقلاء طرد ذلك. فعلم بطلان قوله، والحمد لله رب العالمين.

فصل

■ **وأما المسألة الثانية وهي:** هل يطلق على العبد أنه يشاق إلى الله وإلى لقاءه؟

فهذا غير ممتنع، فقد روى الإمام أحمد في مسنده ^(١) والنسائي ^(٢) وغيرهما من

(١) المسند (١٨٣٢٥).

حديث حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن أبيه قال: صَلَّى بنا عَمَّارُ بن يَاسِرٍ صلاةً فأَوْجَزَ فيها، فَقُلْتُ: خَفَّفْتَ يَا أبا اليَقْظَانِ، فَقَالَ: وما عَلَيَّ من ذلك، ولقد دَعَوْتُ الله بدَعَوَاتٍ سَمِعْتُهَا من رَسولِ الله ﷺ. فَلَمَّا قام تَبِعَهُ رَجُلٌ من القوم فسأله عن الدَعَوَاتِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ بعلمك الغيبَ وقدرتك على الخلق أَحْيِنِي ما علمتَ الحِياةَ خَيْرًا لِي، وتوفَّني إذا علمتَ الوفاةَ خَيْرًا لِي. اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ في الغيب والشهادة، وأَسْأَلُكَ كلمةَ الحَقِّ في الغضب والرضا، وأَسْأَلُكَ القصدَ في الغنى والفقر، وأَسْأَلُكَ نعيمًا لا يَنفَدُ، وقرَّةَ عَيْنٍ لا تَنقُطُ. وأَسْأَلُكَ الرضا بعد القضاء، وبرَدَ العيشِ بعد الموت. وأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النظرِ إلى وجهك، والشوقَ إلى لِقائِكَ، في غيرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ ولا فتنةٍ مُضِلَّةٍ. اللهم زَيِّنَا بِزينةِ الإيمانِ، واجعلنا هُداةً مُهْتَدِينَ».

فهذا فيه إثباتٌ لَذَّةِ النظرِ إلى وجهه الكريم، وشوقِ أحبابه إليه وإلى لقائه. فإنَّ حقيقة الشوق إليه هو الشوق إلى لقائه.

فظهر أنَّ قوله: «إِنَّ الشوقَ علَّةٌ عظيمةٌ في طريق الخواصِّ» كلام باطل على كلِّ تقدير، وأنَّ الشوقَ بالحقيقة إنَّما هو شوق الخواصِّ العارفين بالله. والعبد إذا كان له مع الله حال أو مقام، وكُشِفَ له عَمَّا هو أَفْضَلُ منه وأَجَلُّ؛ اشتاقَ إليه بالضرورة، ولم يكن شوقه علَّةً له ونقصًا في حاله، بل زيادةً وكمالًا؛ ويكون ترك الشوق هو العلَّة.

فصل

■ وأما المسألة الثالثة وهي: هل يزول الشوق باللقاء أم يقوى؟

وفصل الخطاب في المسألة أنَّ المحبَّ إذا اشتاق إلى لقاء محبوبه، فإذا حصل له اللقاء زال ذلك الشوق الذي كان متعلِّقًا بلقائه، وخلفه شوق آخر أعظم منه وأبلغ إلى ما يزيد قربه والخطوة عنده، وأما إذا قدر أنه لقيه ثمَّ احتجب عنه ازداد شوقه إلى لقاء آخر، ولا يزال يحصل له الشوق كلما حُجِبَ عنه، فهذا لا ينقطع شوقه أبدًا، فهو

إذا رآه بلّ شوقه برؤيته، وإذا زال عنه الطرف عاوده الشوق، كما قيل:
 ما يرجع الطرف عنه عند رؤيته ** حتى يعود إليه الطرف مشتاقا
 وإنّما الشأن في دوام الشوق حال الوصول واللقاء.
 فاعلم أنّ الشوق نوعان:

○ شوق إلى اللقاء، فهذا يزول باللقاء.

○ وشوق في حال اللقاء، وهو تعلّق الروح بالمحبيب تعلّقاً لا ينقطع أبداً، فلا
 تزال الروح مشتاقةً إلى مزيد هذا التعلّق وقوّته اشتياقاً لا يهدأ.

فالشوق في حال الوصل والقرب إلى مزيد من النعيم واللذة لا ينقطع، والشوق
 في حال السير إلى اللقاء ينقطع. ونستغفر الله من الكلام فيما لسنّا بأهل له.
 فالخوفُ أولى بالمسي ** ء إذا تألّسه والحبُّ زَن
 والحبُّ يجمُل بالتقي ** وبالنقي من الدَرَن
 لكن إذا مالِم يُحِبُّ ** كُـم المسي ء إذن فَمَن

فصل [في مراتب المكلفين في الدار الآخرة وطبقاتهم فيها وهم ثمان عشرة طبقة]:

* الطبقة الأولى وهي العليا على الإطلاق: مرتبة الرسالة، فأكرمُ الخلق على
 الله وأخصُّهم بالزلفى لديه رسله، وهم المصطفون من عباده الذين سلّم عليهم في
 العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨١]. وقال: ﴿سَلِّمْ عَلَى نُوحٍ
 فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩]، ﴿سَلِّمْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (١٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ [الصافات: ١٠٩-
 ١١٠]، ﴿سَلِّمْ عَلَى إِيْلَ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠].

وقال تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩] ويكفي في
 فضلهم وشرفهم أنّ الله سبحانه اختصَّهم بوحيه، وجعلهم أُمَناء على رسالته، ووسائط

بينه وبين عباده، وخصَّهم بأنواع كرامته: فمنهم من اتخذه خليلاً، ومنهم من كلَّمه تَكليماً، ومنهم من رفعه على سائرهم درجات. ولم يجعل لعباده وصولاً إليه إلا من طريقهم، ولا دخولاً إلى جنته إلا من خلفهم، ولم يكرم أحداً منهم بكرامة إلا على أيديهم؛ فهم أقرب الخلق إليه وسيلة، وأرفعهم عنده درجة، وأحبهم إليه وأكرمهم عليه.

*** الطبقة الثانية:** من عداهم من الرسل على مراتبهم من تفضيلهم بعضهم على بعض.

*** الطبقة الثالثة:** الأنبياء الذين لم يُرسلوا إلى أممهم، وإنما كانت لهم النبوة دون الرسالة، فاختصُّوا عن الأمة بإيحاء الله إليهم، وإرساله ملائكته إليهم، واختصَّت الرسل عنهم بإرسالهم إلى الأمة يدعونهم إلى الله بشريعته وأمره، واشتركوا في الوحي ونزول الملائكة عليهم.

*** الطبقة الرابعة:** ورثة الرسل وخلفاؤهم في أممهم، وهم القائمون بما بُعثوا به علماً وعملاً ودعوةً للخلق إلى الله على طريقهم ومنهاجهم. وهذه أفضل مراتب الخلق بعد الرسالة والنبوة، وهي مرتبة الصديقية.

ولهذا قرّنهم الله تعالى في كتابه بالأنبياء فقال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ

الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۖ

[النساء: ٦٩]، فجعل درجة الصديقية تلي درجة النبوة. وهؤلاء هم الربانيون، وهم الراسخون في العلم، وهم الوسائط بين الرسول ﷺ وأُمَّته، فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحَمَلَةُ دينه، وهم المضمون لهم أنَّهم لا يزالون على الحق لا يضرُّهم من خذلهم ولا من خالفهم حتَّى يأتي أمر الله وهم على ذلك.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ

أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ﴾ [الحديد: ١٩].

ومرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء، ولهذا قدمهم عليهم في الآيتين: هنا وفي سورة النساء. وهكذا جاء ذكرهم مقدّمًا على الشهداء في كلام النبي ﷺ في قوله: «اثبتُّ أحدًا، فإنما عليك نبيّ وصديق وشهيدان»^(١). ولهذا كان نعت الصديقية وصفًا لأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين، وهو أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ولو كان بعد النبوة درجة أفضل من الصديقية لكانت لقبًا له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والمقصود أن درجة الصديقية والرّبانية، ووراثه النبوة وخلافة الرسالة هي أفضل درجات الأمة، ولو لم يكن من فضلها وشرفها إلا أن كلّ من علم بتعليمهم وإرشادهم أو علّم غيره شيئًا من ذلك كان لهم مثل أجره ما دام ذلك جاريًا في الأمة على أباد الدهور. وقد صحّ عن النبي ﷺ أنه قال لعليّ بن أبي طالب: «والله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من حُمْر النّعم»^(٢).

وصحّ عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «من سنّ في الإسلام سنّةً حسنّةً فعُمِلَ بها بعده كان له مثلُ أجر مَنْ عمل بها، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا»^(٣).

وصحّ عنه أنه قال: «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له»^(٤).

وصحّ عنه أنه قال: «مَنْ يُردِ الله به خيرًا يُفَقِّهه في الدين»^(٥).

وفي السنن عنه أنه قال: «إنّ العالم يستغفر له مَنْ في السماوات وَمَنْ في الأرضِ حتّى النملة في جحرها»^(٦).

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦).

(٣) أخرجه مسلم (١٠١٧).

(٤) أخرجه مسلم (١٦٣١).

(٥) أخرجه البخاري (٣١١٦، ٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

(٦) أخرجه ابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد في المسند (٥٠٨٢ / ٩).

وعنه عليه السلام أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يَصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ»^(١).

والأحاديث في هذا كثيرة جدًا.

فيا لها من مرتبةٍ ما أعلاها، ومنقبةٍ ما أجلّها وأسناها، أن يكون المرءُ في حياته مشغولاً ببعض أشغاله، أو في قبره قد صار أشلاءً متمزّقةً وأوصالاً متفرّقة، وصحفٌ حسناته متزايدةٌ تملأُ فيها الحسنات كلّ وقت، وأعمال الخير مهداةٌ إليه من حيث لا يحتسب. تلك - والله - المكارم والغنائم! وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، وعليه يحسد الحاسدون! وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وحقيق بمرتبةٍ هذا شأنها أن تُنْفَقَ نفائس الأنفاس عليها، ويستبق السابقون إليها، وتوفّر عليها الأوقات، وتتوجّه نحوها الطلبات. فنسأل الله الذي بيده مفاتيح كلّ خير أن يفتح علينا خزائن رحمته، ويجعلنا من أهل هذه الصفة بمنه وكرمه.

وأصحاب هذه المرتبة يُدْعَوْنَ عظماء في ملكوت السماء، كما قال بعض السلف: «مَنْ عِلِمَ وَعَمِلَ وَعَلِمَ فَذَلِكَ يُدْعَى عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ».

وما أحسن ما قال فيهم الإمام أحمد في خطبة كتابه «الردّ على الجهمية»: «الحمد لله الذي جعل في كلّ زمانٍ فترةٍ من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضلّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، ومن ضالّ جاهل قد هدّوه. فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم! ينفون عن كتاب الله تأويل الجاهلين، وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين».

*** الطبقة الخامسة:** أئمة العدل وولاته الذين تأمّن بهم السبل، ويستقيم بهم العالم، ويستنصر بهم الضعيف، ويذلّ بهم الظالم، ويأمن بهم الخائف، وتقام بهم

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥)، والطبراني في الكبير (٧٩١٢).

الحدود، ويُدفع بهم الفساد، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقام بهم حكم الكتاب والسنة، وتُطفأ بهم نيران البدع والضلالة.

قال النبي ﷺ: «المقسطون عند الله على منابر من نور يوم القيامة عن يمين الرحمن تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهلهم وما ولّوا»^(١).

وهم أحد السبعة الأصناف الذين يظللهم الله في ظلّ عرشه يوم لا ظلّ إلا ظله^(٢). وكما كان الناس في ظلّ عدلهم في الدنيا، كانوا هم في ظلّ عرش الرحمن يوم القيامة ظللاً بظلّ جزاءً وفاً.

ولو لم يكن من فضلهم وشرفهم إلا أنّ أهل السماوات والأرض والطير في الهواء يصلّون عليهم ويستغفرون لهم ويدعون لهم، وولاة الظلم يلعنهم من بين السماء والأرض حتّى الدوابّ والطير، كما أنّ معلّم الناس الخير يصلّي عليه الله وملائكته، وكاتم العلم والهدى الذي أنزله الله وحامل أهله على كتمانها يلعنه الله وملائكته ويلعنه اللاعنون.

فيا لها من منقبة ومرتبة ما أجلّها وأشرفها: أن يكون الوالي والإمام على فراشه، وغيره يعمل بالخير، وتكتب الحسنات في صحائفه! فهي متزايدة ما دام يعمل بعدله، وكساعة واحدة منه خير من عبادة أعوام من غيره! فأين هذا من صفة الغاش لرعيته، الظالم لهم، الذي قد حرّم الله عليه الجنة وأوجب له النار!

*** الطبقة السادسة:** المجاهدون في سبيل الله، وهم جند الله الذين يقيم بهم دينه، ويدفع بهم بأس أعدائه، ويحفظ بهم بيضة الإسلام، ويحمي بهم حوزة الدين؛ وهم الذين يقاتلون أعداء الله ليكون الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا، قد بذلوا أنفسهم في محبة الله ونصر دينه وإعلاء كلمته ودفع أعدائه. وهم شركاء لكل من يحمونه

(١) أخرجه مسلم (١٨٢٧).

(٢) يشير إلى ما رواه البخاري (٦٦٠، ١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١).

بسيوفهم، في أعمالهم التي يعملونها، وإن تناءت ديارهم، ولهم مثل أجور من عبد الله بسبب جهادهم وفتوحهم، فإنهم كانوا هم السبب فيه، والشارع قد نزل المتسبب منزلة الفاعل التام في الأجر والوزر، ولهذا كان الداعي إلى الهدى والداعي إلى الضلال لكل منهما بتسببه مثل أجر من اتبعه.

وقد تظاهرت آيات الكتاب وتواترت نصوص السنة على الترغيب في الجهاد، والحض عليه، ومدح أهله، والإخبار عما لهم عند ربهم من أنواع الكرامات والعطايا الجزليات، ويكفي في ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَخْرَجٍ تُنَجِّكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠] فتشوفت النفوس إلى هذه التجارة الرباحة التي الدال عليها رب العالمين العليم الحكيم، فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ فكأن النفوس ضنت بحياتها وبقائها، فقال: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني أن الجهاد خير لكم من قعودكم طلباً للحياة والسلامة، فكأنها قالت: فما لنا في هذا الجهاد من الحظ؟ فقال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ﴾ مع المغفرة ﴿يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. فكأنها قالت: هذا في الآخرة فماذا لنا في الدنيا؟ فقال: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فلله ما أحلى هذه الألفاظ وما ألصقها بالقلوب وما أعظمها جذباً لها وتسييراً إلى ربها، وما ألطف موقعها من قلب كل محب! وما أعظم غنى القلب وأطيب عيشه حين تباشره معانيها! فنسأل الله من فضله إنه جواد كريم.

*** الطبقة السابعة:** أهل الإيثار والصدقة والإحسان إلى الناس بأموالهم على اختلاف حاجاتهم ومصالحهم، من تفريج كرباتهم، ودفع ضروراتهم، وكفائتهم في مهماتهم. وهم أحد الصنفين اللذين قال النبي ﷺ فيهم: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس، ورجل آتاه الله مالا وسلطه علىهلكته

في الحق^(١). يعني أنّه لا ينبغي لأحد أن يغبط أحداً على نعمة ويتمنى مثلها إلا أحد هذين. وذلك لما فيهما من النفع العام والإحسان المتعدّي إلى الخلق: فهذا ينفعهم بعلمه، وهذا ينفعهم بماله. «والخلق كلّهم عيال الله، وأحبّهم إليه أنفعهم لعياله». ولا ريب أن هذين الصنفين من أنفع الناس لعيال الله، ولا يقوم أمر الناس إلا بهذين الصنفين، ولا يعمر العالم إلا بهما.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

وقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١].

فصدّر سبحانه الآية بالطف أنوع الخطاب، وهو الاستفهام المتضمن لمعنى الطلب، وهو أبلغ في اللطف من صيغة الأمر، والمعنى: هل أحد يبذل هذا القرض الحسن، فيجازي عليه أضعافاً مضاعفة؟

وسمّى ذلك الإنفاق قرضاً حثاً للنفوس وبعثاً لها على البذل، لأنّ الباذل متى علم أنّ عين ماله يعود إليه ولا بدّ، طوّعت له نفسه بذلك، وسهل عليه إخراجّه.

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وهذه الآية كأنّها كال تفسير والبيان لمقدار الأضعاف التي يضاعفها للمقرض، ومثله سبحانه بهذا المثل إحضاراً للصورة التضعيف في الأذهان بهذه الحبة التي غيّت في الأرض، فأنبت سبع سنابل، في كلّ سنبل مائة حبة، حتّى كأنّ القلب ينظر إلى هذا التضعيف ببصيرته، كما تنظر العين إلى هذه السنابل التي هي من الحبة الواحدة. فينضاف الشاهد العياني إلى الشاهد الإيماني القرآني، فيقوى إيمان المنفق، وتسخو نفسه بالإنفاق.

(١) أخرجه البخاري (٧٣، ١٤٠٩)، ومسلم (٨١٦).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

هذا بيان للقرض الحسن ما هو؟ وهو أن يكون في سبيله، أي: في مرضاته والطريق الموصلة إليه، ومن أهمها سبيل الجهاد. ف«سبيل الله» خاص وعام، والخاص جزء من السبيل العام.

ونبه بقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٢] على أن المن والأذى -ولو تراخى عن الصدقة، وطال زمنه- ضررٌ بصاحبه، ولم يحصل له مقصود الإنفاق.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

فأخبر سبحانه أن القول المعروف -وهو الذي تعرفه القلوب ولا تنكره- والمغفرة -وهي العفو عمَّن أساء إليك- خيرٌ من الصدقة المقرونة بالأذى.

ويدخل في هذا القول المعروف: الردُّ الجميل على السائل، والعدة الحسنة، والدعاء الصالح له. ويدخل في المغفرة: مغفرته للسائل إذا وجد منه بعض الجفوة والأذى بسبب رده، فيكون عفوهُ عنه خيرًا من أن يتصدق عليه ويؤذيه.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

فتضمنت هذه الآية الإخبار بأن المن والأذى يحبط الصدقة، وهذا دليل على أن الحسنة قد تحبط بالسيئة، مع قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

فهذه الطبقات الأربعة من طبقات الأمة هم أهل الإحسان والنفع المتعدّي وهم: العلماء، وأئمة العدل، وأهل الجهاد، وأهل الصدقة وبذل الأموال في مرضاة الله. فهؤلاء ملوك الآخرة، وصحائف حسناتهم متزايدة، تملأ فيها الحسنات وهم في بطون الأرض، ما دامت آثارهم في الدنيا، فيا لها من نعمة ما أجلّها، وكرامة ما أعظمها! يختص الله بها من يشاء من عباده.

*** الطبقة الثامنة:** طبقة من فتح الله له باباً من أبواب الخير القاصر على نفسه كالصلاة، والحج، والعمرة، وقراءة القرآن، والصوم، والاعتكاف، والذكر ونحوها، مضافاً إلى أداء فرائض الله عليه، فهو جاهدٌ في تكثير حسناته، وملء صحيفته بها، وإذا عمل خطيئة تاب إلى الله منها، فهذا على خير عظيم، وله ثواب أمثاله من عمال الآخرة. ولكن ليس له إلا عمله، فإذا مات طويت صحيفته بموته، فهذه طبقة أهل الربح والحظوة أيضاً عند الله.

*** الطبقة التاسعة:** طبقة أهل النجاة؛ وهي طبقة من يؤدّي فرائض الله، ويترك محارمه، مقتصرًا على ذلك، لا يزيد عليه ولا ينقص منه، فلا يتعدّى إلى ما حرّم الله عليه، ولا يزيد على ما فرّض عليه، وهذا من المفلحين بضمان رسول الله ﷺ لمن أخبره بشرائع الإسلام، فقال: والله لا أزيد على هذا، ولا أنقص منه. فقال: «أفلح إن صدق»^(١).

وأصحاب هذه الطبقة مضمون لهم على الله تكفير سيئاتهم، إذا أدّوا فرائضه واجتنبوا كبائر ما نهاهم عنه. قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمٍ﴾ [النساء: ٣١]. وصح عنه ﷺ أنه قال: «الصلوات الخمس ورمضان إلى رمضان والجمعة إلى الجمعة مكفّرات لما بينهما ما لم تُغش كبيرة»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٤٦، ٢٦٧٨)، ومسلم (١١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٣).

فإن غشي أهل هذه الطبقة كبيرةً، وتابوا منها توبةً نصوحًا، لم يخرجوا من طبقتهم، وكانوا بمنزلة من لا ذنب له، فتكفير الصغائر يقع بشيئين: أحدهما: الحسنات الماحية، والثاني: اجتناب الكبائر. وقد نصَّ عليهما سبحانه في كتابه، فقال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ أَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]. وقال: ﴿إِنْ تَجَنَّبُوا كِبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١].

*** الطبقة العاشرة:** طبقة قوم أسرفوا على أنفسهم، وغشوا كبائر ما نهى الله عنه، لكن رزقوا التوبة النصوح قبل الموت، فماتوا على توبة صحيحة، فهؤلاء ناجون من عذاب الله إمامًا قطعًا عند قوم، وإمامًا ظنًا ورجاءً عند آخرين، وهم موكولون إلى المشيئة، ولكن نصوص القرآن والسنة تدلُّ على نجاتهم وقبول توبتهم، وهو وعد وعدهم الله إياه، والله لا يخلف الميعاد.

*** الطبقة الحادية عشرة:** طبقة أقوام خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا، فعملوا حسنات وكبائر، ولقوا الله مُصْرِّين عليها غير تائين منها، لكن حسناتهم أغلب من سيئاتهم، فإذا وُزِنَتْ بها رَجَحَتْ كِفَّةُ الحسنات، فهؤلاء أيضًا ناجون فائزون، قال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨-٩].

قال حذيفة وعبد الله بن مسعود وغيرهما من الصحابة: يُحْشَرُ الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: فمن رجحت حسناته على سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته بواحدة دخل النار، ومن استوت حسناته وسيئاته فهو من أهل الأعراف.

وهذه الموازنة تكون بعد القصاص، واستيفاء المظلومين حقوقهم من حسناته. فإذا بقي له شيء منها وزن هو وسيئاته.

✽ **الطبقة الثانية عشرة:** قومٌ تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فتقابل أثرهما فتقاوما، فمُنعتهم حسناتهم المساوية من دخول النار، وسيئاتهم المساوية من دخول الجنة، فهؤلاء من أهل الأعراف، لم يفضل لأحدهم حسنة يستحق بها الرحمة من ربه، ولم يفضل عليه سيئة يستحق بها العذاب.

وقد وصف الله سبحانه أهل هذه الطبقة في سورة الأعراف - بعد أن ذكر دخول أهل النار النار، وتلاعنهم فيها، ومخاطبة أتباعهم لرؤسائهم، وردّهم عليهم؛ ثمّ مناداة أهل الجنة أهل النار - فقال تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ [الأعراف: ٤٦-٤٧].

○ فقلوه تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ أي: بين أهل الجنة والنار حجاب. قيل: هو السور الذي ضرب بينهم، له باب باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قبله العذاب؛ باطنه الذي يلي المؤمنين فيه الرحمة، وظاهره الذي يلي الكفار من جهته العذاب. و«الأعراف»: جمع عُرف، وهو المكان المرتفع، وهي سور عال بين الجنة والنار. قيل: هو هذا السور الذي يضرب بينهم.

○ وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ صريح في أنّهم من بني آدم، ليسوا من الملائكة.

○ وقوله: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ﴾ يعني: يعرفون الفريقين بسيماهم. ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا﴾ أي: نادى أهل الأعراف أهل الجنة بالسلام.

○ وقوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ الضميران في الجملتين لأصحاب الأعراف، لم يدخلوا الجنة بعد، وهم يطمعون في دخولها. قال أبو العالية: ما جعل الله ذلك الطمع فيهم إلا كرامةً يريد بها بهم.

○ ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ هذا دليل على أنهم بمكان مرتفع بين الجنة والنار، فإذا أشرفوا على أهل الجنة نادوهم بالسلام وطمعوا في الدخول إليها، وإذا أشرفوا على أهل النار سألوا الله أن لا يجعلهم معهم.

○ ثم قال تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا لَا يَعْرِفُونَهُمْ بِسْمَتِهِمْ﴾ يعني من الكفار الذين في النار، فقالوا لهم: ﴿مَا آغَى عَنْكُمْ جَمْعَكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ يعني ما نفعكم جمعكم وعشيرتكم وتحزبكم على أهل الحق ولا استكباركم، وهذا إمّا نفسي، وإمّا استفهام توبيخ، وهو أبلغ وأفخم.

○ ثم نظروا إلى الجنة فرأوا من فيها من الضعفاء الذين كان الكفار يسترذلونهم في الدنيا ويزعمون أن الله لا يختصهم دونهم بفضل، كما لم يختصهم دونهم في الدنيا، فيقول لهم أهل الأعراف: ﴿أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ أيها المشركون أن الله تعالى لا ينالهم برحمة، فها هم في الجنة يتمتعون ويتنعمون، وفي رياضها يُجبرون، ثم يقال لأهل الأعراف: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩].

○ وقيل: إن أصحاب الأعراف إذا عيروا الكفار، وأخبروهم أنهم لم تغن عنهم جموعهم واستكبارهم، عيّرهم الكفار بتخلّفهم عن الجنة، وأقسموا أن الله لا ينالهم برحمة، لما رأوا من تخلّفهم عن الجنة، وأنهم يصيرون إلى النار، فتقول لهم الملائكة حيثئذ: ﴿أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. والقولان قويان محتملان، والله أعلم.

فهؤلاء الطبقات هم أهل الجنة الذين لم تمسّهم النار.

* الطبقة الثالثة عشرة: طبقة أهل المحنة والبلية، نعوذ بالله، وإن كانت آخرتهم إلى عفو وخير، وهم قوم مسلمون خفّت موازينهم، ورجحت سيئاتهم على حسناتهم،

فغلبتها السيئات، فهذه الطبقة هي التي اختلفت فيها أقاويل الناس، وكثر فيها خوضهم، وتشعبت مذاهبهم، وتشعبت آراؤهم.

وهؤلاء هم القسم الذين جاءت فيهم الأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ بأنهم يدخلون النار، فيكونون فيها على مقدار أعمالهم: فمنهم من تأخذه النار إلى كعبه، ومنهم من تأخذه إلى أنصاف ساقيه، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه. ويلبثون فيها على قدر أعمالهم، ثم يخرجون منها، فينبئون على أنهار الجنة، فيفيض عليهم أهل الجنة من الماء حتى تنبت أجسادهم، ثم يدخلون الجنة، وهم الطبقة الذين يخرجون من النار بشفاعه الشافعين، وهم الذين يأمر الله تعالى سيّد الشفعاء مراراً أن يخرجهم من النار بما معهم من الإيمان.

وإخبار النبي ﷺ أنهم يكونون فيها على قدر أعمالهم، مع قوله تعالى: ﴿جَزَاءُ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٤] و﴿هَلْ تُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠] وقوله: ﴿وَتُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١] وأضعاف ذلك من نصوص القرآن والسنة يدل على ما قاله أفضل الأمة وأعلمها بالله وكتابه وأحكام الدارين أصحاب محمد ﷺ، والعقل والفطرة تشهد له، وهو مقتضى حكمة العزيز الحكيم الذي بهرت حكمه العقول. فليس الأمر مسيئاً خارجاً عن الضبط والحكمة، بل مربوط بالأسباب، والحكم مرتّب عليها أكمل ترتيب، جارٍ على نظام اقتضاه السبب واستدعته الحكمة.

*** الطبقة الرابعة عشرة:** قوم لا طاعة لهم ولا معصية، ولا كفر ولا إيمان، وهؤلاء أصناف: منهم من لم تبلغه الدعوة بحال ولا سمع لها بخبر، ومنهم المجنون الذي لا يعقل شيئاً ولا يميّز، ومنهم الأصم الذي لا يسمع شيئاً أبداً، ومنهم أطفال المشركين الذين ماتوا قبل أن يميّزوا شيئاً، فاختلفت الأمة في حكم هذه الطبقة اختلافاً كثيراً، والمسألة التي وسّعوا فيها الكلام هي مسألة أطفال المشركين.

وأما أطفال المسلمين، فقال الإمام أحمد: لا يختلف فيهم أحد، يعني أنهم في

الجنة، وحكى ابن عبد البر عن جماعة أنهم توقّفوا فيهم، وأنّ جميع الولدان تحت المشيئة قال: وذهب إلى هذا القول جماعة كثيرة من أهل الفقه والحديث منهم حمّاد بن زيد وحمّاد بن سلمة، وابن المبارك، وإسحاق بن راهويه، وغيرهم، وليس عن مالك فيه شيء منصوص إلا أنّ المتأخرين من أصحابه ذهبوا إلى أنّ أطفال المسلمين في الجنة، وأطفال المشركين خاصّة في المشيئة.

وأما أطفال المشركين فإنّهم يمتحنون في عرصة القيامة، ويرسل إليهم هناك رسول وإلى كلّ من لم تبلغه الدعوة، فمن أطاع الرسول دخل الجنة، ومن عصاه أدخله النار. وعلى هذا فيكون بعضهم في الجنة وبعضهم في النار، وبهذا يتألف شمل الأدلة كلّها، وتتوافق الأحاديث، ويكون معلوم الله عزّ وجلّ الذي أحال عليه النبي ﷺ حيث يقول: «الله أعلم بما كانوا عاملين»^(١) يظهر حينئذٍ، ويقع الثواب والعقاب عليه حال كونه معلوماً خارجياً لا علماً مجرداً، ويكون النبي ﷺ قد ردّ جوابهم إلى علم الله فيهم، والله تعالى يردّ ثوابهم وعقابهم إلى معلومه منهم، فالخبر عنهم مردودٌ إلى علمه، ومصيرهم مردودٌ إلى معلومه.

وقد جاءت بذلك آثار كثيرة يؤيد بعضها بعضاً.

*** الطبقة الخامسة عشرة:** طبقة الزنادقة؛ وهم قومٌ أظهرُوا الإسلام ومتابعة الرسل، وأبطنوا الكفر ومعادة الله ورسله، وهؤلاء هم المنافقون، وهم في الدرك الأسفل من النار. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥]. فالكفّار المجاهرون بكفرهم أخفّ، وهم فوقهم في دركات النار؛ لأنّ الطائفتين اشتركتا في الكفر ومعادة الله ورسله، وزادت المنافقون عليهم بالكذب والنفاق. وبلية المسلمين بهم أعظم من بليّتهم بالكفّار المجاهرين، ولهذا قال تعالى في حقّهم: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٤)، ومسلم (٢٦٥٨).

ومثل هذا اللفظ يقتضي الحصر، أي: لا عدوّ إلا هم. ولكن لم يرد ههنا حصر العداوة فيهم وأنهم لا عدوّ للمسلمين سواهم، بل هذا من باب إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف، وأنه لا يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهراً وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم، بل هم أحقّ بالعداوة ممن باينهم في الدار، ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها.

ونظير ذلك قول النبي ﷺ: «ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرّة والتمرّتان، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس، ولا يُفطن له فيُصدّق عليه»^(١). فليس هذا نفيّاً لاسم المسكين عن الطوّاف، بل إخبارٌ بأنّ هذا القانع الذي لا يسمّونه مسكيناً أحقّ بهذا الاسم من الطوّاف الذي يسمّونه مسكيناً.

ونظيره قوله: «ليس الشديد بالصُّرعة، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب»^(٢). ليس نفيّاً للاسم عن الصرعة، ولكن إخبارٌ بأنّ من يملك نفسه عند الغضب أحقّ منه بهذا الاسم.

ونظيره قوله: «ما تعدّون المفلس فيكم؟» قالوا: من لا درهم له ولا متاع. قال: «المفلس من يأتي يوم القيامة بحسناتٍ أمثال الجبال، ويأتي قد لطمَ هذا، وضرب هذا، وأخذ مال هذا؛ فيقتصّ هذا من حسناته، وهذا من حسناته. فإن فنيّت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من سيئاتهم ثمّ طُرِحَ عليه فأُلقيَ في النار»^(٣).

والمقصود أنّ هذه الطبقة أشقى الأتقياء، ولهذا يستهزأ بهم في الآخرة، ويُعطون نوراً يتوسّطون به على الصراط، ثمّ يطفئ الله نورهم، ويقال لهم: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١٣]. ويضرب بينهم وبين المؤمنين ﴿سُورٍ لَهُمْ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٩، ٤٥٣٩)، ومسلم (١٠٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٨١).

الرَّحْمَةُ وَظَهَرَهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمُ اللَّهُ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾. وهذا أشد ما يكون من الحسرة والبلاء أن يُفْتَحَ للعبد طريق النجاة والفلاح، حتَّى إذا ظنَّ أنَّه ناجٍ ورأى منازل السعداء أقتطع عنهم وضربت عليه الشقوة. ونعوذ بالله من غضبه وعقابه.

وإنَّما كانت هذه الطبقة في الدرك الأسفل لغلظ كفرهم، فإنَّهم خالطوا المسلمين وعاشروهم، وباشروا من أعلام الرسالة وشواهد الإيمان ما لم يباشره البعداء، ووصل إليهم من معرفته وصحته ما لم يصل إلى المنافذين بالعداوة؛ فإذا كفروا مع هذه المعرفة والعلم كانوا أغلظ كفراً، وأخبث قلوباً، وأشدَّ عداوة لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين من البعداء عنهم، وإن كان البعداء متصدِّين لحرب المسلمين. ولهذا قال تعالى في المنافقين: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَغَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣] وقال فيهم: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٨]. وقال في الكفار ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. فالكافر لم يعقل، والمنافق أبصر ثمَّ عمي، وعرف ثمَّ تجاهل، وأقرَّ ثمَّ أنكر، وآمن ثمَّ كفر. ومن كان هكذا فهو أشدَّ كفراً، وأخبث قلباً، وأعتى على الله ورسوله؛ فاستحقَّ الدرك الأسفل.

ولهذا لما ذكر تعالى أقسام الخلق في أوَّل سورة البقرة، فقسمهم إلى مؤمنٍ ظاهرًا وباطنًا، وكافرٍ ظاهرًا وباطنًا، ومؤمنٍ في الظاهر كافرٍ في الباطن وهم المنافقون، ذكر في حقِّ المؤمنين ثلاث آيات، وفي حقِّ الكفار آيتين، فلما انتهى إلى ذكر المنافقين ذكر فيهم بضع عشرة آية؛ ذمَّهم فيها غاية الذمِّ، وكشَفَ عوراتهم، وفضحهم، وأخبر بأنَّهم هم السفهاء، المفسدون في الأرض المخادعون، المستهزئون، المغبونون في اشترائهم الضلالة بالهدى وأنَّهم صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فهم لا يرجعون، وأنَّهم مرضىٰ القلوب وأنَّ الله يزيدهم مرضًا إلى مرضهم؛ فلم يدع ذمًّا ولا عيبًا إلَّا ذمَّهم به، وهذا

يدلّ على شدة مقتته سبحانه لهم، وبغضه إيّاهم، وعداوته لهم، وأنّهم أبغض أعدائه إليه، فظهرت حكمته الباهرة في تخصيص هذه الطبقة بالدرك الأسفل من النار. نعوذ بالله من مثل حالهم، ونسأله معافاته ورحمته.

ومن تأمل ما وصف الله به المنافقين في القرآن من صفات الذمّ، علم أنّهم أحقّ بالدرك الأسفل، فإنّه وصفهم بمخادعته ومخادعة عباده، ووصف قلوبهم بالمرض، وهو مرض الشبهات والشكوك، ووصفهم بالإفساد في الأرض وبالاستهزاء بدينه وعباده، والطغيان، واشتراء الضلالة بالهدى، والصمم والبكم والعمى، والحيرة، والكسل عند عبادته، والرياء، وقلة ذكره، والتردد - وهو التذبذب - بين المؤمنين والكفار، فلا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، والحلف باسمه تعالى كذباً وباطلاً، وبالكذب، وبغاية الجبن، وبعدم الفقه في الدين، وبعدم العلم، وبالبخل، وبعدم الإيمان بالله وباليوم الآخر، وبالريب، وبأنّهم مضرة على المؤمنين، لا يحصل لهم بصحبتهم إلّا الشرّ من الخبال، والإسراع بينهم بالشرّ وإلقاء الفتنة، وكرهاتهم لظهور أمر الله ومجيء الحقّ، وأنّهم يحزنون بما يحصل للمؤمنين من الخير والنصر، ويفرحون بما يحصل لهم من المحنة والابتلاء، وأنّهم يتربصون الدوائر بالمسلمين، وبكرهاتهم الإنفاق في مرضاة الله وسبيله، وبعيب المؤمنين ورميهم بما ليس فيهم، فيلمزون المتصدّقين، ويعيون مزيهدهم، ويرمون مكثّرهم بالرياء وإرادة الثناء في الناس، وأنّهم عبيد الدنيا، إن أعطوا منها رضوا، وإن منعوها سخطوا، وبأنّهم يؤذون رسول الله ﷺ وينسبونه إلى ما برأه الله منه، أو يعيبونه بما هو من كماله وفضله، وبأنّهم يقصدون إرضاء المخلوقين ولا يطلبون إرضاء ربّ العالمين، وأنّهم يسخرون من المؤمنين، وأنّهم يفرحون إذا تخلفوا عن رسول الله ﷺ، ويكرهون الجهاد في سبيل الله، وأنّهم يتحيّلون على تعطيل فرائض الله عليهم بأنواع الحيل، وأنّهم يرضون بالتخلف عن طاعة الله ورسوله ﷺ، وأنّهم مطبوع على قلوبهم، وأنّهم يتركون ما أوجب الله عليهم مع قدرتهم عليه، وأنّهم أحلف الناس بالله؛ قد اتخذوا أيمانهم جنةً تقيهم من إنكار المسلمين عليهم.

وجملة أمرهم أنهم في المسلمين كالزغل^(١) في النقود، يروج على أكثر الناس لعدم بصيرتهم بالنقد، ويعرف حاله الناقد البصير من الناس، وقليل ما هم! وليس على الأديان أضر من هذا الضرب من الناس، وإنما تفسد الأديان من قبلهم. ولهذا جلا الله أمرهم في القرآن، وأوضح أوصافهم، وبين أحوالهم، وكرّر ذكرهم؛ لشدة المؤنة على الأمة بهم، وعظم البلية عليهم بوجودهم بين أظهرهم، وفرط حاجتهم إلى معرفتهم والتحرّز من مشابهمهم أو الإصغاء إليهم.

فهم والله قُطَاع الطريق حقًا! فيا أيها الركب المسافرون إلى منازل السعداء، حذارًا منهم حذارًا، وهم الجزّارون، ألسنتهم شِفَارُ البلايا، ففرارًا منهم أيّها الغنم فرارًا!

فحقيق بأهل هذه الطبقة أن يحلّوا بالمحلّ الذي أحلّهم الله من دار الهوان، وأن ينزلوا في أردأ منازل أهل العناد والكفران.

*** الطبقة السادسة عشرة:** طبقة رؤساء الكفر وأئمتهم ودعاته الذين كفروا وصدّوا عباد الله عن الإيمان وعن الدخول في دينه رغبة ورهبةً، فهؤلاء عذابهم مضاعف، ولهم عذابان: عذاب الكفر، وعذاب بصدّ الناس عن الدخول في الإيمان. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]. فأحد العذابين بكفرهم، والعذاب الآخر بصدّهم عن سبيل الله.

وقد استقرّت حكمة الله وعدله أن يجعل على الداعي إلى الضلال مثل آثام من اتبعه واستجاب له. ولا ريب أن عذاب هذا يتضاعف ويتزايد بحسب من اتبعه وضلّ به، وهذا النوع في الأشقياء مقابل دعاة الهدى في السعداء، فأولئك يتضاعف ثوابهم وتعلو درجاتهم بحسب من اتبعهم واهتدى بهم، وهؤلاء عكسهم.

(١) الزغل: الزائف المغشوش.

ولهذا كان فرعون وقومه في أشدّ العذاب، قال تعالى في حقّهم: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]. وهذا تنبيه على أنّ فرعون نفسه في الأشدّ من ذلك؛ لأنّهم إنّما دخلوا أشدّ العذاب تبعاً له، فإنّه هو الذي استخفّهم فأطاعوه، وغرّهم فاتّبعوه، ولهذا يكون يوم القيامة إمامهم وفرطهم في هذا الورد. قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨].
والمقصود: أنّهم إنّما استحقّوا أشدّ العذاب لتغلّظ كفرهم، وصدّهم عن سبيل الله وعقوبتهم من آمن بالله.

ولا ريب أنّ الكفر يتفاوت، فكفر أغلظ من كفر. كما أنّ الإيمان يتفاوت فيإيمان أفضل من إيمان. فكما أنّ المؤمنين ليسوا في درجة واحدة بل هم درجات عند الله، فكذلك الكفار ليسوا في طبقة واحدة ودرك واحد، بل النار دركات كما أنّ الجنّة درجات. ولا يظلم الله من خلقه أحداً. وهو الغني الحميد.

فصل

وتغلّظ الكفر الموجب لتغلّظ العذاب يكون من ثلاثة أوجه:

- أحدها: من خبث العقيدة الكافرة في نفسها، كمن جحد ربّ العالمين بالكلية، وعطلّ العالم عن الربّ الخالق المدبّر له، فلم يؤمن بالله وملائكته ولا كتبه ولا رسله ولا اليوم الآخر.

- الجهة الثانية: تغلّظه بالعناد والضلال عمداً على بصيرة، ككفر من شهد قلبه أنّ الرسول ﷺ حقّ لما رآه من آيات صدقه، وكفرّ عناداً وبغيّاً، كقوم ثمود، وقوم فرعون، واليهود الذين عرفوا الرسول ﷺ كما عرفوا أبناءهم، وكفر أبي جهل وأمية بن أبي الصلت وأمثال هؤلاء.

- الجهة الثالثة: السعي في إطفاء نور الله وصدّ عباده عن دينه بما تصل إليه

قدرتهم. فهو لاء أشد الكفار عذاباً بحسب تغلظ كفرهم.

ومنهم من يجتمع في حقّه الجهات الثلاث، ومنهم من يكون فيه ثنتان منها أو واحدة. فليس عذاب هؤلاء كعذاب من هو دونهم في الكفر ممن هو ملبوس عليه لجهله، والمؤمنون من أذاه في سلامة لا ينالهم منه أذى، ولم يتغلظ كفره كتغلظ كفر هؤلاء؛ بل هو مقرّ بالله ووحدانيته وملائكته وجنس الكتب والرسل واليوم الآخر، وإن شارك أولئك في كفرهم بالرسول ﷺ فقد زادوا عليه أنواعاً من الكفر.

والمقصود أنّ هذه الطبقة - وهي طبقة الرؤساء الدعاة الصادّين عن دين الله - ليست كطبقة من دونهم. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنّه قال: «أهون أهل النار عذاباً أبو طالب»^(١)، ومعلوم أنّ كفر أبي طالب لم يكن مثل كفر أبي جهل وأمثاله.

*** الطبقة السابعة عشرة:** طبقة المقلّدين؛ وهم جهال الكفرة وأتباعهم وحميرهم الذين هم معهم تبع، يقولون: إنّنا وجدنا آباءنا على أمة، ولنا أسوة بهم، ومع هذا فهم متاركون لأهل الإسلام غير محاربين لهم، كنساء المحاربين وخدمهم وتباعهم الذين لم ينصبوا أنفسهم لما نصب له أولئك أنفسهم من السعي في إطفاء نور الله وهدم دينه وإخماد كلماته، بل هم معهم بمنزلة الدواب.

وقد اتفقت الأمة على أنّ هذه الطبقة كفّار وإن كانوا جهّالاً مقلّدين لرؤسائهم وأئمتهم، إلّا ما يحكى عن بعض أهل البدع أنّه لم يحكم لهؤلاء بالنار وجعلهم بمنزلة من لم تبلغه الدعوة، وهذا مذهب لم يقل به أحد من أئمة المسلمين لا الصحابة ولا التابعين ولا من بعدهم، وإنّما يعرف عن بعض أهل الكلام المحدث في الإسلام.

وقد صحّ عن النبي ﷺ أنّه قال: «ما من مولود إلّا وهو يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه»^(٢). فأخبر أنّ أبويه ينقلانه عن الفطرة إلى اليهودية

(١) أخرجه مسلم (٢١٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).

والنصرانية والمجوسية، ولم يعتبر في ذلك غير المرئى والمنشأ على ما عليه الأبوان. وصح عنه أنه قال: «إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة»^(١).

وهذا المقلد ليس بمسلم، وهو عاقل مكلف، والعاقل المكلف لا يخرج عن الإسلام أو الكفر. وأما من لم تبلغه الدعوة فليس بمكلف في تلك الحال، وهو بمنزلة الأطفال والمجانين، وقد تقدّم الكلام عليهم. والإسلام هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، والإيمان بالله وبرسوله ﷺ وأتباعه فيما جاء به، فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم، وإن لم يكن كافراً معانداً، فهو كافر جاهل.

فغاية هذه الطبقة أنهم كفار جهال غير معاندين، وعدم عنادهم لا يخرجهم عن كونهم كفاراً، فإن الكافر من جحد توحيد الله وكذب رسوله ﷺ إما عناداً وإما جهلاً وتقليداً لأهل العناد، فهذا وإن كان غايته أنه غير معاند، فهو متبع لأهل العناد.

وقد أخبر الله تعالى في القرآن في غير موضع بعذاب المقلدين لأسلافهم من الكفار، وأن الأتباع مع متبوعهم، وأنهم يتحاجون في النار، وأن الأتباع يقولون: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَانصُرْنَا عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧-٤٨].

وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل أوزار من اتبعه. لا ينقص من أوزارهم شيئاً»^(٢). وهذا يدل على أن كفر من اتبعهم إنما هو بمجرد اتباعهم وتقليدهم.

(١) أخرجه البخاري (٣٠٦٢)، ومسلم (١١١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٤).

نعم، لا بدّ في هذا المقام من تفصيل به يزول الإشكال، وهو الفرق بين مقلّد تمكّن من العلم ومعرفة الحقّ فأعرض عنه، ومقلّد لم يتمكّن من ذلك بوجه، والقسمان واقعان في الوجود؛ فالتمكّن المعرض مفرّط تارك للواجب عليه، لا عذر له عند الله. وأمّا العاجز عن السؤال والعلم الذي لا يتمكّن من العلم بوجه، فهم قسمان أيضًا:

- أحدهما: مريد للهدى مؤثر له محبّ له، غير قادر عليه ولا على طلبه لعدم من يرشده، فهذا حكمه حكم أرباب الفترات، ومن لم تبلغه الدعوة.
- الثاني: معرض لا إرادة له، ولا يحدث نفسه بغير ما هو عليه.

○ فالأول يقول: يا ربّ لو أعلم لك دينًا خيرًا مما أنا عليه لدنّْتُ به وتركت ما أنا عليه، ولكن لا أعرف غير ما أنا عليه ولا أقدر على غيره، فهو غاية جهدي ونهاية معرفتي.

○ والثاني: راضٍ بما هو عليه، لا يؤثر غيره عليه، ولا تطلب نفسه سواه، ولا فرق عنده بين حال عجزه وقدرته، وكلاهما عاجز. وهذا لا يجب أن يلحق بالأول لما بينهما من الفرق. فالأول: كمن طلب الدين في الفترة ولم يظفر به، فعدل عنه بعد استفراغه الوسع في طلبه عجزًا وجهلاً. والثاني: كمن لم يطلبه، بل مات على شركه، وإن كان لو طلبه لَعَجَز عنه. ففرق بين عجز الطالب وعجز المعرض. فتأمّل هذا الموضع.

والله يقضي بين عباده يوم القيامة بحكمه وعدله، ولا يعذب إلا من قامت عليه حجته بالرسول، فهذا مقطوع به في جملة الخلق، وأمّا كون زيد بعينه وعمر وبعينه قامت عليه الحجة أم لا، فذلك مما لا يمكن الدخول بين الله وبين عباده فيه، بل الواجب على العبد أن يعتقد أنّ كلّ من دان بدين غير دين الإسلام فهو كافر، وأنّ الله سبحانه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بالرسول ﷺ. هذا في الجملة، والتعيين موكل إلى علم الله عزّ وجلّ وحكمه.

هذا في أحكام الثواب والعقاب، وأمّا في أحكام الدنيا فهي جارية على ظاهر الأمر، فأطفال الكفّار ومجانينهم كفّار في أحكام الدنيا، لهم حكم أوليائهم.

وهذا التفصيل يزول الإشكال في المسألة، وهو مبني على أربعة أصول:

■ أحدها: أن الله سبحانه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

■ الأصل الثاني: أن العذاب يُستحقّ بشيئين: أحدهما: الإعراض عن الحجة، وعدم إرادة العلم بها وبموجبها. الثاني: العناد لها بعد قيامها، وترك إرادة موجبها.

فالأول كفر إعراض، والثاني كفر عناد. وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة وعدم التمكن من معرفتها، فهذا الذي نفى الله التعذيب عليه حتى تقوم حجته بالرسول.

■ الأصل الثالث: أن قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص، فقد تقوم حجة الله على الكفار في زمان دون زمان، وفي بقعة وناحية دون أخرى، كما أنها تقوم على شخص دون آخر.

■ الأصل الرابع: أن أفعال الله عزَّ وجلَّ تابعة لحكمته التي لا يخل بها سبحانه، وأنها مقصودة لغاياتها المحبوبة وعواقبها الحميدة.

فصل

* الطبقة الثامنة عشرة: طبقة الجن. وقد اتفق المسلمون على أن منهم المؤمن والكافر، والبر والفاجر، قال تعالى إخباراً عنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١]. قال مجاهد: يعنون: مسلمين وكافرين. وقال الحسن والسدي: أمثالكم، فمنهم قدرية ومرجئة ورافضة. وقال سعيد بن جبیر: ألواناً شتى. وقال ابن كيسان: شيعاً وفرقاً. ومعنى الكلام: أصنافاً مختلفة ومذاهب متفرقة.

وقولهم: ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١] بيان لقولهم: ﴿مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: كنّا ذوي طرائق، وهي المذاهب، واحداً طريقة، وهي المذهب. والقِدَد جمع قِدَّة، كقطعة وقطع وزناً ومعنى. وهي من القَد، وهو القطع.

فَصْلٌ

وقد اتفق المسلمون على أن كفّار الجنّ في النَّار. وقد دلّ على ذلك القرآن في غير موضع كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ يَتَّبِعُكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الآية [ص: ٨٥] فملؤها به منه وبكفار ذريته. وقال تعالى: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨]. وقال تعالى في حكاية عن مؤمنيههم: ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَوْا رَشَدًا ۖ ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٤-١٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وبالجملة فهذا أمرٌ معلوم بالاضطرار من دين الإسلام، وهو يستلزم تكليف الجنّ بشرائع الأنبياء ووجوب اتباعهم لهم.

فأمّا شريعتنا فأجمع المسلمون على أن محمداً ﷺ بعث إلى الجنّ والإنس، وأنه يجب على الجنّ طاعته، كما تجب على الإنس، وأمّا قبل نبينا ﷺ فقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] يدلّ على أن الأمم الخالية من كفّار الجنّ في النَّار، وذلك إنّما يكون بعد إقامة الحجّة عليهم بالرسالة.

وقد دلّت سورة الرحمن على تكليفهم بالشرائع كما كلف الإنس، ولهذا يقول سبحانه في إثر كلّ آية: ﴿فَإِنِّي ءَالَاءٌ رِبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ﴾، فدلّ ذلك على أن السورة خطاب للثقلين معاً، ولهذا قرأها رسول الله ﷺ على الجنّ قراءة تبليغ، وأخبر أصحابه أنهم كانوا أحسن رداً منهم، فإنهم جعلوا يقولون كلّما قرأ عليهم ﴿فَإِنِّي ءَالَاءٌ رِبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ﴾: لا نكذب بشيء من آلائك ربّنا فلك الحمد^(١).

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩١)، وقال: غريب.

فصل

وأما حكم مؤمنهم في الدار الآخرة، فجمهور السلف والخلف على أنهم في الجنة، وترجم على ذلك البخاري **رَحِمَهُ اللَّهُ** في صحيحه فقال: «باب ثواب الجن وعقابهم لقوله تعالى: ﴿يَمَعَشَرِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي﴾ [الأنعام: ١٣٠] وقال الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصفات: ١٥٨] ستُحْضَر للحساب».

وقد ذهب جمهور الناس إلى أن مؤمنهم في الجنة. وأما أحكامهم في الدنيا فاختلف الناس: هل هم مكلفون بالأمر والنهي، أم مضطرون إلى أفعالهم؟ على قولين حكاهما أبو الحسن الأشعري في كتاب (المقالات) له.

قلت: الصواب الذي عليه جمهور أهل الإسلام أنهم مأمورون منهون مكلفون بالشريعة الإسلامية، وأدلة القرآن والسنة على ذلك أكثر من أن تحصر.

وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمُورٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ [الأحقاف: ١٨] فأخبر أن منهم من حَقَّ عليه القول، أي: وجب عليه العذاب، وأنه خاسر، ولا يكون ذلك إلا في أهل التكليف المستوجبين للعقاب بأعمالهم. ثم قال بعد ذلك: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف: ١٩] أي: في الخير والشر يُوقَفُونَهَا ولا يُظْلَمُونَ شيئاً من أعمالهم، وهذا ظاهر جداً في ثوابهم وعقابهم، وأنَّ مسيئهم كما يستحقُّ العذاب بإساءته، فمحسنهم يستحقُّ الدرجات بإحسانه، فلكلِّ درجاتٍ ممَّا عملوا، فدلَّ ذلك لا محالة أنَّهم كانوا مأمورين بالشرائع، متعبدين بها في الدنيا، ولذلك استحقُّوا الدرجات بأعمالهم في الآخرة في الخير والشر.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشَرِ الْجَنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَائُهُم مِّنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَلْجَنَّا الَّذِي أَجَلَتْ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وهذا صريح في تكليفهم، فإنَّ هذا القول يقال للجنِّ في القيامة، فيذكر الإنس استمتاع بعضهم ببعض في الدنيا، وذلك الاستمتاع هو ما بين الجنِّ والإنس من طاعتهم إياهم في معصية الله، وعبادتهم لهم دون الله، ليستعينوا بهم على شهواتهم وأغراضهم. فإنَّهم كانوا يستوحونهم، ويعوذون بهم، ويذبحون لهم وبأسمائهم، ويوالونهم من دون الله، كما هو شأن أكثر المشركين من أولياء الشيطان، فهذا استمتاع بعضهم ببعض.

ولهذا يقول تعالى للملائكة يوم القيامة -وقد جمع العابدين والمعبودين:- ﴿أَهْوَلَاءِ بِإِذْكُم مَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٤٠) ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١] فهؤلاء عبَاد الجنِّ وأولياء الشيطان.

وأكثرهم يعلم ذلك ويرضى به لما ينال به من المتعة بمعبوده، وكثير منهم ملبوس عليه، فهو يعبد الشيطان ولا يشعر، وقد أشار زيد بن عمرو بن نفيل في شعره إلى هذا الشرك بالجنِّ فقال:

حنائيك إنَّ الجنَّ كانت رجاءهم * وأنتَ إلهي ربَّنَا ورجائنا

ولهذا يقولون في القيامة: ﴿رَبَّنَا أَسْتَمِعْ بَعْضُنَا بِعَظْمِ بَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٢٨] قال الله تعالى: ﴿النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٢٨] فهذا خطاب للصنفين، وهو صريح في اشتراكهم في التكليف، كما هو صريح في اشتراكهم في العذاب، وهذا كثير في القرآن.

وممَّا يدلُّ على تكليفهم أيضًا قوله تعالى: ﴿يَمَعَشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُزِدُّونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]. فلمَّا اعترفوا بأنهم كانوا كافرين، وشهدوا على أنفسهم بالكفر، دلَّ ذلك على تكليفهم وتوجُّه الخطاب إليهم.

فإذا عُلِمَ تكليفُهم بشرائع الأنبياء ومطالبتهم بها، وحشرهم يوم القيامة للثواب والعقاب، عُلِمَ أنَّ محسنهم في الجنة كما أنَّ مسيئهم في النار.

وقد دلَّ على ذلك قوله تعالى حكاية عن مؤمنهم: ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْمُدَىٰ ءَامَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ ۚ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١٣]، وبهذه الحجة احتج البخاري. ووجه الاحتجاج بها أنَّ البخس المنفي هو: نقصان الثواب، والرهق: الزيادة في العقوبة على ما عمل، فلا يُنقص من ثواب حسناته ولا يُزاد في سيئاته. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢] أي: لا يخاف زيادة في سيئاته ولا نقصًا في حسناته.

وأيضًا فقد قال تعالى في سورة الرحمن: ﴿وَلِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ۖ فِيهَا نَضَاءٌ ۖ رَّيْحًا ۖ نَّكَدَّابًا﴾ وذكر ما في الجنة إلى قوله: ﴿لَمْ يَطْمِئَنُوا بِإِنْسٍ قَبْلَهُمْ وَلَا بَآءٌ ۖ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ثَوَابَ محسنهم الجنة.

فهذا ما وصل إليه الإحصاء من طبقات المكلفين في الدار الآخرة، وهي ثمان عشرة طبقة، وكل طبقة منها لها أعلى وأدنى ووسط، وهم درجات عند الله. والله تعالى يحشر الشكل مع شكله والنظير مع نظيره، ويقرن بينهما في الدرجة.

قال تعالى: ﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [٢٣-٢٢]. قال الإمام أحمد وقبلة عمر بن الخطاب: «أزواجهم»: أشباههم ونظراؤهم.

والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على محمد وآله.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة المختصر.....	٥
مقدمة المؤلف.....	٧
فَصْلٌ في أنَّ الله هو الغني المطلق والخلق فقراء محتاجون إليه.....	١٠
تعريف الفقر ودرجاته عند الهروي، وتفسير كلامه.....	١٣
تفسير الدرجة الأولى من الفقر.....	١٤
فَصْلٌ [تفسير الدرجة الثانية من الفقر].....	١٦
التعبد لله بأسمائه: الأول، والآخر، والظاهر، والباطن.....	١٧
تفسير الدرجة الثالثة من الفقر.....	٢١
فصل [في الغنى وانقسامه إلى عالٍ وسافل].....	٢٤
فَصْلٌ [في الغنى العالي وتفسير كلام الهروي في درجاته].....	٢٥
تفسير الدرجة الأولى وهي غنى القلب.....	٢٧
فَصْلٌ [في تفسير الدرجة الثانية وهي غنى النفس].....	٣٢
فَصْلٌ [في الدرجة الثالثة وهي: الغنى بالحق سبحانه، ولها ثلاث درجات].....	٣٣
من فوائد شهود معاني الأسماء الحسنی.....	٣٥
قاعدة شريفة عظيمة القدر.....	٣٩
الاحتجاج بالقدر، والنصوص الواردة في إثباته.....	٤٥
فَصْلٌ [الكلام على الحمد وأنه سبحانه المحمود على كل شيء].....	٦٣
فَصْلٌ [الحكمة في خلق الدنيا والجنة والنار].....	٨٠

- قَاعِدَةٌ [الابتلاء بين النعمة والنقمة] ٨٦
- قَاعِدَةٌ في مشاهد الناس في المعاصي والذنوب ٨٧
- قَاعِدَةٌ في الإنابة ودرجاتها ٩٤
- قَاعِدَةٌ في ذكر طريق قريب موصل إلى الاستقامة في الأحوال والأقوال والأعمال ٩٦
- قاعدة شريفة [الطريق إلى الله واحد] ٩٨
- قَاعِدَةٌ [السير إلى الله لا يتم إلا بقوتين: علمية وعملية] ١٠١
- قَاعِدَةٌ نَافِعَةٌ [أقسام العباد في سفرهم إلى ربهم] ١٠٢
- فَصْلٌ [في الكلام على المقامات وعللها والرد على ابن العريف وأرباب
التصوف] ١١٥
- مسألة شريفة ١٢٠
- مسألة أخرى ١٢٠
- قَاعِدَةٌ ١٣٠
- فصل في المحبة ١٤١
- فَصْلٌ حدّ للمحبة والكلام عليه ١٤٢
- فَصْلٌ [حدّ آخر للمحبة] ١٤٥
- فَصْلٌ [حدّ آخر للمحبة] ١٤٩
- فَصْلٌ [حدّ آخر للمحبة] ١٥١
- فَصْلٌ [حدود أخرى للمحبة] ١٥٣
- فصل في الشوق ١٥٨
- فَصْلٌ [في مراتب المكلفين في الدار الآخرة وطبقاتهم فيها وهم ثمان عشرة
طبقة] ١٦٤
- فهرس الموضوعات ١٩١